الوحدة الوطنية في مصر
عبر التاريخ

تقديم

المهندس سيد مرعى

الأمين الأول للجنة المركزية

حسين عبد الواحد الشاعر
دراسات عليا في العلوم الاجتماعية

...عزيز رفاعي
...التاريخ



عالم الكتب

الوحدة الوطنية فى مصر
عبر التاريخ

بتقديم

المهندس رشيد مرعى

الأمين الأول للجنة المركزية

تأليف

الدكتور عبد العزيز رفاعى
دكتوراه فى التاريخ

حسين عبد الواحد الشاعر
دراسات عليا فى العلوم الاجتماعية

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

تقـــديم

السيد المهندس سيد مرعى

الأمين الأول للجنة المركزية

يقصد بالوحدة الوطنية ، تجمع كل المواطنين تحت راية واحدة ، من أجل تحقيق هدف سام يعلو فوق أى خلاف أو تحزب ، فى ظل ولاء أسمى ، يدين به كل فرد من أفراد المجتمع ، بحكم انتمائه للوطن ، انتماء يجبّ أى انتماء طائفى أو مذهبى أو إقليمى ضيق .

ومن الملامح البارزة فى تاريخ مصر المجيد ، أنها دولة قامت — عبر القرون الوسطى — على أساس وحدة وطنية راسخة تعمقت فى وجدان الشعب كله ، فاستطاعت أن تحافظ على الوجود المصرى قوياً لايتزعزع ، ثابتاً لايتغير أو يتبدل ، وكانت مصر — بذلك — أول مجتمع إنسانى منظم يكتمل وعيه بضرورة التجمع والارتباط بعروة وثقى ، تستطيع أن تفجر الطاقات الخلاقة فى الشعب ، وتقضى على عوامل الفرقة والتناحر .

ومن صفاتنا التى لاينكرها علينا الأعداء ، أننا مجتمع يقوم على التسامح وعدم التعصب ، والقدرة على التعايش معاً ، دون أى اعتبار لاختلاف مذهبى أو عقائدى ، ومن هنا كان استمرار الوجود المصرى ، بصرف النظر عن تعاقب الأديان والمذاهب التى تدين بها الأغلبية ، ولو لم يكن مجتمعنا قائماً على السماحة والبعد عن الحقد والكراهية لتمزق وأصبح فرقاً شتى .

وكذلك فإن المجتمع المصرى كان فى طليعة المجتمعات التى استطاعت أن تتخلص من الانتماء القبلى ، وتمكنت من صهر جميع العناصر فى بوتقة كبيرة واحدة ، يكون نتاجها متميزاً بصلابة الجوهر أكثر من نقاء العنصر ، فليس منا — إذن — من دعا إلى عصبية .

وإذا كان التاريخ خير معلم ، فإن من أهم الدروس التى نتلقاها عنه ، أن الوحدة الوطنية ، إذا كانت ضرورية فى كل وقت لحماية تقدم المجتمع وتماسكه ، فإنها تصبح فريضة مقدسة فى وقت المحن والشدائد لحماية المجتمع وبقائه ، ورد العدوان

عنه ، ونحن نعى هذا الدرس إذا استعرضنا تاريخنا القديم والوسيط والحديث على السواء ، ولعل أقرب الأحداث إلى أذهاننا هي ثورة ١٩١٩ ، حين قامت جموع الشعب الواعية كلها ضد محتل كانت إحدى مزاعمه أنه يتشبث بتراب مصر لحماية « الأقليات » من طغيان الأغلبية ، فكان رد أبناء مصر على هذه الدعوى الباطلة ، أن اعتصموا بحبل الله جميعاً ولم يتفرقوا ، ووقفوا في وجه المستعمر صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، وعزيمة واحدة لاتقهر ، وكذلك فقد كانت الوحدة الوطنية من ملامح ثورتنا المجيدة في ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ حين رفعت شعار « الدين لله والوطن للجميع » .

ولعل الظروف التي نعيشها هذه الأيام ، بين المؤامرات التي تحاك ضدنا في الخارج ، والتحديات التي تواجهنا في الداخل لإقامة مجتمع عصري قادر على الأخذ بأسباب العلم الحديث دون التخلي عن روحه المتميزة ورصيده الحضاري الكبير ، تجعل الوحدة الوطنية ضرورة حتمية هي والجهاد سواء ، وقد كان هذا هو المعنى الكبير وراء قول قائدنا الرئيس « محمد أنور السادات » إنه بالوحدة الوطنية الآن وأكثر من أي وقت مضى — تصبح الجبهة الداخلية هي دعامة التحرير الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تكون هي أداة التحرير الرئيسية .

ويسرني هنا أن أقدم للقراء كتاباً عالج هذا الموضوع الهام علاجاً وافياً سد نقصا في مكتبتنا ، وأتاح لأجيالنا الجديدة التي لم تعاصر التجارب الماضية أن تتعرف على صفحات ناصعة في تاريخها الوطني الحافل ، وأن تأخذ العبرة من أسلافها الأولين ، كما تستمد إلهامها من رؤى الحالمين لمصر بمستقبل مشرق سعيد ؟

سيد مرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الوطن والقومية من النزعات الإجتماعية وكل منهما مثل سائر النزعات يولد بعض العواطف ويؤدى إلى بعض الإنفعالات بما يغير من السلوك الإنسانى .

والإنسان يحب أمته تحت تأثير النزعة القومية ، ويشعر نحوها بارتباط شديد ، ويعتبر نفسه جزءا منها فيفرح لكل مايمجدها ، ويتألم لكل ما ينال منها ، فتراه يصبو إلى رؤيتها قوية ويفخر بأمجادها ، ويحب الإنسان وطنه تحت تأثير النزعة الوطنية فيشعر نحوه بتعلق فعلى عميق فيفرح لسعادته ويتوجع عند نكبته .

وإذا بحثنا عن نشأة هاتين النزعتين نستطيع أن نرجعهما إلى حب الموطن والأهل ، فمنبع الوطنية وبذرتها الأولى حب الموطن وأما منبع القومية وبذرتها الأولى لحب الأهل .

إن حب الوطن يشبه حب الموطن وحب الأمة يماثل حب الأهل وبهذا نستطيع القول بأن حب الوطن إنما يتولد من توسع دائرة حب الموطن كما أن حب الأمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فالإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن كما ينظر إلى أهله كنوع من المواطنين ويحب وطنه ومواطنيه .

وتنشأ الروابط الوطنية من طول الإنتماء إلى الوطن من عوامل عاطفية قوامها عاطفة الحب : عوامل تكريمية ومعنوية لامادية أو حسية . أما القومية فتنشأ من العوامل التى تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وهى كثيرة منها وحدة الاعتقاد ووحدة الأصل والإشتراك فى اللغة والتاريخ والتماثل فى ذكريات الماضى وغير ذلك .

وبهذا تكون الوطنية هى حب الوطن والقومية حب الأمة ويختلف الإثنان ولكن ليس كل الإختلاف،فالمفهومان لايختلفان تماماً ، لحب الوطن يتضمن حب المواطن وحب الأمة يتضمن حب الأرض والوطن ومع ذلك لا تنطبق القومية على الوطنية تماماً .

وتنطبق الوطنية على القومية بشروط منها أن يكون الوطن بمجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة ، وتدير سياستها الدولة كانطباق الوطنية العربية على القومية العربية .

والوطنية هنا تماثل القومية تماماً ولا تخالفها إلا إذا ألفت الأمة دولا عديدة فيصبح لكل دولة وطنية خاصة .

والوطنية عاطفة تماسك بين أفراد الوطن من أجل مصالحهم تمثل روح وحدتها ، والوحدة الوطنية إذن تماسك بين أفراد الوطن قوامه الحب والإعجاب والتقدير والشعور بالمسئولية نحوه وتغليب مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد والطوائف .

ولقد سلك تاريخ مصر روح وطنى نشأ عميقا عريقاً بنشأة مصر أول أمة قامت فى التاريخ وأخذ ينتقل إلى عصور التاريخ فيا بعد ومالبث فى العصر الحديث أن سما فى معناه وأهدافه وتزود بمعان جديدة ، وتجلى الروح الوطنى عبر العصور ، فكان وحدة وطنية فى النضال ضد الإستعمار من أجل القضاء على الطغيان وقادت مصر معارك كثيرة كانت فيها الوحدة الوطنيةهى القوة التى ينبع منها النجاح ويتحقق بها الإنتصار .

وفى عصرنا الحاضر ، تتجلى الوحدة الوطنية فى الصمود ضد قوى والعدان الصهيونى تستقى مبادئها من سالف تاريخنا المجيد ومن قيم حاضرنا المكافح المناضل ، وليس من غير الوحدة الوطنية تكون القوة القومية والنصر .

فى هذا الكتاب ، محاولة لدراسة الوحدة الوطنية عبر عصور التاريخ

المصرى ، هى دروس فى الوطنية والوحدة كما يجب أن تكون عليه مع بيان دور الوحدة الوطنية الكبير فى صمود الشعب المصرى وإنتصاره ضد العدوان فى الداخل والخارج ، آملين بهذا القدر المحدود من هذا الكتاب إذكاء الوعى الوطنى فى معركتنا ضد الإمبريالية والصهيونية .

والله ولى التوفيق

حدائق القبة فى أول ديسمبر ١٩٧٢

المؤلفان

الباب الأول

الوحدة الوطنية في مقاومة الغزاة

انتظم تاريخ مصر القديم والوسيط والحديث سلسلة من المعارك في الداخل والخارج في محاربة الإستعمار والطغيان وكان الإنتصار فيها من نبع الوحدة الوطنية ، التي توزعت معانيها بين شتى المعارك فتميزت كل عن الأخرى بنوع من معاني الصمود كانت آياته التجمع والتماسك والشعور بالمسئولية والصبر والتدبير من أجل مواجهة الأحداث ، في ولاء للأسرة الكبرى ، مصر الصامدة المجاهدة المتماسكة الموحدة .

إن انتصارنا في هذه المعارك كان بفضل الوحدة الوطنية التي كانت هي روح المقاومة ، ومن الوحدة الوطنية نستلهم الأمل في الحاضر والمستقبل .

الفصل الأول

الوحدة الوطنية

فى مقاومة الهكسوس

ومن التفكك والفوضى توحدت مصر أمام عدوان الغزاة ، وتماسكت وتجلت فى وحدة وطنية كان من ثمارها الإنتصار الكبير .

وكانت الوحدة سمة من سمات الطابع الوطنى المصرى منذ أن نشأت الأمة المصرية : عبرت عنه فى مختلف عصورها القديمة ، وظلت بعد ذلك إحدى سمات ذلك الطابع القومى الأصيل : ففى العصر القديم وبانتهاء عهد الدولة الوسطى حوالى ١٧٨٥ق. م دخلت مصر فى عصر من عصور الضعف والفوضى والذل .. فى العصر الوسيط الثانى . ولعل أشد الأيام اضطراباً كانت هى الفترة التى تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش إلى العرش كما اشتد النضال بين حكام المماليك وبينهم وبين المصريين من جهة أخرى فتعددت المؤامرات واندلعت الثورات وتتابعت الحروب الأهلية وظلت الفوضى سائدة أيام الأسرتين الثالثة عشرة وقدر عدد ملوكها بستين والسابعة عشرة وقدر عدد ملوكها بستة وسبعين فكان طبيعياً بهذا التفكك أن تسقط مصر فريسة فى عام ١٧٢٥ ق . م فى يد عدو متربص لها إذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوية التى أطلق عليها مانتون « هكسوس »(١)،وقد اجتاحت مصر من الشرق . ونظراً لمهارتهم الحربية وأسلحتهم الحديثة ولتفكك المصريين انتصروا على مصر فخضعت الدلتا للمغيرين فاتخذ هؤلاء صالحجر فى شرقها عاصمة لهم كما توغلوا فى مصر الوسطى بينما سيطر النوبيون على الجزء الجنوبى للبلاد ، ولم يبق من مصر المستقلة غير رقعة بسيطة يحكمها أمراء طيبة فى الصعيد وقد ظل

---

(١) شفيق غربال وآخرون - الحضارة المصرية .

حكم الهكسوس قائماً طوال أيام الأسرتين ١٥ ، ١٦ وجانباً من حكم الأسرة ١٧ فيما تجاوز قرناً ونصف قرن .

وسيطر الغزاة على مصر وإذا كان المصريون قد قبلوا ذلك لتفككهم حتى ينبعث ما يوحد حكمهم فقد كان ذلك على مضض وكان طبيعياً أن يكون الأدعى القوة هو المساس بمقدساتهم وموروثاتهم . وما يمت بسبب الأسرة . ذلك الأمر الذى يحرص عليه المصرى طوال تاريخ حياته وكانت القارعة على يد الهكسوس . وأساءوا معاملة المصريين وأهانوا معابدهم كما بدوا فى معيشتهم منعزلين محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم الخاصة وإن حاولوا مراعاة شعور المصريين ليتمكنوا بهذا من الحكم عندما أخذوا يتمصرون مقلدين ملوك مصر فى ألقابهم وأزيائهم ولغتهم .

وظلت الشخصية المصرية متماسكة حية فى طابعها القومى فلم يثن ذلك المصرى عن عزمه فى فرض شخصيته على المستعمر والعمل على القضاء عليه ، ويحس بجرح عميق فى وجدانه من وجوده مسيطراً على البلاد .

أخذت الروح الوطنية تثبت على قدميها مع انحدار قوة الهكسوس وأخذ أمراء طيبة يكافحون لضم شمل الشعب وتوحيده ومواجهة الغزاة فنجحوا وكانت الوحدة الوطنية مبعث فجر مشرق .

وبدأت الحرب بتحد من ملك الهكسوس أبوفيس لأمير طيبة استثاره لإعلان الحرب ضده ،وقد جاءت وقائع تلك الفرصة فى قصة كتبت فى عهد الملك مرنبتاح أحد ملوك الأسرة ١٩ وقد اضطر أمير طيبة للخروج على رأس جيش لملاقاة الهكسوس فسقط فيها سقننوع شهيداً فى سبيل مصر وكان استشهاده دعوة لضم شمل الوطن فى مواجهة الغزاة فخلفه فى جهاده كاموسا وقد سجلت قصة كفاحه على لوحة ترجع إلى السنة الثالثة من حكمه عثر على أجزاء منها فى أزمنة متباعدة .

وكانت أم كاموسا(أياح حتب)تشجعه بروح نضاليه وثابة وحاول الهكسوس تأليب حكام النوبة على كاموسا فلم ينجحوا وانتصر عليهم فلما وافته المنية خلفه

البطل أحمس . فاندفع ذلك شمالا والشعب يتدفق وراءه فى حماسة ويتجمع فى وحدة وطنية يطارد الهكسوس حتى وصل عاصمتهم أواريس فسقطت فى يده وعندئذ فر الهكسوس إلى فلسطين فتبعهم أحمس بعد أن وحد الشعب وطاردهم حتى شتت شملهم فى موقعة شاروهين ثم قفل البطل راجعاً إلى طيبة عاصمة الثورة الوطنية ومبعث أنوار الوحدة الوطنية مسجلا بفضل تلك الوحدة فصل الختام من ذلك العهد البغيض المشئوم . عهد الإحتلال والتحكم الأجنبي فى مصر العريقة .

وتأسست على يد أحمس الأسرة ١٨ ووضع حجر الأساس فى بناء مجد مصر الحربى ومهد الدولة الحديثة وبه بدأت الإمبراطورية المصرية الكبرى .

الفصل الثانى

التماسك والصمود

فى مقاومة الرومان والبطالمة

وقف المصريون فى العصر الفرعونى القديم من التبعية السياسية موقفاً ينبع من طابعهم الوطنى وبدأوا بمقاومتها ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون فى مقاومتهم الإنسحاب داخل الذات ولكن دون تسليم ، فلما تمادى الإستعمار وأوغل فى المساس بما كان يحسه المصرى إحساساً مباشراً كالعقائد والأرزاق والعلاقات الأسرية قاومه المصريون بشدة : فقاوموا الآشوريين والفرس والبطالمة والرومان جميعاً فى معارك متوالية ضارية جاءت تعبيراً عن الكثير من سمات الطابع القومى للشخصية المصرية أثبتت استمراره وإيجابيته

مقاومة المصريين الآشوريين : (١)

حدث فى عام ٧٢٢ ق . م أن جلس على العرش الاشورى الملك سرجون الثانى وكان من أعظم المحاربين قسوة وشدة وقد سبقته شهرته إلى مصر عندما أخذ يغزو المناطق الشمالية بين سوريا ولبنان فسارع أمراء مصر وأمراء سورية بمساعدة حربية ليتمكنوا من صد العدو بعيداً عن الحدود المصرية ، ولكنه استطاع الزحف حتى حدود مصر الشمالية وهناك قابلته الفرق المصرية متحدة مع بعض الولايات الفلسطينية حتى اضطر أن يرجع عن دخول مصر وكان من ثمار ذلك أن أقامت مصر مع ولايات سورية وفلسطين حلفاً قوياً يربط بينهم ويدبر شئونهم أمام أى غزو جديد .

وما كاد أمر هذا التحالف يصل إلى الملك الاشورى الجديد سناحريب حتى سارع إلى منطقة الخطر بجيش كبير فحاصر بيت المقدس حصاراً طويلا ولم يترك الملك الاشورى الحصار إلا بعد أن تفشى المرض بين جيوشه ولم يكد الملك

(١) دكتور عبد العزيز رفاعى : الطابع القومى للشخصية المصرية ص ٨٣ وما بعدها .

يعود إلى بلاده حتى قتله أولاده وخلفه أخوه آسر آخى وأخذ يعد العدة للانتقام من مصر .

سمع المصريون بهذا القصد فاستعدوا لمواجهته والتقوا وجهاً لوجه مع العدو فى أراضى الدلتا الشرقية فانتصر المصريون على جحافل الأشوريين رغم تفوقهم فى العدد على المصريين ، وقد أراد الملك الأشورى أن يستعيد هيبته بمعاودة الكرة على مصر ، واطمأنت مصر بهذا النصر ، ولكن حدث أن ظهر لجأة آشور آخى الدين للمرة الثانية فى سورية وعاقب (بعل) على انضمامه إلى مصر ذاتها من طريق صحراوى قصير دله عليه البدو فوصل بجيشه فى وقت لم يكن فيه ملك مصر طهراقة قد أتم إستعداده لملاقاة العدو فاضطر إلى الانسحاب بسرعة وما كاد ذلك يلتجىء إلى حصن منف المنيع حتى تتبعه العدو ولحق به قبل أن يتحصن ،فأسرع طهراقة إلى مصر الوسطى تاركا الدلتا بخيراتها للمستعمر الجديد ووقعت مصر للمرة الثالثة فى تاريخها الطويل لإستعباد أمة أجنبية .

لم يعترف الاشوريون بأى مظهر من مظاهر الحضارة القائمة فى مصر ولم يحترموا عادات المصريين أو ديانتهم وحاولوا أن يبطشوا بهم ويطأوا بأقدامهم كل المثل العليا .

ومن نبع الطابع الوطنى الحريص على مقدساته ، أخذت كلمة الناس تتحد فينسون أحقادهم واتصلوا بطهراقة فى قصره فى طيبه طالبين منه أن يزحف شمالا فأسرع بذلك وما لبثت الدلتا أن اجتمعت حوله وتمكن من طرد الحامية الاشورية ، ولكن ما لبث الملك الجديد الأشورى الذى خلف آشور آخى الدين وهو آشور بنى بعل أن أرسل جيشاً قوياً رد به الدلتا إلى الحكم الأشورى بل وأسرع إلى مصر العليا ودخل طيبة دخول الفاتح المنتصر ، واضطر طهراقة إلى الرجوع إلى عاصمته الجنوبية فى نابتاً ،وما كاد الحكم الأشورى يستقر فى مصر حتى بدأت حركات التحرر السرية تنتشر ورفع المصريون راية العصيان بزعامة أمير مصرى اسمه نخاو ولكن قبض العدو عليه وهدأت الحال قليلا فى الدلتا بينما كان الصعيد يغلى كالمرجل ولم يكن ينقصه سوى زعيم يقوده

ولم يلبث حتى وجده فى شاب متحمس خلف طهراقة بعد أن مات وهو ثانوت آمون لجمع بعض الجند السودان وسار إلى طيبة حيث قوبل بالتهليل والفرح فى كل مكان ، وفى منف قابل العدو ، بفضل عزيمته وقوة إيمانه ومن معه انتصر المصريون ودخلوا منف. ولكن تحرك العدو بفرق كبيرة من سورية وطوقت ثانوت آمون لحى ونف ففر هارباً إلى طيبة ثم أسرع الخطى إلى نابتا وبخروجه من مصر انتهى عصر حكم الأسرة الخامسة والعشرين النوبية لم يكد الحكم يستقر للآشوريين حتى ظهر إبسماتيك من أسرة معروفة بالجهاد والوطنية فأخذ على عاتقه تحرير مصر وتمكن من القضاء على العدو . ولقد تمكن من إعداد جيش قوى من الدلتا ومن الصعيد فطرد الاشوريين من مصر ولما انتهى عهدهم نودى به ملكاً على مصر .

مقاومة المصريين للفرس :

وما كانت مصر تتخلص من الحكم الاشورى حتى واجهت الغزو الفارسى إذ ذاك بدأت معه صفحة جديدة من النضال الوطنى . كانت دولة الفرس هى الوريثة الشرعية لإمبراطوريه آشور فى أواخر القرن السابع ق . م أخذ أباطرة الفرس يرنون ببصرهم لاحتلال مصر الغنية وقد حقق ذلك الحلم قمبيز بن قورش عام ٥٢٥ ق . م وفى وقت كانت مصر تودع مليكها الهمام أمازيس ، وتتجه ببصرها نحو مليكها الجديد إبسماتيك الثالث وفى وقت كانت مصر فى أشد الحاجة إلى رجل قوى يقودها ليرد عنها ذلك الخطر الذى أخذ إذ ذاك يدق بشدة أبواب مصر من ناحية الشرق .

كان قمبيز يجهل أمور مصر وكان يهابها ويخشى الصحراء ومسالكها حتى كاد يرجع عن هدفه لولا أن ساقت إليه الظروف أحد المغامرين الإغريق وهو فانيس فوضع خدماته تحت تصرف قمبيز فبصره بالمخاطرة وأرشده إلى الالتجاء إلى البدو الرحل ليهدوه سواء السبيل وتقدم جيش الفرس وفوجىء إبسماتيك بهول الموقف .

تقدم قمبيز لملاقاة المصريين ، ورأى المصريون وبينهم فانيس يشارك عدوهم

فأتوا بولديه وذبحوهما أمام عينه . وقد استمرت المعركة من الفجر حتى الغروب انتصر فيها الفرس وانسحب جيش مصر نحو الجنوب ، ولكن جاءته الأنباء أن المصريين كانوا مصممين على الدفاع فى استماتة فأمر قمبيز بتجهيز سفينة يحمل عليها مناديا ورفع فوق ساريتها شارة الهدنة وأمر أن تتجه نحو منف وهى تحمل أحد رجاله يطلب من المصريين التسليم دون قيد أو شرط ، وثمة وثيقة ترجع إلى العصر القبطى تتحدث بالذات عن ذلك الحادث ، وإننا نعتبر هذه الوثيقة بحق دليلا على ما تركته حملة الفرس من ذكريات مؤلمة تثبت فى أذهان المصريين ويتناقلها الأحفاد عن الآباء ، وقد نشرها الدكتور مراد كامل على أنها قصة من الأدب القبطى .

تبدأ القصيدة برســـالة يكتبها قمبيز إلى الشعب المصرى وطلب إلى رسوله السالف الذكر أن يذيعها على الناس :

أنا قمبيز لم أكتب إليكم لإرغامكم فأنا أود زيارتكم لأخرج عليكم إذا أردتم الحضور إلى .. بل تعالوا إلى أنا الذى سيمنحكم مجداً أكثر مما تتمتعون به الآن ، وربما حدثتكم أنفسكم بعدم الخضوع لى وحينئذ تكونون قد وضعتم ثقتكم فى هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار ، أولئك هم ملوك مصر وعشائرهم المتنقلة . وما دامت لى القوة فلن يستطيع أحد أن تنقذكم من غضبى ، أنظروا أنا قمبيز أكتب إليكم هذا وأذيعه عليكم فإذا استمعتم إليه كان هذا خيراً لكم وإلا فكونوا مستعدين لملاقاة جم غضبى الذى سينصب على رءوسكم . إننى سيد الأرض كلها .

وقد زادت هذه الرسالة من حماس المصريين وتماسك وحدتهم الوطنية فاستقر رأيهم على رفض طلب التسليم وكادوا يقتلون رسول قمبيز لولا أنهم آثروا أن يسمحوا له بالعودة إلى سيده على أن يبعثوا هم أيضاً برسالة تهديد للملك الفارسى هذا نصها : يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم الغرب والذين يعيشون فى الهند . نكتب إليك أيها الجبان الرعديد قمبيز الذى اسمه فى لغتنا سانوت وتفسيره الجبان . ألا فانظر لقد تركنا رسولك يذهب بسلام لاخوفا منك ولكن إفتخاراً وتعظيما لسيدنا فرعون الذى يحكمنا بمجد عظيم . لقد تركنا الرسول وشأنه ولم نذبحه ولكن إذا آثرتم سخطنا فسوف

تعلمون ماأنحن فاعلون فبحق قوة فرعون ومجد مصر والإله حابي وبطش صناديدنا واحتشاد جيشنا في القتال ومادام الإله حابي في منف والإله آمون في نفتاس .

ومادام ملوكنا يعيشون كل في مملكته

ومادامت الأنهار تفيض بمياهها .

ومادامت قوتنا موطدة الدعائم .

ومادام كل ذلك قائماً - فسوف تعلم أيها العبد ماسيحل بك ماذا أنت فاعل حيال ذلك .

سنورد موارد التهلكة وسنلتي بأتباعك الظالمين خارجاً وسنحرق آلهتك المرافقين لك . أما أنت فلن نضيع الوقت في طهو قطع من لحمك بل سنمزقه بأسناننا كما تفعل الذيبة والسباع الضارية ، والان أيها التعس تدبر أمرك وفكر ملياً فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر .

فمن من الملوك لابين الاشوريين فحسب بل بين ملوك العالم كله استكبر على مصر . . . هل تطمع أنت في التغلب عليها أيها المخلوق الدنيء هل اتعظت بالملوك الخاليين والحيثيين وأولئك الذين يقطنون الأقاليم القريبة ؟ أليسوا جميعاً على جانب عظيم من القـــوة والحياة فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضة مصر عند ماتعاظموا بل قبعوا لكي لايصيروا عبيداً لنا .

يا للعجب أن تهاجم أنت مصر فسيلحق بك العار على يد جحافل مصر . من هو إلهك الذي يرافقك والذي سينجيك بقوته وعليه تعتمد حتى تجترىء على الحضور إلينا هنا ؟ أولعلك تعتمد على الأمورين . . الذين ترتعد فرائصهم أولئك الذين لم ينعموا بالسعادة قط بل كتب عليهم أن يظلوا دائماً أرقاء .

ولما عاد الرسول وسلم سيده رسالة المصريين استمع إلى نصيحة مستشاريه بالا يهاجم المصريين وأن يصل إلى مبتغاه في الحكم بالملاينة عن طريق احترام آلهتهم . ولم ينخدع المصريون وحشدوا الجيوش ودخل قمبيز بقواته إلى منف وفتحها ، ورغم هذا لم يضعف الشعب واستمر يقاوم المعتدي في ثورات متتالية

بدأت أول ثورة ٤٨٦ ق . م فقد اشتبك المصريون مع قوات الاحتلال المنبثة بين أرجاء الوادى فأفنوها عن آخرها ولما جهز الملك أجزركسيس بعد ذلك وهو بن دارا جيشاً قوياً وأسطولاً للحرب وزحف إلى مصر ثبت المصريون أمامه ، وفشلت هذه القوة الأجنبية فى احتلال أراضيهم إلا على أشلائهم وكانت أساليبهم الاستعمارية حافزاً للمصريين على استرداد استقلالهم المسلوب .

وانتهز المصريون فرصة تراجع القـــوات الفارسية مدحورة أمام قوات الإغريق أثناء الحروب الميدية فبدأو يستعدون لإشعال نيران ثورتهم التحررية الثانية . فلما عثروا على الزعيم المنشود فى شخص الأمير إيناروس الذى أعلن الثورة على الحكم الفارسى فتعاون هو وزعيم ثائر آخر يدعى أمير تاورس وقف الشعب المصرى بجميع فئاته صفاً واحداً خلف زعيمه وجمع الملك الفارسى أرتاجزركسيس جيشاً كبيراً أوفده إلى مصر والتحم الجيشان فى معركة كبيرة عند مدينة بلوزيوم على حدود مصر الشرقية وأنزل أبناء النيل بجيوش « الملك العظيم » ـ وهو لقب الملك الفارسى ـ هزيمة منكرة تمخضت عن مصرع الغالبية العظمى من قواته وعبثاً حاول الفرس قتال المصريين مرة أخرى إذ خاض المصريون المعركة أبطالاً ولم تستطع قوة الفرس أن تدخل بلادهم إلا بعد أن تكبدت أفدح الخسائر .

وبدأ الحكم الفارسى يغير أسلوب سياسته فى عهد دارا الثانى باجتذاب قلوب المصريين وحسن معاملة الأهالى واحترام آلهتهم. وقد تودد إلى الكهنة عله بهذا يظفر بفترة من الهدوء ، غير أن روح الكفاح لم تهدأ ، وقامت مصر بثورتها الثالثة بقيادة « أميرتاورس الثانى » الذى هاجم حاميات الملك الفارسى المنتشرة فى مصر فقضى عليها ونادى بنفسه ملكا على مصر المستقلة مؤسساً الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية ٤٠٤ ق . م ، وبعث الملك الفارسى بحشوده الهائلة إلى وادى النيل ليقضى على ثورة المصريين ، ولكن مصر ألحقت بجيوشه هزيمة منكرة فتمتعت البلاد باستقلالها نحو ٧٠ عاماً توارث العرش خلالها ملوك الأسرات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ وعبثاً حاول الفرس العودة إلى مصر إذ ظل المصريون يناوئون

المستعمر حتى تغيرت الأوضاع فى العالم القديم كله أثر قيام الاسكندر الأكبر بغزو الشرق .

ولقد قاوم المصريون البطالمة كما قاوموا من قبلهم الرومان ولكن كان عهد البطالمة والرومان أطول عهود التبعية السياسية لذلك كان تأثيره عميقاً على الطابع القومى .

ومن خلال ذلك الطابع لم تهدأ نفوس المصريين منذ مجيء البطالمة فلجأوا فى البداية إلى المقاومة السلبية يتهربون من زراعة ما يكلفون به ويتوقفون عن العمل فى المصانع والمناجم فيشيع الإضطراب فى الحياة الاقتصادية حتى تمادى البطالمة فى أخطائهم فلما تهيأت الفرصة للقيام بثورات أشعل المصريون نيرانها حامية ضد أعدائهم يرغمونهم على تغيير سياستهم مما أضعف دولتهم ودفعها إلى الانهيار .

أخذت المقاومة تظهر بوضوح فى عهد بطليموس فلاديفوس منذ أن أخذ ينفذ الأساليب التعسفية التى شرعها أبوه واكتسب بها الحكم البطلى طابعه البغيض

أخذ الفلاحون يثيرون القلاقل التى تفيض بها الوثائق البردية تعبيراً عن الضيق والألم فترددت أصداؤها بين الصناع والعمال والتجار المصريين فواجهها المستعمر بشدة فلم يكف المصريون عن مواصلة الكفاح ، ثم توافر جيش للثورة قوامه الزراع والصناع والعمال وكان الكهنة المصريون الذين سلبوا مصدر ثرائهم باستيلاء العدو على دخل أراضى المعابد مستعدين لقيادة الثوار وما لبثت الحركات السلبية أن تحولت بعد فلاديفوس إلى ثورات علنية شعبية .

بدأ المصريون ثورتهم الأولى فى عهد ثالث البطالمة وقد اشتعلت فى وادى النيل ثورة شعبية مسلحة استغل فيها المصريون فرصة غياب الجيش البطلى خارج البلاد . ولكنها أخمدت بشدة ، ولكن لم يستسلم المصريون إذ مضوا فى مقاومتهم السلبية بالقيام بثورة أخرى أوائل عهد الملك بطليموس الرابع فقد حدث أن تقدمت قوات معادية للحكم البطلى حتى بلغت مشارف رفح فاضطر بطليموس إلى إدماج المصريين فى قواته فلما تقدم بهم مشتبكا مع قوات خصمه وقف المصريون فى ساحة رفح مدافعين عن مصر ناسين ظلم البطالمة فى سبيلها حتى أنقذوا

أرضهم من الإحتلال ، وتعتبر معركة رفح حداً فاصلا فى تاريخ البطالمة سبقها عهد المنعة والعزة وتلاها عهد التدهور والانحلال ، وكان نصر رفح بداية النهاية لدولة البطالمة .

وما أن عاد المصريون من ميدان القتال مزهوين حتى بدأوا يبحثون كعادتهم عن الزعيم لقيادة ثورتهم الثانية فما أن عثروا عليه حتى أشعلوها على الفور فى الدلتا ومصر الوسطى حتى امتدت إلى مصر العليا عام ٢٧ ــ ٢٦ ق . م وكانت ثورات عنيفة جارفة ، فتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين الثائرين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب إنما اعتدوا أيضاً على منازل بعض الوطنيين ويرجح أن يكون هؤلاء من النوع الآثم فى حق الوطن .

قاوم بطليموس الرابع هذه الثورة بكل قواته العسكرية حتى أخمدها ولكن بدأت نيران الثورة تشتعل فى الاسكندرية نفسها ولم يلبث لهيبها أن امتد إلى أنحاء الدلتا حيث كان الفلاحون والصناع المصريون يضيقون بضروب التعسف والإضطهاد ، أما فى الصعيد فقد بقى إقليم طيبة مستقلا عن البطالمة يحكمه ملك نوبى يدعى «عنخاخيس» ، وبين هذه المحنة فى الظروف العصيبة نزلت بالبطالمة ضربة قاسية من الخارج مهدت السبل لتغيير سياستهم فى الداخل وتهيئة الفرص لإستمرار الثورة وقد انتهز الملك السلوقى «انتوخوس» الثالثة فرصة الفوضى التى عمت أرجاء الوادى وهزم البطالمة فى معركة فاصلة انتزع منهم سورية وآسيا الصغرى وتراقيا كما أصاب تجارتهم فى سورية وبحر ايجة .

أخذ بطليموس الخامس يستميل الثوار والجنود المصريين فخفض من الالتزامات المالية وأغدق على المعابد والأهالى كثيراً من المنح . ورغم ذلك فقد استمر المصريون فى ثورتهم العارمة ، فدارت رحى معركة حامية بين القوات الملكية وقوات الثوار فى مدينة أبيدوس انتصر فيها المصريون وكان لهذا النجاح الذى أحرزه أبناء الصعيد صدى بين أبناء الدلتا فاندلعت فيها نيران الثورة سيما فى مدينة لكوليس كبدت العدو أفدح الخسائر .

إذ ذاك لجأ بطليموس الخامس إلى أساليب اللين مرة أخرى ولكن المقاومة

السلبية زادت عنفاً فزاد عـــدد الفلاحين والعمال الفارين وتدهورت الحالة الاقتصادية مرة أخرى .

ثورة رابعة :

كان للثورات المتتالية تأثيرها ، كما كان لموقف العدو تأثيره فى الاضرار بالنواحي الاقتصادية ، وزاد من آلام الشعب أن ما كان يرهقه بالنظام المالى كان يعتصر دماءه لمصلحة الحاكمين ومن هـذا وذاك نبتت روح الثورة أشد وأعنف ولم يكن ينقص المصريين كعادتهم سوى الزعيم وسرعان ما وجد فى شخص رجل كان يشغل فى القصر منصباً ممتازاً ،كان خبيراً بنفسية الجماهير هو ديونسيسوس بتوسرابيس » فلجأ إلى وسيلة تضمن نجاح الثورة . . كان ثمة شقيقان يختصمان حول حكم البلاد هما بطليموس السادس « فيلومتر » وبطليموس السابع وقد أخذت مصر تشهد مآسى الحكم بين فيلومتر وأخيه الصغير بطليموس السابع .

كان الزعيم المصرى يدرك أن شعب العاصمة يفضل الملك الأصغر على أخيه الأكبر وكان هو الذى نادى ببطليموس الصغير ملكا فأذاع زعيم الثورة أن الأخ الأكبر غير راض عن مشاركة أخيه له فى الحكم وأنه يدبر الأمر للتخلص منه والانفراد بالعرش ، وثارت ثائرة الناس وحقق الزعيم بهذا هدفه الأول ، وتجمهر شعب الاسكندرية فى ميدان السباق وقرروا الهجوم على القصر وقتلوا فيلومتوس .

ما كادت آمال الزعيم المصرى تنتعش حتى انهارت فجأة لقد كان فى واقع الأمر مدبر أمر التخلص من الملك الأكبر أولا ليفرغ بعـد ذلك للملك الصغير فلم يستطع أن يتخلص منه هو الاخر. ولكن لم ييأس « ديونسيوس » فأخذ الثوار يلتفون حوله وبدأ ينظم صفوفهم ودارت معركة بين الطرفين انسحب منهما ديونسيوس منتقلا إلى الصعيد حيث أشعل بين أبنائه ثورة جامحة وقد لقيت قوات البطالمة على يد قوات الثوار التى تحصنت فى مدينة « أخميم » مقاومة شديدة وقد انتهى الصراع باستشهاد عدد كبير من المصريين وقد هددت البلاد مجاعة خطيرة وقد وصفت هذه الثورة فى إحدى الوثائق البردية بأنها كانت طامة كبرى . .

وقد استمرت الثورة ضد الحكم البطلمى بعد ذلك فى شدة وعنف إلى أن انتهى الحكم البطلمى فى مصر على يد الرومان .

مقاومـة الرومان :

لم يكد يمضى على الفتح الرومانى فى أغسطس ٣٠ ق . م بضعة أشهر حتى نشبت الثورة فى جنوب الوادى فى منطقة طيبة مركز عبادة آمون ومعقل حركة المقاومة التى كان يتزعمها الكهنة المصريون من قديم الزمان ضد الغزاة ، فلم تكد تسمع بوصول الرومان حتى شقت عصا الطاعـة وأعلنت الثورة فتولى القائد الرومانى نفسه قيادة الحملة لإخمادها فأخمدها فى خمسة عشر يوماً . ثم عين والياً من قبله على منطقة بين حدود مصر وحدود النوبة ولكن ما كاد العدو ينسحب شمالا حتى أغار المصريون على المواقع الرومانية وتغلبوا على الرومان فزحف القائد الرومانى على رأس قوة نحو الجنوب ودمر النوبيين ثم عاد أدراجه إلى الاسكندرية فلم تمض سنتان حتى عاد النوبيون إلى شهر السلاح فى وجه القوات الرومانية المرابطة فى الجنوب مما اضطر الحاكم الرومانى إلى العودة وإخماد الثورة وعقد صلح بين الطرفين ، واستقر السلام جنوب مصر بفضل الاستحكامات القوية التى أقيمت فى تلك المنطقة .

ومع هذا، فقد بدأت قبائل البليمس تغير فى منتصف القرن الثانى الميلادى على مصر الجنوبية وأظهرت الحامية الرومانية فى أسوان عجزاً واضحاً فى صد هجوم المغيرين وظلت الاضطرابات قائمة حتى تولى العرش قلديانوس فسحب خط دفاعه من الحدود من مكانه بالقرب من الشلال الثانى ودعا بعض القبائل البدوية للاستقرار فى الوادى لحماية مصر العليا من غزو البليمس ولكن مالبثت قبائل البليمس أوائل القرن الخامس أن عادت إلى شهر السلاح ولم ينفع عقد الصلح بين الطرفين . فقـد انتهز البليمس أوائل القرن السادس فرصة عودة الفرس للدلتا لحطموا الحصون الرومانية وأبادوا القوات المرابطة .

وفى منطقة الدلتا الساحلية المليئة بالمستنقعات شرق الاسكندرية نشبت ثورة بزعامة كاهن مصرى يدعى إسيدوروس وقد انطوى تحت لوائه جمع غفير من

الفلاحين فالتحم الجميع مع الجيش الرومانى ، ولم يستطع الرومان التغلب على هذه الثورة بالحيلة والفتنة ، وكان الخطر يكمن فى مدينة الاسكندرية التى لم تكن إذ ذاك مدينة مصرية خالصة فكان شعبها خليطاً من الإغريق والمصريين واليهود لايقل عدده عن نصف مليون . وكان المصريون يناوئون الحكم الرومانى بطرق كثيرة وقد بلغ من شدة قلق الامبراطور كرا كلا على الحكم فى المدينة مبلغاً جعله يأمر بطرد بعض المصريين ممن كان لهم فيما يبدو التأثير فى إثارة المتاعب فى وجه السلطات الرومانية .

ولقد أرسل كرا كلا مرسوماً إلى واليه فى مصر متضمناً ذلك ، وقد دل ذلك على أن الفلاحين كانوا يتركون قراهم لتدبير المــؤامرات مع الإغريق وسائر المصريين فى المدينة .

كان مرسوم كرا كلا يقول : « ينبغى أن تعمل على طرد جيش المصريين المقيمين بالاسكندرية ولا سيما سكان الريف منهم الذين فروا من مناطق أخرى ومن اليسير التعرف عليهم .

والذين يجب منعهم هم هؤلاء الذين يفرون من مواطنهم الأصلية ليتجنبوا القيام بالأعمال الزراعية ويستثنى من يفدون على الاسكندرية لمشاهدة عظمة المدينة » .

ويقول المرسوم فى حاشيته : « من السهل تمييز المصريين الخلص بين نساجى الكتان بلهجتهم التى تبين أنهم اتخذوا مظهر طبقة أخرى » .

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية

فى مقاومة الصليبيين

تجلى الطابع الوطنى فى المقاومة السياسية من خلال استقرائنا للتاريخ الوسيط لمصر فيما واجهته من غزوات الحروب الصليبية ، معان من التماسك والصلابة والصبر من خلال الطاعة لولى الأمر ومن خلال الولاء للأسرة والفكرة الإسلامية .

وقد كانت الدول الأوربية تحلم بالاستيلاء على مصر لحماية المصالح الصليبية واستعادة البلاد التى كان قد استولى عليها صلاح الدين فى فلسطين ، بل لتوسيع رقعة السيطرة الأوربية على حساب المسلمين أولا .

وبالرغم من المحاولات التى فشلت فى ذلك ، ظل التفكير فى غزو مصر والاستيلاء عليها ركناً من اركان السياسة الصليبية .

وازداد هذا التفكير شدة حين وضح للصليبيين مؤازرة مصر لصلاح الدين فى مقاومته للصليبيين فتركزت الفكرة حول الاستيلاء على مصر لتقطع ينابيع القوة الإسلامية ضد الصليبيين فى فلسطين ، وابتدىء بتنفيذ هذه الخطة بمعاودة الاغارة على دمياط فى أيام السلطان الكامل محمد بن السلطان العادل محمد وهو خامس سلاطين الأيوبيين فى مصر بعد صلاح الدين ، فأسرع الكامل بجيشه شمالا إلى بلدة العادلية شمال فارسكور وأعد العدة للقتال وكان ذلك متمرساً بأساليب الحكم والسياسة والمهارة فى الحروب .

ونزل الصليبيون من مراكبهم المتجمعة فى الجهة الشمالية الغربية من دمياط فى يونية ١٢١٨ وضربوا معسكرهم عند قرية بورة الحالية على شاطىء البحر وكان قائد الحملة يوحنا برين صاحب مملكة بيت المقدس التى كانت قد ضاعت .

وبدأ الصليبيون بأن حفروا حول معسكرهم خندقا وشرعوا فى رمى برج دمياط المنيع فجأة فاستولوا عليه بالمفاجأة الحربية وقطعوا السلاسل المتصلة به

عبر النيل لتسير مراكبهم بسهولة فى النيل ويتمكنوا من أرض مصر ، ولكن السلطان الكامل نهض لافساد هذه الخطة فأقام جسراً من السفن عوضاً عن هذه السلاسل فاخترقته فرقة صليبية فرد السلطان الكامل على ذلك بتغريق عدة مراكب فاستحال بذلك تقدم العدو ، وعمد الصليبيون إلى تسيير مراكبهم فى فرع قديم من فروع النيل فبلغوا بلدة بستان جنوب العادلية التى كان بها معسكر السلطان الكامل . فلما أنزلوا جيوشهم أصبح الجيشان الأيوبى والصليبى وجهاً لوجه لا يفصل بينهما إلا ماء النيل ، وقد انتهى الأمر بعبور الصليبيين إلى البر الشرقى التى تقع عليه دمياط واستولوا على معسكر المصريين وحاصروا دمياط نفسها ، وأرسلت دمياط تستنجد بالسلطان الكامل ولكن كان الصليبيون قد استولوا عليها .

ولقد ثبتت حامية دمياط للحصار وقاومت مقاومة مجيدة ولم تسلم إلى بعد أن امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى ، وقد طلب السلطان نجدات من إخوته وأقاربه بالشام فأبطأت فأخذ يفاوض بجلاء الصليبيين عن مصر وإبحار السفن الصليبية فى مقابل أن يقدم السلطان مدينة بيت المقدس لهم وكذلك معظم البلاد الفلسطينية التى أخذها منهم صلاح الدين .

ولم يقبل الصليبيون ذلك العرض لأن غرضهم لم يكن دينياً فقط .

أما سبب الرفض فكان أن المندوب البابوى رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم وأن مصالحتهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال ، كما أن المدن الإيطالية التى كانت قد اشتركت فى هذه الحملة بجنودها وأموالها عز عليها الجلاء عن دمياط .

وفى أواسط ١٢٢١ ميلادية والنيل يوشك أن يمتلىء بمياه الفيضان تحرك الصليبيون إلى داخل البلاد فتوقفوا عند بلدة طلخا الحالية تمهيداً لدفع المسلمين إلى الوراء وإفساح المجال نحو القاهرة .

كانت الامدادات المنتظرة قد وصلت إلى جيش السلطان ، وكانت الأرض التى سيلتحم فيها الفريقان إذ ذاك ذات قنوات وترع يعرفها المسلمون ويجهلها

الصليبيون ، والمصريون موحدون كتلة واحدة فى مواجهة العدو .

وفى النيل كانت تساندهم البحرية الأيوبية بعد أن استولت على بضع سفن صليبية وأمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمال طلخا فضلا عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، فغطى الماء شمال مواقع الصليبيين فصارت هذه المساحة المائية على جانبى النيل حائلا بينهم وبين دمياط ، وبهذا ذهبت آمال الصليبيين بالزحف جنوباً نحو القاهرة فأرادوا العودة إلى دمياط .

فأحرقوا خيامهم وما كادوا يتحركون حتى وجدوا الماء بينهم وبين المعسكر عندئذ انقلب الصليبيون إلى مفاوضة السلطان بالعودة إلى دمياط والجلاء عنها دون قيد أو شرط ، وقد رأى فى ذلك اكتساب معركة دبلوماسية أجدى عليه من الظفر بمعركة حربية ربما أعقبتها هزيمة ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط بعد الجلاء .

وجاءت الغزوة الكبرى ثانياً للاستيلاء على مصر فى وقت ظلت مصر فيه مركز المقاومة الإسلامية ، وقد عقد لواء النصر فى هذه المرة للمصريين فى معركة عبرت عن مدى ولائهم للوطن من خلال الفكرة الدينية .

ولم يرض الصليبيون بفترة السلام حلا للمسألة الصليبية إلا بالحرب ضد المسلمين ومصر ، فانتهزت أوربا فرصة استيلاء بعض الجند الأيوبية الخوارزمية على مدينة بيت المقدس بغير إذن من سلطان مصر والشام ، وقامت أوربا وقعدت تنادى بإعادة بيت المقدس وتزعمت فرنسا حركة المناداة وأعلن ملكها لويس التاسع وكان قديساً وأصبح عسكرياً محارباً ، أنه سوف يقود غزوة صليبية فرنسية لاسترجاع ما كان قد فقده الصليبيون حديثاً وقديماً ، وأنه سوف يحقق أهدافه كلها بالاستيلاء على مصر .

وتجمعت جيوش هذه الحملة الفرنسية الصليبية فى قبرص وعلى رأسها الملك ومعه زوجته وأخواه وبعض بنى عمومته وكثير من الاقطاعيين الفرنسيين ، وقد إنضم إلى هذه الجيوش جيوش انجلزية بقيادة اقطاعيين من انجلترا كما انضم اقطاعيون صليبيون من عكا وقبرص نفسها .

وأبحرت الحملة فى أوائل مايو ١٢٤٩ ميلادية واتجهت نحو مصر لكنها وقعت فى أخطاء الحملة السابقة .

جمع الصالح أيوب سلطان مصر جيشه جنوب البحر الصغير الحالى وجعل مركز قيادته فى المنصورة ورغم مرضه لم يستسلم للمرض وأخذ يستعد للحرب ، ثم نزل الصليبيون إلى البر الذى كان قد عسكر فيه لفيف من المصريين ، وما لبثت الحامية المصرية أن رحلت تحت ستار الليل حيث المعسكر السلطانى مع حامية دمياط ، مع عرب بنى كنانة ، ولقد لقى شيوخهم من السلطان عقوبة الاعدام شنقاً ، وأخذت البلاد المصرية تعد العدة للمقاومة بينما كان الصليبيون يزحفون نحو دمياط مباشرة بعد انسحاب الحامية المصرية فوجدوا أبواب مدينة دمياط مفتوحة فدخلوها بغير قتال ، وكان موقف الصليبيين أقوى من موقف المصريين من جميع الوجوه ، ومع ذلك لم يستطع الصليبيون وملكهم الفرنسى أن ينال من مصر شيئاً . أمر السلطان الصالح أيوب بانتقال الجيش الأيوبى المصرى إلى المنصورة ، وأعد المدينة التى جعلها معسكراً سلطانياً فى حين أخذ الملك الفرنسى يحصن دمياط بعد دخولها مباشرة ، وأخذ القناصة من المصريين يغيرون ليلا ونهاراً على المعسكر الصليبى لمعرفة حركات الجند .

وأخذت القوات الصليبية تزحف نحو المنصورة . . إذ ذاك إتوفى السلطان أيوب فقامت زوجته وكان اسمها شجرة الدر فى السلطنة ريثما يصل ولى العهد إلى مصر من ولايته بالبلاد الفداثية . ثم استطاع ذلك الملك الفرنسى أن يصل بجيشه إلى بلدة البرمون على البحر الصغير ، وعسكر على حافته وتناوش الجيشان مدة شهر ونصف وحاول الملك الفرنسى إقامة جسر على البحر لينتقل منه إلى معسكر المصريين ، ولكن ضاعت جهودهم أمام القذائف النارية المصرية وحاول أن يعبر بطلائع من الجيش بقيادة أخى الملك فتقهقر أمامها الجنود المصريون إلى المنصورة تقهقراً أثار غرور القائد الفرنسى . فأسرع نحو المنصورة متغاضياً عن نصائح رفاقه القادة ، غير أنه لم يلبث أن خاب ظنه لمكيدة رتبها بيبرس بموافقة شجرة الدر .

فقد كمن بيبرس بالقوات المصرية فى كمائن متعددة حول المنصورة ، ولما دخل الجيش وجد مدينة خالية ، فانتشر جنوده فى الأزقة والحارات تمهيد للذهاب إلى القصر السلطانى لطلب التسليم ولكنه لم يكد يقترب من أسوار القصر حتى حمل الجيش الأيوبى المصرى على الصليبيين حملة فجائية أبادوا الجنود وقائده فى بضع ساعات .

أخذ الملك الفرنسى بعد الكارثة يعبر البحر الصغير زاحفاً بجيشه الرئيسى وقد احتاط لما سيقوم به الجيش المصرى من حركات هجومية لدفعه إلى الوراء ، ومضى القتال بين الطرفين بين نصر وهزيمة ، ووصل السلطان الجديد طوران شاه المنصورة ، واتخذ تدابير حربية كفلت هزيمة الصليبيين فى أقل من شهرين .

ولقد أحضر السلطان أسطولا من السفن الخفيفة وحمله شمال المنصورة حيث تم تركيبها وتعويمها فى النيل لمنع المؤن من الوصول للعدو من دمياط ، فاستولى على عدد كبير من السفن التموينية الصليبية فهـــدد الجيوش الصليبية بالمجاعة وانتشرت بهم الأمراض ، فحاول الملك العودة إلى دمياط بجيشه سالماً ، فعمد إلى فكرة مفاوضة المسلمين على أساس الجلاء الصليبى عن دمياط ، مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين ، ولكنه لم يجد سميعاً أو مجيباً ، فبدأ الجيش الصليبى فى التقهقر فى البر وكان ذلك إيذاناً بخروج الجيش المصرى من المنصورة لمطاردة الصليبيين فلم تلبث هذه العملية أن انقلبت إلى حركة هجومية تطويقية لإجبار العدو على التسليم ، وما لبث الملك أن أصدر أوامره بالتسليم بغير قيد أو شرط فجاءت طائفة من الجند الأيوبى المصرى لتحمله أسيراً مكبلا فى السلاسل الحديدية إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها إبراهيم ابن لقمان .

وقد ازداد عدد الأسرى فى المنصورة وتم فرض شروط الجلاء بدفع فدية غالية يتعهد أن يدفعها الملك كما تقرر أن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه وتسليم دمياط قبل إطلاق سراح الملك وقد أسمى المصريون المدة التى أعقبت رحيل الصليبيين عن مصر أيام الأفراح إذ أقيمت الحفلات وكتب الشعراء القصائد التى تناشدها المصريون وتغنوا بها وقد وردت فى كتاب المقريزى الذى حفظ تاريخ هذه الغزوة الصليبية .

وانتصر الشعب المصرى وحاربت مصر بنجاح ضد قوى البحر والبر بعد ذلك وقد تمت المعارك الدفاعية أو الهجومية لافى أرض مصر بل فى ساحة الشام.

وكان لمصر فى ظل الإسلام طابعها القومى حتى فى ظل التبعية وكان لها فى حدود التبعية ملحقاتها فى الحجاز والشام دولة داخل دولة وكان المثل الدال على ذلك حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر من فتح الحجاز والشام لحسابه ، والمثل الثانى هو محمد على فى مصر فى ظـــله تحولت مصر من ولاية عثمانية إلى امبراطورية مصرية .

وفى إطار هذه التبعيةاختلفت مصر مع تركيافتقدمت إلى حدود الأناضول تهددها وقد انتصرت عليها فى حمص ونصيبين .

وكان ظهور الامبراطوريات البحرية بداية كوارث لمصر بدأت على يد الحملة الفرنسية وهى وإن فشلت فقد كشفت لبريطانيا البحرية أن مصر عنق الهند وشريان إمبراطوريتها فدمرت من أجلها إمبراطورية محمد على ولقد أخذت خطورة الموقع تفرض ضريبتها على مصر وتزيد من حدة الاحتكاك بيننا ، والغريب أن أثناء ذلك قاومت مصر الأعداء بوحى من طابعها القومى صامدة فى نظرتها إلى الغرب المعتدى وتأخذ ولا تتأثر وتقاوم فى صمت على نحو حفظ لها استمرار ذلك الطابع ، ولكن كان نضالها يكشف عن تطور فى سمات الطابع القومى بالقدر الذى عبر به عن المزيد من الإيجابية الملموسة عما قبل .

الفصل الرابع

الصمود

فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر

إن المصرى من سماته الرئيسية حبه بطبيعته للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد كبير. حبه الأمة كأسرة كبرى، وهو يحافظ عليها كما تحافظ جميع الأسرات ولكنه يفرط فى ذلك إفراطا للحفاظ على تراثه الذى اندمج فيه وجدانه اندماجا كاملا نبع من وجدانه الأصيل.

وهو ينسى كل شىء إلا وشائج الرحم، وآداب المجتمع والأسرة، فلا يزال فى نفسه ذلك الأثر المنحدر إليه من أجيال وأجيال عاشت جميعا فى ظل الأسرة وقيمها، لذلك فهو اجتماعى من ناحية الأسرة لعراقة المعيشة الحضرية، واجتماعى من ناحية نظام العادات والتقاليد، ولهذا كان ذلك أقوى ما يربطه بالمجتمع وبالحياة القومية.

فإذا كان محافظا فى مسلكه إزاء الأسرة والعقيدة فإنه كان متمردا فى مسلكه نحو من يحاول المساس بهــذه المقومات ولا يراعى مدى امتزاج نظام البيت والأسرة فلا مشاحة فى أن ينقلب ثائرا فى وجه الحملة الفرنسية لأنها جاءت لتوغل فى المساس بمقومات حياته.

لقد جاءت الحملة الفرنسية عدوانا يتخذ أساليب قاسية سافرة تنفذ إلى قلب هذا المجتمع، وتطرق مكامن وجدانه، وما رسب فى أعماقه من مقومات هذا المجتمع. فكان طبيعيا أن يثبت فى وجه الاحتلال فلا يكون الصراع بين طرفين قوامهما جيش أعزل وجيش حديث العتاد والسلاح، بل بين مجتمعين متناقضين، فلا بدع أن تنطلق مصر مدفوعة بروح واحدة تربط عناصرها بالمماليك أعداء الأمس بوحدة من الشعور المعادى للحملة، ولا بدع أن يلتئم هؤلاء مع الشعب عندما أحسوا أن انتفاضتة تدنيهم من غاياتهم ومن ثم انبثقت روح المقاومة الشعبية تؤازرها قوات المماليك فى الداخل، وتساندها تركيا وحلفاؤها من

الخارج ، وقد جاء ذلك الانبثاق شعوراً اجتماعيا يمثل بذور وعى قومى سياسى يتهيأ من ذلك الوقت ليكون على مسرح السياسة المصرية فيما بعد حدثا كبيراً .

بدا هذا الروح يتجلى منذ بمقدم الحملة واستقرارها فى الاسكندرية فى أواخر يونيه سنة ١٧٩٨ بمقدار ازدياد وطأة الاحتلال وغلوه فى السيطرة على مقومات المجتمع واستثارته الفكرة الإسلامية ، خصوصا وأن ذلك كان يحدث فى ظل نظامه الإدارى الصارم وبمقدار مساندة العوامل الداخلية والخارجية .

علم المصريون بمقدم الحملة من أنباء أتتهم من الآستانة فبدءوا يتطلعون إليها تطلع الريب . ومنذ أن احتلت القوات الفرنسية مالطة بدأت أنباؤها تتسرب فى وضوح إلى مصر ، فلما تأكدت أنباؤها حين حضر نلسن إلى ثغر الاسكندرية فى ٢٨ من يونية سنة ١٧٩٨ متعقبا الأسطول الفرنسى بغية القضاء عليه أنبأ حاكم الاسكندرية باحتمال حدوث الغزو الفرنسى لمصر فأخذت الاسكندرية تستعد لمقاومة الغزو .

تحركت مشاعر الأهالى خشية المزيد من الكوارث على يد الفرنسيين وكان يعترى شعورهم ذلك الولاء المسيطر للفكرة الإسلامية فأخذوا يستعدون للمقاومة . . فحصنوا الحصون والأسوار ، وحملوا السلاح ، فانضم إليهم المغاربة من ضواحى الثغر . فلما استطاع نابليون إنزال قواته فى العجمى — غربى الاسكندرية — والزحف بها إلى الاسكندرية ودخولها واجه ألوانا من المقاومة الشعبية فى كل أنحاء المدينة حتى كاد هو يقتل بين شوارعها .

وحاول نابليون معالجة الموقف بالمدينة بضغطه على المقاومة الشعبية عن طريق تعيين كليبر أحد قواده ، لما عرف عنه من الشدة والصرامة ، ثم محاولة كسب ثقة الأهالى بالابقاء على حاكمها من قبل السلطان (محمد كريم) محافظا عليها من قبل الفرنسيين ، ولكن بالرغم من هذا ، كان الأهالى يتحينون الفرصة للمقاومة واعلان كراهيتهم لهؤلاء الغزاة حتى لم يجد هؤلاء بدا من الشك فى (محمد كريم) كمحرض على الثورة والقتال ، فاعتقل وبعث من إلى قائد الأسطول وصودرت أملاكه ثم نقل إلى رشيد ، ومنها إلى القاهرة ، فلما ثبت

المدى الفرنسيين عند دخولهم القاهرة ، فيما بعد مدى تحريضه على القتال إذ عثروا على ما يؤكد ذلك من مراسلاته للمماليك حكموا عليه بالاعدام .

ومن الاسكندرية انتشرت أنباء الحملة ووسائلها التعسفية فى أنحاء البلاد ، كما انتشرت معها أنباء المقاومة الشعبية فى الاسكندرية فكان ذلك كله أداة عبأت شعور المقاومة ، وهيأتها بمعان جديدة ووقفت البلاد كلها مستعدة لمواجهة الغزو بشتى ألوان المقاومة أينما حل وسار .

فما كاد نابليون يتحرك من الاسكندرية إلى القاهرة حتى واجه ألواناً من المقاومة زادها شدة عناء السير وهددت خطوط مواصلاته إلى قاعدة الغزو والى القاهرة ، وعبثاً حاول الاطمئنان على سلامة قواته بين المدن والمواقع الهامة بعد أن قطع شوطاً كبيراً فى سيره فى النيل وعلى شاطئيه .

لهذا أمر بتسيير كتيبة طوافة تجوب بعض جهات مديرية البحيرة . وتعرج منها على دمنهور ، ثم تنثنى إلى رشيد ، (فأبو قير) ثم تعود إلى الاسكندرية .

فلما تقدمت تلك الكتيبة إلى دمنهور أحست بذلك الروح المعادى الذى نمته أخبار الحملة ضدها .

وكان أهلها على علم بمجيئها وبطبيعتها وأهدافها واعتداءاتها على سكان القرى الامنة فلما دخلت دمنهور لقيت تمرداً شديداً بعد أن لقيت عنتاً ومشقة فى طريقها إلى دمنهور ، فقد اجتمع فى هذه المدينة نحو ستة آلاف مقاتل ، يملئون طرقاتها وشوارعها ، وإذ ذاك لم تجد هذه القوة سبيلا للغلبة ، إذ قاومها الأهالى بشدة حتى اضطرت إلى الجلاء عن المدينة والتراجع إلى بركة غطاس ، وهناك هاجمها العرب مرة ثانية فلم يسعها إلا العودة الى الاسكندرية منهوكة القوى تلقى على القادة الفرنسيين والجنود من المعانى ما كان يخيب رجاءهم فى الغزو ومادفعهم للذهول من صعوبة الموقف ، فلم يكن هؤلاء يتوقعون من شعب مصر الأعزل تلك الطليعة الباسلة من المقاومة التى جاء على يديها النذير ، ولم يستطع الفرنسيون احتلال دمنهور إلا فى أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ .

وفى الطريق من الاسكندرية إلى شبراخيت لاقت الحملة الفرنسية متاعب جمة أثارها البدو الذين ردموا فى طريق الجيش الزاحف الابار ، وهددوا زحفه . فلما بلغت شبراخيت كان للمقاومة الشعبية دورها الكبير فى سير المعركة وإلحاق الاضرار بالحملة .

وتلاقى الجمعان عند شبراخيت ، وكان قوام قوات مراد أسطولا نهريا مسلحا يحمل اثنى عشر ألف مقاتل كان معظمهم من الأهالى الفلاحين المسلمين مع لفيف من العربان ، فلما التقى بهم الأسطول الفرنسى بالقرب من شبراخيت قام الأهالى على شاطىء النيل فشاركوا جيش القاهرة وأهلها فى القتال وأخذوا يهجمون على الأسطول الفرنسى بمختلف الوسائل حتى أغرقوا خمس سفن منه ثم استولوا على سفينتين مسلحتين ، إلا أن قوات الفرنسيين تمكنت من القضاء على جيش مراد واغراق أسطوله .

وتقدمت الحملة نحو القاهرة فأخذت أنباؤها تستثير الأهالى وتوجس الناس منها خيفة ولكن سرعان ما انقلب الخوف فى القاهرة الى نقمة وغضب دفعهم للاستعداد لمواجهة هذا الغزو والدفاع عن مدينتهم فى الوقت الذى انهمك فيه المماليك فى تدبير أمر رحيلهم عن البلاد فراراً من الغزو .

وقبل أن يبلغ نابليون مشارف امبابه ويحتدم فيها أوار المعركة خرج الناس الى الثأر وتركوا أعمالهم الخاصة منهمكين فى تدبير شئون الدفاع ، وإذ ذاك أخذ المتطوعون يفدون إلى بولاق لمواجهة جيش الغزاة ، بل انتقل الكثيرون منهم إلى ساحة المعركة ذاتها حيث عسكر مراد بك بفرسانه وعتاده ومعداته فى امبابه وقدر عدد الذين اشتركوا منهم فى المعركة بعشرين ألفاً من المقاتلين عدا ستة آلاف فارس من المماليك .

ودارت المعركة غير متكافئة فانهزمت قوات المماليك ، وكان طبيعياً أن تهزم قوات مراد بك أمام قوات فرنسا الحديثة التشكيل والقيادة والسلاح ، ولكن روح الشعب لم تضعف ولم تهزم ، بل ظلت الحوادث تصقله وتدفعه كل يوم إلى النمو والتوثب والصمود .

لقد هزمت قوات مراد بك وفر مماليكه ، ووقف الشعب وحده يحمل عناء مواجهة الموقف فى ثقة ، ويكفى أن نعلم أنه قد تحمل وحده بعد هذه المعركة هول الكارثة ، بل وعبء النضال ومشقة الاتصال بالفرنسيين لعلاج الموقف .

ولم يجد هذا الشعب بدأ من التقدم للتفاهم مع نابليون دون ما استسلام لوضع أسس الأمان فى البلاد فقام زعماؤه بالمهمة .

ثم انتقل نابليون بجيشه من الجيزة إلى القاهرة عاصمة البلاد وعقلها المفكر ، وخيل إلى نابليون بعد أن استقر مقامه بالقاهرة بقليل أن الأمر قد استتب له ولكنه ما كاد يستقر حتى كان السبيل قد هيء للمقاومة الشعبية ـ بتحطيم الأسطول الفرنسى ـ كى تعبر عن وجودها بمزيد من القوة .

وتحطم أسطول نابليون على يد نلسون فى أبى قير بعد دخوله القاهرة بقليل ، فأخذت الحملة تبدو فى أعين الناس كأى شيء تسرى عليه قوانين التغير ، وبدأت هيبتها تنهار .

ومع هذا الجيش أينما سار انطلقت المقاومة الشعبية تساجل الجيش الفرنسى القتال إبان امتداده فى الشمال وفى الجنوب خلال شهور : أغسطس وسبتمبر واكتوبر سنة ١٧٩٨ حتى إذا ما أشرف الشهر الأخير على نهايته كانت ثورة القاهرة تمثل أعلى مراتب المقاومة الشعبية .

أخذ الأهالى يقاومون الحملة فى الوجه البحرى ابتداء من شهر أغسطس ، فتجلى ذلك الروح بصفة خاصة فى مديريات المنوفية والغربية والدقهلية يغذيه موقف تركيا المعادى من فرنسا ، فقد أعلنت عليها الحرب فى سبتمبر كما تحطم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير على يد نلسن . ففى منوف ، وفى قريتى غمرين وتتا الواقعتين شمالا ـ أعرض الأهالى عن التعاون مع قوات الغزو فلما أكرهوا على ذلك اصطدموا مع القوات الفرنسية فى قتال دام .

وفى طنطا بدأت طلائع الثورة فيها فى أوائل اكتوبر . وامتنع أهلها عن سداد الضرائب التى كان قد فرضها الاحتلال ، فلما اختل الأمن تقدمت سلطات الاحتلال إلى أئمة مسجد السيد البدوى لأخذ المواثيق للمحافظة على الأمن ،.

فأسرع الأهالى بأسلحتهم لإنقاذ الموقف ، ومحاربة الفرنسيين وهم يصيحون صيحات الغضب ، وقد أقبل عليهم أهالى البلاد المجاورة يعاونونهم لمارأوا جموع هذه الجماهير ثائرة مسلحة وانضم هؤلاء الثائرين ومعهم ١٥٠ من فرسان العرب ، وأخذت هذه الجموع تندفع نحو القوات المعتدية فاشتبك الطرفان وبذلت تضحيات كبيرة حتى عمت المدينة سورة الغضب ضد ذلك الغاصب المعتدى .

ولقد أبدى الأهالى فى المنصورة وفى القرى التى كانت تجاورها بسالة كبيرة فى مقاومة الحملة الفرنسية عند توغلها فى ربوع هذه الأقاليم فقد تمردوا على جنود الحامية ، واتفقوا على الفتك بهم ، وهاجموهم فى يوم ١٠ من أغسطس عام ١٧٩٨ ونادى الثوار بالثورة رجالا ونساء حتى اضطر الجنود إلى العودة سراعاً إلى السفن بعد أن عز عليهم الاستمرار فى معسكراتهم ، وقد لقى الفرنسيون عناء كبيراً فى إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة ، وامتنع كثير من أهالى البلاد عن دفع الضرائب ، وبرغم محاولات الفرنسيين القضاء على الثورة فقد انحصرت فى مناطق ميت غمر ودنديط وميت العرنادى فى شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ ولما استلزمت الثورة قطع المواصلات النيلية فى فرع دمياط عهد نابليون إلى الجنرالين (موراولانوس) اخمادها فقاومهما وجنودهما هؤلاء الثوار فى معقلهم الذى احتشدوا فيه وهو دنديط ولما اضطروا إلى الانسحاب انزلوا بالعدو خسائر ومتاعب فى تعقبهم حتى عجز عن متابعتهم فعاد أدراجه إلى قاعدة هجومه فى ميت غمر .

كان الفرنسيون يحاولون اخماد الثورة ولكن بأساليب كانت تستثيرها وتجعلها تنبعث فى كل مكان ، لأنها كانت تطرق مقدسات الفرد إذ ذاك ومكان وجدانه : المال والعرض والجاه والنفس وغيرها من المسائل التى كان يعيها الفرد وعياً مباشراً وكانت تصدر من يد معتدية غريبة جارحة .

وامتدت أمواج العدوان الى البحر الصغير بجوار المنصورة وكان طبيعياً أن تمتد معها الثورة .

وفى الوجه القبلى امتدت الثورة تمثل وحدة وطنية صادقة على امتداد التوغل العدوانى وبهذه الوحدة تحقق النصر فى النهاية وجلت الحملة الفرنسية عن مصر .

الفصل الخامس

التماسك

فى مقاومة الانجليز فى رشيد

بدأت الوحدة الوطنية المصرية تتجلى تماسكا لا يعرف غير الصالح العام من خلال النزعة الإسلامية فى مواجهة مصر للانجليز فى مطلع العصر الحديث فى رشيد .

وكان انتصار مصر على انجلترا فى رشيد نصرا للوعى الطالع وإعلاء لروح الوحدة الوطنية لمصر الناهضة ، منذ أن بزغ فجرها فى طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة للخطة البريطانية التى سايرت مجرى هذا التطور الروحى فى نموه حتى تجلى فى صورة أوضح فى موقف رشيد ومن ورائها شعب متساند فى وحدة وطنية مع جيشه فى صد العدوان البريطانى الذى تمثل فى حملة فريزر سنة ١٨٠٧

فلقد حاولت انجلترا فى أعقاب جلاء الحملة الفرنسية عن مصر الاكتفاء بصيانة مصالحها بالحيلولة دون عودة النفوذ الفرنسى وإعادة تنظيم القوة المملوكية وتمكينها من السلطة فى البلاد كقوة موالية لها ، عندما كان الموقف لاينم عن خطر عاجل وعندما كانت قادرة على تحقيق أغراضها بالضغط الدبلوماسى تارة والدسائس تارة أخرى ، لترجيح كفة نفوذها فى البلاد ، فلما فشلت وتغير الموقف وزاد حرجا زاد على أثره حرصها على صيانة مصالحها فى الشرق لاسيما مصر ، فآثرت العمل الحربى ، ترسل أسطولها يهدد الباب العالى من جهة ، وتحاول التأثير عليها لإبعادها عن نفوذ فرنسا عن طريق احتلال الاسكندرية من جهة أخرى ، وتحاول الحيلولة بالعمل الأخير دون وقوع مصر فى قبضة الفرنسيين معتمدة على قوة حلفائها من المماليك ، ثم تتمكن بالتالى ـ بفضل وجود قواتها فى البلاد والاعتماد على قوة المماليك ـ بتنفيذ الخطة السياسية التى رمت إليها من قبل ، بتمكين هؤلاء من الحكم ، حتى تضمن مستقبلا ، رعاية مصالحها ، لذلك إذا كانت حملة فريزر فى ذاتها جزءاً من التخطيط الحربى البحرى فى البحر الأبيض

المتوسط الذى استدعته ضرورة العمل الحربى ، فى استجابة الموقف الدولى المتغير لصيانة مصالح بريطانيا فى الشرق ضد امتداد النفوذ الفرنسى ، فقد كانت الحملة من جهة أخرى وسيلة لغايات سياسية تحققها وتمكن حلفاءها البكوات والمماليك بالنفوذ فى مصر من جهة أخرى لضمان نفوذها السياسى عليها مستقبلا. بهذا لم تكن أهداف حملة فريزر الرئيسية فى حقيقة الأمر هى احتلال البلاد . إلا فى حدود مابذله من نشاط قنصل بريطانيا فى مصر لتبرير أغراض الحملة بعد وصولها .

ولقد بدأت بريطانيا تنفذ خطتها أثر تطور الأحداث الدولية بما أشعرها بضرورة الحفاظ على اطماعها لعمل حربى .

وبينما كانت الحوادث فى الآستانة تجرى سراعا والسفير البريطانى يقدم إنذاره للباب العالى بما تقدم . أبحر الأسطول البريطانى من قادس فى يناير سنة ١٨٠٦ بقيادة دكورث [1]

ولقد رأت تركيا أن الدخول فى حرب مع بريطانيا أمر على نقيض مصالحها لذلك أرادت أن تستمهل السفير إلا أنه كان ساخطاً فشاءت الحيلولة بينه وبين الأسطول البريطانى ، فتقرر أن يودع السجن . لكنه عند ما علم بذلك دبر خطة حمقاء للهرب من العاصمة التركية ، فدعا معظم أفراد الجالية البريطانية إلى وليمة على ظهر السفينة أندميون من أجل الترفيه . وحدث أن غادرت السفينة الميناء فجأة ، وكان الضيوف لايعلمون من السر شيئاً . إلا أنها لم تلبث أن وقعت فى كمين أعد لها ومن ثم سبق السفير إلى السجن وحيل بينه وبين الأسطول البريطانى .

ولما وصل دكورث إلى ميناء تندوس فى ١٥ فبراير كان قد علم بأمر السفير فأبرق إلى الجنرال فوكس ليسرع بإرسال القوة البحرية إلى الاسكندرية .

وأبحرت القوة إلى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر فى ٦ مارس سنة ١٨٠٧ من ميناء صقلية بقوة صغيرة معتمدة على قوة المماليك وضعف تركيا ، وكان قوامها جنودا من المستعمرات البريطانية عددهم ستة آلاف جندى يشكلون فرقتين ، لم يكن من ضباطها من يعرف الشرق ولا أسهم فى الخدمة فيه عددا

---

(١) دكتور عبد العزيز رفاعى : انتصار مصر فى رشيد ١٨٠٧

الجنرال ميد ، ويبدو أن الباب العالى هو ومحمد على كانا يتوقعان هجوما بريطانيا ، بدليل أن الوالى حاول إيفاد حامية من الجنود الألبانيين إلى الاسكندرية إلا أن قنصل بريطانيا المستر مست الذى كان يعلم بأمر هذه الحملة البريطانية وموعد وصولها الاسكندرية — دأب يستدرج الوالى حتى ألغى أمر إيفادها ومن ثم قام محمد على إلى الصعيد يحارب المماليك ، ويحاول كسبهم إلى جانبه ، بينما تولى مست تأليب القبائل العربية لتساعده على استقبال الحملة وتسهل مهامها كما كتب للمماليك يعدهم بالأمل المرتقب .

وعلى غير علم — بما يكتبه القدر للحملة الغادرة ودون حساب لاحتمال تغيير الظروف الداخلية ضدها — تقدمت تلك إلى مصر لتواجه تحالف الظروف عليها وتشهد مصرع الخطة البريطانية التى جاءت لتنفيذها ، وذلك بفضل تكتل المصريين ووحدتهم صفاً واحداً ، شعباً وجيشاً لمواجهة العدوان البريطانى على مصر .

وقبل أن تلقى الحملة ، مراسيها فى الاسكندرية بأربعين يوماً كانت بريطانيا قد فقدت صديقها وحليفها الألفى بالوفاة ، فخسرت بهذا عميلا قوى الشأن واكتفى الشعب بوفاته ، شر خصم كان مقدراً أن يكون ثغرة قوية فى تماسك وحدته كما خسرت بريطانيا القوة التى كانت تتوقع العون على يديها فى مصر .

كان الألفى ، والحوادث الدولية تجرى سراعا ، ينتظر مجىء العون البريطانى على أحر من الجمر ويرقب مجىء هذه الحملة ثلاثة شهور وقد طال انتظاره حتى شكا فرسانه وجنوده لشدة ما اعتراهم من الجهد وهم يعسكرون فى دمنهور ، فلم يسعه فى النهاية إلا أن حمل عصاه راحلا إلى الجنوب مقهوراً ، وكان يأمل أن يجعل من دمنهور معقلا يقيم فيه حتى تأتيه النجدة ولكنها تأخرت ، فلما تأزم الموقف ونفد صبر من معه ، جانبه إخوانه وعشيرته ، فخذلوه فارتحل من البحيرة بجيوشه قاصداً الصعيد يملأ قلبه اليأس والقنوط ، وفى أوائل يناير سنة ١٨٠٧ وعلى الطريق المشرف على القاهرة ، رنا ببصره إليها متحسراً وكأنما يلقى عليها الوداع الأخير ، إذ ذاك وافته المنية فى الطريق فى الوقت الذى كان الانجليز يحشون

فيه السير فى حماس نحو مصر للالتقاء به، ولكن شاء القدر أن يفصل بين القوتين فيؤثر فى مجرى الحوادث إلى حد كبير .

وخسر الانجليز قبل مجيئهم قوة لايستهان بها فى عونهم على تحقيق مآربهم ، وقد ترك الألفى وراءه فراغا لم يستطع المماليك أن يملئوه ، فقد تفرقت كلمتهم من بعده وأخذت كفة محمد على تتأهل فى ذلك كقوة موحدة فى وجه الإنجليز . مات البرديسى فتخلص منه ، ومات الألفى فاستراح منه فصعد على أنقاضهما ، واشتد ساعده ؛ وكان الشعب يستعد لملاقاة الانجليز قوة بجانب قوة محمد على ، كل يكمل بعضه بعضا ، ولم يكن ذلك الشعب الخانع الذى كاد يحطمه تماما العهد العثمانى ، بل كان ذلك الذى برز فى جولاته فى الكفاح ضد طغيان الاستعمار الفرنسى وضد الطغاة من الحكام الأتراك .

وقد بدأت الثقة ترتد إليه أثر اختيار حاكمه بنفسه ، وتعبر عن إصراره بصيانة هذه الإرادة وباستمراره فى الكفاح من أجلها فكان متوقعاً أن يقف ضد الغزاة كما كافحهم من قبل وأن يقف بجانب حاكمه الجديد كما كانت وقفته الرائعة من قبل ومن ثم كان الموقف الداخلى فى مصر قبل مجىء الحملة غير ممهد السبيل ولا ميسوراً أمامها .

واقترب الطرفان نحو النضال الحربى فى سواحل مصر والقدر يحجب عن كليهما مدى قوة خصمه وتتقدم الحملة فى ثقة من عون المماليك واستهتار بالقوة التركية فى مصر دون حساب لتطور الظروف الطارئة بالقوة فلا تحمل على ظهرها سوى قوة محدودة .

وتتهيأ مصر لمقابلة العدوان فتزداد الجبهة الداخلية تماسكا وإن بدت فى البداية هيابة من الغزو ، فقد كان لثمار الالتحام الأول الذى قدر بعد ذلك أن يتم بين ساحة رشيد أثره الأكبر فى استكمال هذا التماسك ورد الثقة إليها فى قوة روحية أعلى .

وبينما كانت الحملة فى طريقها إلى مصر ، كانت مصر تتسمع أنباءها قبل أن تلقى بمراسيها فى الاسكندرية من الرسائل الواردة من الآستانة ، فأخذ الاهالى

يستمدون لمقاومتها كاستمدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية من قبل ، فتولى زعيمهم عمر مكرم زعامة هذه المقاومة الشعبية وشرع - كما يقول الجبرتى (فبراير ١٨٠٧) أهل الأسكندرية (فى تحصين قلاعها وابراجها وكذلك ابو قير . . .) وبجانب ذلك أخذت انباؤها بحكم الطبيعة تؤثر فى نفسية الشعب فحدث ثمة قلق ولغط ، كما أخذت الأسعار فى الارتفاع .

وبدأت الحملة تلقى بمراسيها فى الأسكندرية ، فشاء الاسطول أن يقوم أولا بعملية استطلاع فأقبلت أوائل مارس عام ١٨٠٧ سفينة أنجليزية إلى مياه الأسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها ، وما لبثت سفينة أخرى أن جاءت الثغر فى ١٤ مارس فاستدعت القنصل الأنجليزى ميست وسرعان ما استجاب الأمر لمقابلة من فيها ، ولما عاد أرسل مبعوثه برسائل الى المماليك فى الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة الانجليزية المرجوه واستدعائهم إلى الوجه البحرى كى يكونوا فى عونهم على الغزو بعد أن بلغهم آسفين بموت زعيمهم الالفى . بينما كان محمد على يحاول القضاء على المماليك كقوة بالحرب تارة ومحاولة استرضائهم تارة أخرى باقتسام بعض النفوذ فى البلاد .

احتلال الثغر :

وعادت السفينة الانجليزية فى ١٦ مارس تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الأخرى والقت مراسيها بالميناء الغربى ثم نزل منها ضابطان وطلبا مقابلة محافظ الثغر أمين اغا . وكانت الأسكندرية إذ ذاك تمثل فى ذاتها إدارة تركية مستقلة عن إدارة مصر وكان حاكمها هو امين أغا من ضباط الآستانة . وقد تواطأ مع الغزاة على تسليم المدينة نظير رشوة من المال . وقد أعطاه هذا المال قنصل انجلترا فلما قابله الضابطان اتفقا معه على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ولم يكد يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الأنجليزية مكونة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الأميرال لويس ، ثم أخذ جنود الحملة ينزلون مساء ذلك اليوم فى الشاطىء العجمى ولم يلبث أن زحف الجيش إلى الأسكندرية ، وهناك عسكر الجنود تحت أسوارها وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير ، وبعد مضى يومين فى مفاوضات

صورية بينهم وبين محافظ الثغر ، انتهى الأمر بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه معظم حامية المدينة ، ومن ثم دخل الأنجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أية مقاومة وقد توجهوا من حاميتها إلى دمنهور .

واحتلت الحملة الأسكندرية وكتب القنصل الأنجليزى مست اذ ذاك يقول : (لو أن محافظ الأسكندرية صمد للقوات مدة ٤٨ ساعة قبل عملية انزال الجنود الانجليز إلى البر لما أمكن نزولهم ، لكنه كان قد مل عسف الحكومة وظلمها .

موقف الشعب من الحملة :

واخذت أنباء الحملة تترى تباعا من الأسكندرية بعد احتلالها وتختلف فى تفاصيلها ، فتكثر الاشاعات حولها فتستمع البلاد إليها دون أن تتثبت من حقيقتها حتى استقرت أخيرا فى النهاية انباؤها فى القاهرة فأدرك كنهها الناس ومن ثم بدأ الموقف يتغير لمواجهتها والاستعداد لايقاف ما يحتمل أن ينتهى إليه الاحتلال من زحف إلى داخـــل البلاد . وكانت رشيد هى الساحة التى لقيت بريطانيا فيها هزيمتها الاولى على يد الوعى الصاعد للمقاومة الشعبية .

وبلغت أنباء الحملة أحد زعمـــاء المماليك فى الفيوم وهو ياسين بك ، فأخذته نزعته الدينية ، فتحرك شمالا حتى بلغ دهشور فأرسل للسيد عمر مكرم والقاضى وغيرهما انه تحرك بعد أن أخذته الحمية الاسلامية — ليواجه الغزو البريطانى وفى صحبته ستة آلاف من الجند ليرابط بهم بالجيزة أو قليوب ويجاهد بهم فى سبيل الله . فكتبوا له أخباريه (مضمونها : إن كان حضوره بقصد الجهاد فينبغى أن يتقدم بمن معه إلى الاسكندرية وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء فانه لا فائدة لبقائه فى الجيزة أو قليوب . .) وقد خشى المسئولون أن يكون وراء هذه النزعة مطامع خاصة فى الجيزة وغيرها ، لذلك وضعت خطة تحول دون تنفيذ سيره ومآربه .

فى ذلك اليوم الذى بدأ فيه هذا النشاط ٢٧ مارس تلقت القاهرة من صحيح الانباء ما أوقفها على جلية الموقف من استيلاء الانجليز على الاسكندرية وامتلاكهم قلاعها وسكنى قائدهم بيت القنصل .

وتسمع الناس لأنباء الغزو فى أصواتها الجديدة ، وما انتهت اليه علاقة الانجليز فى الثغر مع الأهالى من شروط شاء الاحتلال تحديد علاقته بهم ، ولقد كان لثبوت حقيقة الغزو آثارها فى مجرى المشاعر العامة بين المصريين .

حالة الجنود العثمانيين :

بدأ تأثير ذلك بين الجنود خوفاً ووجلا بأعمق مما بدا فى غيرهم .وكان هؤلاء خليطا من الأرناؤود والترك من المرتزقة وغير النظاميين فئة لا يهمها مصالح البلد الا ما تؤديه خدمة لأغراضها فى إطار خدمتها فى سلك الجيش العثمانى ، دون مصالح الأهالى أو مصالح مصر المباشرة فلم تكن إذ ذاك وطنا لهم يرتبطون به أرتباطا روحيا فلما علموا بالغزو امتلأت قلوبهم رعبا وآثروا — والمحنة على أشدها — ترك المصريين وحدهم فيها وإن بدت آثار ذلك الغزو بين الشعب ، إلا أنها لم تلته بهم إلى التفكك ونسيان الواجب كما بدت من هؤلاء .. وقد كانت مصر وطنهم الذى احتواهم دهرا ، وعاشوا فيه مندمجين فى حياة واحدة وقد جمعتهم من قبل وحدة الكفاح ضد الفرنسيين والانجليز والاتراك . فليس بدعا أن يصمد الشعب ويفر غيره من الجنود ذعرا أمام حقيقة الاحتلال .

فر كثير من الجنود الالبان منذ أن ابتليت الاسكندرية بالاحتلال إلى داخل البلاد .واحتوت دمنهور عددا كبيرا منهم فلم يسع شعب هذه البلد ،عندما أثر ذلك على حاميتها حتى همست بدورها بهجرة هذا البلد ، إلا انهم واجهوهم باللوم والتقريع ،فلما بلغ دمنهور جنود الأسكندرية الفارون اثاروا الرعب فى قلوب حاميتها عندئذ أنزعج كاشف دمنهور هو ومن معه من الجنود وعزموا على الخروج منها فلما أحس الأهالى خاطبهم أعيانهم قائلين لهم « كيف تتركوننا هنا وتذهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الانجليز » ولكنهم رغم هذا لم يستمعوا إليهم لشدة ما داخلهم من الخوف فحملوا متاعهم ومعهم الكاشف وهاجروا من البلدة إلى فوة على عجل ، فلم يسع أهل البلدة إلا أن أبلغوا ذلك إلى زعيم مصر إذ ذاك عمر مكرم شاكين فى ألم وسخرية .

يقول الجبرتى (ولما شاع احتلال الاسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا فى قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التى أعطوها التضا يقين والمستقرضين بالربا ، وابدال ما بايديهم من الدراهم والقروش والفرانسة التى يثقل حملها بالذهب البندقى والمحبوب الزر لخفة حملها حتى أنها زادت فى المصارف بسبب كثرة الطلب لها ، وبلغ صرف البندقى المشخص الناقص فى الوزن أربعمائة وعشرين نصفا ، والزر مائتين وعشرين ، والفرانسة مائتين واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك وسعوا فى مشترى أدوات الارتحال والأمور اللازمة لسفر البر وفارق كثير منهم النساء وباعوا ما عندهم من الفرش الأنيقة (١) .

موقف محمد على فى الصعيد :

توغلت أنباء الغزو إلى قلب الصعيد لتصل أنباؤها إلى محمد على كما وصلت رسائل الانجليز إلى زعماء المماليك فيتردد صداها بين جوانح الجميع تثير فيهم انفعالات متضاربة .

وإذ تترك أثارها هما ورعبا فى نفس محمد على ، فقد بدت بالتالى بين المماليك منعشة لآمالهم تملأ قلوبهم بالرجاء لتحقيق مآربهم فى البلاد وقد قربت الاحداث بين هذين الطرفين المتخاصمين فأخذ محمد على يعمل لمصالحهم وأخذ هؤلاء فى فرض شروطهم عليه . واحتدمت النزاعات بين الطرفين فى شكل مغالبة يقوم محورها على رغبة كل فى نيل مآربه على حساب خصمه .

كان محمد على يعلم مقدما من الباب العالى باحتمال غزو الانجليز مصر عندما هم بالتوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك وإخضاعهم بالقوة ليتفرغ لما يحتمل أن يحدث ولكنه لم يفته مع هذا أن يستخدم المصالحة أولا لبلوغ هدفه عندالزوم إلا انه آثر فى البداية المضى فى الحرب معهم حيث لم يجد ما يدفعه، التعجيل باستخدام أساليب المصالحة .

طلب وهو بالصعيد ثلاثة مشايخ من القاهرة للتأثير عليهم من خلال النزعة

(١) عبد الرحمن الجبرتى .

الاسلامية ليكفوا عن الحرب ويقفوا معه فى المحنة فى مصالحة بين الطرفين بينما كان يركز اهتمامه على أداة الحرب لاخضاعهم .

فوصل المشايخ إلى ملوى ،وهناك استأذنوه فى الذهاب إلى ما اتوا إليه للسعى للصلح ولكنه تركهم فى ملوى وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط ، ثم تلاقى مع الأمراء وحاربهم حتى ظهر عليهم وعند ذلك حضر المشايخ المذكورون فأرسلهم إلى الأمراء وكانوا بالجانب الغربى بحماية ملوى . فتفاوضوا معهم فيما اتوا بسببه ، وابا كانت فى البداية ، وزادهم فى الأمر ترددا شعورهم بالقرب من مساندة الانجليز لهم لتحقيق مآربهم . إذ ذاك اجابوا على رسل محمد على قائلين (كم من مرة راسلنا فى الصلح ثم يغدر بنا ويحاربنا) مفندين أمامهم مخالفته لاكثر الشروط التى عقدت بينه وبينهم . ثم اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا فى الأمر . ولم يكن هؤلاء متماسكين فى الرأى تماما . فلما علم محمد على بانباء احتلال الاسكندرية وارسال الرسل إلى المماليك بالوجه القبلى ارتبك فى أمره ، ومن ثم أسرع يحث خطى الصلح ويمد يده مضطرا فى سخاء لاسترضائهم . وقد ثبت فى نفسه كما يقول الجبرتى : (استيلاء الانجليز على الديار المصرية) وكان قد اعتزم على الهجرة إلى الشام . وكان يتوقع سرعة مجيئهم إلى القاهرة .

بين العملاء من المماليك :

وبينما كان محمد على يبدو مهموما إزاء أنباء الاسكندريه كانت رسائل الانجليز تفيض على المماليك بالبشر والرجاء . حتى أحجم عن تلبية نداء الانجليز ، ولكن كان جمهورهم يرى فى الأمر فرصة قلما تعوض ، لتحقيق مآربهم ولكن فى تردد مخافة لومهم من سكان البلاد لانضمامهم إلى أعداء الدين كما كانوا يعتقدون .

هزيمة أنجلترا الأولى أمام الوحدة الوطنيه :

بينما كان المصريون يفكرون فى تدبير شئونهم ، ومشاعر محمد على والمماليك تحتدم بحثا وراء رسم خيوط المصالحة كل وفق أهدافه ، كان الانجليز فى الاسكندرية يفكرون فى تعزيز نجاحهم الحربى فيها بامتداد الغزو شرقا حتى رشيد ،

وقد كان وراء هذه الخطة التى يسأل عنها القنصل مست أمام التاريخ ، رغبة ملحة منه لاستدراج بلاده لاحتلال البلاد لتزداد بهذا تمكنا من تنفيذ الخطة السياسية التى سعت إليها بريطانيا من قبل ، وضمان مصالحها فيها رغم أهداف الحملة المحدودة .

انعش نجاح الحملة الأولى بالاستيلاء على الاسكندرية القنصل مست ، فبعد أن أرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يستدرجهم لمعاونة الأنجليز بشتى ضروب الأغراء ، اتبع ذلك بنشاط آخر شاء به جر بلاده لاحتلال مصر .

فقد حاول اقناع القائد الانجليزى فريزر بإرسال قوة من الجنود الانجليز على النيل باحتلال رشيد . محاولا بهذا انعاش الامل فى قلوب المماليك وطمأنهم بقرب تحقيق آمالهم واستدراجهم لمعاونة الحملة على تحقيق ما كان يصبو إليه هذا القنصل من أغراض استعمارية على حساب مصر . وكان هذا يثق فى قوة المماليك ويرجو الخير على يديه .

ولكى يؤثر على فريزر لانفاذ الحملة إلى رشيد واحتلالها استخدم الغش والخداع وسائل للاقناع فبين له فى تقرير مطول مدى الحرج الذى يحيط بالجيش الانجليزى فى الاسكندرية إذا لم يتقدم باحتلال رشيد . فلم يعد فى رأيه فى مدينة الاسكندرية كلها إلا التموين الذى يكفى أهلها يوما واحدا فاذا لم يقم على الفور باحتلال رشيد عرض أهل الاسكندرية وجنوده للمجاعة . ولم يلبث فريزر أن صدق ما نبأ به ذلك القنصل . فهم باعداد حملة وامرها بالتحرك شرقا لاحتلال رشيد ، دون ما تدبر ولا دراسة عميقة للموقف . ولو كان هذا القائد فى مصر عام ١٨٠١ لعلم أن القائد الفرنسى مينو قد قاوم حصارا مدته سبعة أشهر قوته أكثر من سبعة آلاف جندى بريطانى وقد أغلق فى وجهه ميناء الاسكندرية وكان إذ ذاك فى موقف لا يتمكن فيه من الحصول على اية امدادات من البحر كما هو متاح للانجليز . ولكن كان قصر نظر فريزر هو الذى مهد لمست أن يغشه ويغرر به حتى هم باعداد هذه الحملة التى لاقت فيها بريطانيا هزيمتها .

وقبل أن يتحرك الجيش تلقى من الانباء فيما كتبه إليه قنصل بريطانيا فى رشيد

لمستر بترتش ما أوقفه عن حال مصر ومستوى قواتها المحاربة ، وبعد أن درس الموقف صحت عزيمته على احتلالها لجهز حملة قوامها ألفان من الجنود ، وجعل على رأسها الجنرال ديكوب ثم أمرها بالتحرك لاحتلال رشيد .

الزحف نحو رشـــيد :

سار هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس فقطع المسافة بين البلدين سائراً على سطح من الرمال تعتوره تلال كثبانية استنفدت الكثير من قوى الجيش في تحركه بعتاده وخيله فبلغ رشيد في اليوم التالى ومن ثم أخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

استعداد رشيد :

كان في رشيد إذ ذاك حامية تبلغ ستمائة جندى تحت أمرة محافظها على بك الشجاع ، فاعتزم حماية المدينة من الغزاة غير مستند إلى قوة هذه الحامية الصغيرة فحسب ، بل على المقاومة الشعبية المدنية ، وجد المحافظ في الاستعداد للقتال ضد الغزاة وشاءت المدينة الباسلة أن تضطلع بالدفاع وحدها . فتفتدى الشعب كله ولم تطالب من القاهرة عوناً ، ولم تنتظر أمراً بالدفاع عنها ، بل انطلقت تدبر شئونها بنفسها في ثقة كبرى لتسكتنى على الأقل شر عبث الجنود الالبان والترك الذين اشتهروا بذلك في القاهرة ، وقد كانوا لفيفاً من اخلاط السلطة العثمانية الأرناؤوط والدلاة وغيرهم .

خطة رشيد :

ووضعت رشيد الخطة فأمرحا كما بإبعاد مراكب التعدية في رشيد إلى الشاطىء الشرقى للنيل ، كى يقطع خط الرجعة على احتمال ارتداد جنود حاميته إلى هذا الشاطىء إذا ماسولت لهم أنفسهم ذلك ، ولكى يملأ نفوسهم عزماً على الدفاع . فلا يسلموا للعدو كما سلمت حامية الاسكندرية ، وبهذا ركز مشاعرهم حول الاستبسال في الدفاع بعد أن أصبح النيل من ورائهم والعدو أمامهم ثم أمر الحامية بالتراجع داخل المدينة وأن يتحصنوا والأهالى بالمنازل في استعداد للقتال

على ألا يبدأ ذلك إلا بعد أن تصدر إليهم الأوامر بإطلاق النار . . .

هزيمة الجيش الإنجليزى :

تقدم الانجليز ولم يجدوا ثمة مقاومة خارج رشيد وقد بدت وكأن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها أسوة بما حدث بالاسكندرية ، فتوغلوا فى المدينة ودخلوا شوارعها وتحسسوا جوانبها فزادوا اطمئنانا . عندئذ شاءوا التخلص من متاعب السفر فانتشروا فى الطرق والأسواق بحثاً وراء أمكنة يستريحون فيها ، ولكن لم يدم لهم الأمر طويلا إذ لم يشأ حاكم المدينة أن يتركهم ينعمون بالراحة . فما كادوا يستقرون حتى أصدر أمره باطلاق النيران على هؤلاء الغزاة ومن ثم انهال عليهم الرصاص من الأهالى من كل حدب وصوب ، من النوافذ والأزقة ومن الاسطح . فلما فوجىء الأعداء بهذا الرصاص المنهمر عليهم بعث فى قلوبهم الرعب فألقوا ما بأيديهم من أسلحة ، وطلبوا الأمان . فلم يلتفت إليهم وأخذ الكثيرون يسقطون صرعى أمام هذه المقاومة التى دهمتهم فى حماس وعنف ، حتى قتل القائد الانجليزى ويكوب كما قتل معه كثير من ضباطه . ولاذ نفر من الانجليز بالفرار مؤثرين العافية على النضال ، بينما فر لفيف من الأحياء فى حالة من اليأس متقهقرين نحو الاسكندرية عن طريق (أبو قير) .

وهكذا تنتهى المعركة الحربية بهزيمة الجيش الانجليزى وقد بلغ عدد قتلاه ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحاً . أما الأسرى فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً .

وقد استطاع الأهالى التعبير عن مشرق جديد للشعب بدا دوره من قبل ، وكان اتجاهاً صاعداً من طليعة الروح القومى . وقد تجلى فى هذه المعركة كما تجلى من قبل فى كفاح الفرنسيين ، فمثل محوراً من التضامن والتساند والشعور بوحدة المصير والثقة بالنفس ، وكانت معان تدور كلها فى إطار الفكرة الدينية . وقد تجلت صفحة مشرقة فى تاريخ الكفاح الشعبي ضد الغزاة فى مصر .

أنباء النصر :

بلغت أنباء المعركة الاسكندرية وكان قائدها فى شوق لسماعها ولما لم يكن

يتوقع أن تنتهي بهذه النهاية المؤسفة ، فقد أسف لسماع أنبائها ، وما لحق جنوده من الهزيمة وقد وصف فريزر هذه المعركة بأنها كانت : معركة غير متوقعة وكارثة فادحة حلت بقواته .

وارتدت أنباء المعركة على سائر الشعب فازدادت وحدتهم الوطنية فأحسوا بغبطة النصر وأنعشت أنباؤها الآمال وبعثت فى الجميع الرجاء .

الجنود النازحة ترتد إلى أوكارها المقفرة فتنتشى بالأمل وتطمع فى البقاء ومداومة القتال ، والشعب الصامد يزداد ثقة على ثقة ، فيحس بتدفق الحياة فى جسمه ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس بشرى المشرق الجديد ، وطيوف النصر تمس القلوب فتهفو وتختلج وكأنما أصبحت رشيد زهرة تفوح وطلاقة تفيض على من حولهـــا بالبشر والبهجة ، وقد ارتدت الطمأنينة إلى النفوس وأخذت تمتلىء بلون جديد من الحماس .

أنعشت هذه الأنباء جنود حامية دمنهور الذين فروا من قبل فى جبن مع كاشفهم منذ دخول الانجليز الاسكندرية ، فدفعتهم إلى العودة إلى دمنهور ، وهم يشعرون بالطمأنينة ، وأخذت الأنباء تنتشر والسعاة ينقلونها إلى القاهرة فيستمع سكانها إلى هذه الأنباء مغمورين بالفرحة حتى كادوا لايصدقون أنباء رشيد لفرط ما بلغته من نتيجة حاسمة ، يقول الجبرتى (فضربوا مدافع وعملوا شنكا ، وخلع كتخدا بك على السعاة الواصلين وأسرع المبشرون من أتباع العثمانيين وبعض القراصنة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان ويبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع ، وتقبلت القاهرة الأنباء بالبشر والحماس فقد أزل النصر هيبة الحملة فى نفوسهم تلك الهيبة التى جاءتهم من شهودهم انتصارات الانجليز على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الأساطيل الفرنسية فى البحار ، فأخذ الشعب يزداد ثقة بنفسه وتحفزاً إلى الاستمرار فى المقاومة فنادى الناس بالجهاد وتدفق المتطوعون إلى القاهرة وغيرها .

وإذا كان من الطبيعى أن تنتهى الأنباء بالبهجة فى نفس محمد على فقد كان من الطبيعى من ناحية أخرى أن ترتد فتملأ قلوب المماليك حسرة على ماأصاب

حلفاءهم وهم يتصالحون مع محمـــد على ويحاولون فرض الشروط عليه .

الاسرى فى شوارع القـاهرة :

واستمع الناس إلى الأنباء وكأنهم كانوا على موعد من شهود موكب الاسرى يشق شوارع القاهرة ليروا بأبصارهم حقائق هذه الأنباء وشهودها ، وحملتهم السفن من رشيد إلى القـاهرة فروا فى شوارعها ثم استقروا فى القلعة وكانت إذ ذاك بناء احتوته تلال المقطم ميراثا شهد المجد من عهد صلاح الدين . يمثل طابع العصور الوسطى ويستقبل عهده الحديث بإشراقة شعب يستيقظ من سباته ويفيق من غفلته ويجدد فى كيانه وكان يوما مشهودا كما يقول الجبرتى (١) .

فلما كان يوم الاحـد ٢٦ محرم سـنة ١٢٢٢ (ابريل سـنة ١٧٠٧) أشيع رؤوس القتلى ومن معهم من الاسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الـكثير منهم إلى ساحـــل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم ، تطلعوا إلى البر وصحبتهم جماعة المعسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير وآخر كبير السن وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة فى وسط العسكر ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعـدتها أربعة عشر رأساً والأحيـاء خمسة وعشرون ولا يزالون سائرين إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنـكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة ، وفى يوم اثنين وصل أيضاً جملة من الرؤوس والاسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً ومنهم جرحى) .

وانتهت معركة رشيد الأولى بهزيمة الجيش البريطانى ، هزيمة ساحقة وانتصار المقاومة الشعبية انتصاراً مؤيداً ، وقدشعر الطرفان عقب المعركة بمشاعر متضاربة حفزتهما نحو لقاء آخر والتحام أشد انتهى بنتائج حاسمة ، رفعت من شأن مصر المـكافحة وقضت على ماعقد من رجاء وراء الحملة البريطانية .

شعر الانجليز بالـكبرياء الجريح وشعر قنصلهم مست النذير الهادف إلى

---

(١) انظر المرجع السابق .

القضاء على خطته التي سير من أجلها الحملة الأولى على رشيد فثبت النية على الانتقام ومعاودة العدوان على رشيد .

وشعر المصريون بالثقة تتدفق فى نفوسهم وبالآمل يشد عزائمهم للاستعداد فى كل مكان لمقابلة العدوان والاجهاز عليه بعد أن توارد النيات السيئة للحملة وضوحاً .

موقف الشعب :

أخذ الشعب يستعد فى حماس رهيب ، وكان استعداده ذلك من أجل المعركة الفاصلة فى وحدة وطنية كبرى ، وكانت القاهرة الرأس المدبر المقاومة الشعبية والعين الساهرة على مؤازرتها بالاستعداد العسكرى عند ماتجد الساعة ، وقد كانت الاستجابة منها منذ أن وردت أنباء المعركة الأولى أن استفز الشيوخ ، وفى مقدمهم السيد عمر مكرم ، أهلها إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد فى حث الناس على الجهاد فأقبلوا على الدعوة متطوعين تحت لواء المقاومة الشعبية ، وكان تطوع الشعب تلقائياً يعبر عن استعداد روحى وشعور بالتضامن وحرص على صيانة مقومات الحياة ، وكان المتطوعون يذهبون كل يوم إلى أطراف المدينة ، يعملون فى حفر الخنادق وإقامة الاستحكامات شمالى القاهرة لصد عدوان الانجليز إذا ما حدث وجاء هؤلاء عن طريق شبرا ، وقد بادروا إلى العمل فى ذلك بزعامة عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ، ثم يعودون إلى أعمالهم عند الظهر ، وكان عمر مكرم يذهب إلى حيث يشتغل العمال فى إقامة الاستحكامات فيثير حماسة الجماهير ، وكان ينبه على الناس ويحثهم على حمل السلاح والتأهب للجهاد ضد الانجليز الغزاة ، ثم دعا الأزهريين إلى المشاركة فى القتال ، ولم ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب ، بل رجال جهاد وقتال ، ومالبث هؤلاء أن أذعنوا للدعوة ولبوا نداء الجهاد والاستعداد للقتال ، تاركين ساحات دروسهم وكان الشعب فى زعامته دائب الحركة والتفكير ، فى تدبر الموقف ودراسته إبان غياب محمد على فى الصعيد وكانت القاهرة تعقد الاجتماعات وترسم الخطط بروح تنم عن أصول قومية تستنبت نباتا حسنا لتشرق فيما بعد وتستضىء بها مصر الحديثة .

يقول الجبرتي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة من أجل التشاور ودراسة الموقف ورسم ما يجب تنفيذه :

(وفي يوم الثلاثاء (٢٨ محرم) حصلت جمعية ببيت القاضي وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الإنجليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشعبية والاتحاد ، وأن تمتنع العساكر من التعرض للناس بالإيذاء ، كما هو شأنهم ، وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو (١) .

ثم أخذ هؤلاء في التشاور في تحصين المدينة وحفر الخنادق وقد نمت أحاديثهم عن خبرة جديدة اكتسبوها من نضالهم السابق ضد الفرنسيين إبان غزوهم مصر فمن قائل بأن الإنجليز لا يأتون إلا من البر الغربي والنيل حاجز بين الفريقين وأن الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحرب ، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل بباب الحديد والنيل ،ومن قائل بضرورة الاعتناء بإصلاحه وغير ذلك من الآراء حتى تفقوا على الرأي الأخير .

ولقد شاء قنصل فرنسا الذي فر من الإسكندرية وجاء إلى القاهرة عن طريق رشيد أن يسهم في هذه الترتيبات الفنية في رسم خطط الدفاع عن القاهرة ، يقول الجبرتي :

(ففي يوم الأربعاء (٢٢ محرم) ركب السيد عمر النقيب والقاضي والأعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور وفي صحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذي أشار عليهم بذلك ، وفي صحبتهم أيضاً الجمع الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة (١)) .

واشتركت طبقات الشعب في حفر الخندق وإقامة الاستحكامات ، يقول الجبرتي :

(١و٢) أنظر المرجع السابق .

(وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأقبل الوكايل والخانات والتجار وأرباب الحرف الروناجى ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين أو عشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس والنصارى والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغلقان والفئوس ، والحزم وآلات الحفر وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية) .

ولم يكتف أهل القاهرة بالتطوع للدفاع عنها بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد عندما حاول الإنجليز معاودة الحملة عليهم وكانت زعامتها تنظم هذا العون فى القاهرة وخارج القاهرة وإبان ذلك الغزو الثانى لرشيد .

موقف الإنجليز والهجوم الثانى على رشيد :

بينما كان الاستعداد لمواجهة الإنجليز بين الشعب على أشده ، والفرحة تملأ قلوب الجميع لانتصارهم على الانجليز ، كان هؤلاء فى الإسكندرية يشغلهم أمر الهزيمة وقد دفعتهم الرغبة يستثيرها قنصل بريطانيا ... للانتقام إلى معاودة الغزو لرشيد ، بعد أن ذل كبرياءهم العسكرى . ولكنهم وجدوا هذه المرة قوة أكبر من شعب متساند مع جيشه وحكومته ومشاعر مهيأة للنضال حتى النصر .

كان بجانب العسكريين الإنجليز قنصل بريطانيا الدائب إذ ذاك على جر بلاده لاحتلال مصر .

لم يحتمل هذا القنصل الصبر على الموقف كما انتهى إليه ، فلم يهمد — لا سيما بعد أن شاهد النتيجة السيئة — عن التحريض على غزو رشيد ، وعندئذ تابع تحريضه لمعاودة الغزو ثانية ، فذهب فى جماعة من أعيان الإسكندرية ليقابل فريزر ويطلب إليه تدارك رشيد لأن الطاعون قد اجتاحها ، فتقرر إيفاد حملة عهد بقيادتها للجنرال ستيورات .

وكانت رشيد قد أنعشها النصر الأول وفتح أعينها على خبرات جديدة فى القتال ، وقد أصبحت بعد نصرها تستند إلى عمق كبير يسند ظهرها من مشاعر المصريين جميعاً ، ولم يكن مقدراً إلا أن تصمد أمام الغزاة بعد أن غدت مرموقة

من المصريين فى بسالتها وبعد أن ارتبطت بثقة كبرى بينها وبين سائر الشعب .

التقاء الطرفين :

وتحرك الجيش الإنجليزى من الإسكندرية لمعاودة الهجوم على رشيد مرة ثانية واحتلال هـذه البلدة وكان عدد قواته أربعة آلاف مقاتل فى الثالث من ابريل سنة ١٨٠٧ والتقى الطرفان فى ساحة رشيد وأحكم القدر للطرفين خيوط مصيره ، وارهف التاريخ اذنه . ليتسمع إلى الأمر الفصل الذى شاءت هذه البلدة ان تلقيه فى سمعه تحدياً لمصير الحملة البريطانية ، وما جاءت من اجله ، ليسجل بدوره على يدى رشيد نصراً جديداً يرسى أصول فجر جديد لمصر الحديثة .

اصبح جيش ستيوارت على مقربة من رشيد . وإذ ذاك أنفذ كتيبة منه احتلت الحماد التى تقع جنوب رشيد بين النيل وبين ادكو ، وقد شاء القائد بذلك ضرب الحصار حول رشيد والحيلولة دون وصول المدد إليها من الجنوب ، وصيانة مؤخرة الجيش الإنجليزى ليسهل احتلال رشيد .

واحتل الإنجليز آكام ابى مندور ، وركبوا عليها المدافع ليقصفوا منها رشيد بالقنابل ، ثم عسكر معظم الجيش الإنجليزى غربى رشيد وجنوبها ، وإخذ يحاصرها فى ٧ ابريل ، ويضربها بالمدافع .

كان الغزاة يظنون ان قصفها بالمدافع يلقى الرعب فى نفوس الحامية والأهالى ومن ثم يسلمون مضطرين . ولـكن راحت ظنونهم أدراج الرياح . فرغم إنذاره لهم اكثر من مرة بأن يذعنوا ويسلموا مدينتهم صاغرين فقد رفضوا ذلك بكل إباء وشمم ، وقد ازدادوا قوة معنوية وتماسكا ،ورغم تهدم الـكثير من البيوت وقتل العـدد الوافر من الأهالى ، صمدت رشيد امام العدوان الغادر وتحمل الحصار ، وما نجم عنه من خسائر فى صبر عجيب فى انظار عون القاهرة ومساندة إخوانهم من المصريين وهم يفتدونهم بأرواحهم فى المقدمة ، مما اثار دهشة القائد الإنجليزى ، فقد كتب الجنرال ستيوارت إلى فريزر فى الإسكندرية يقول نقلا عن وثائق الحملة :

(. . تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصايب التى تنزل بهم . ان قواتهم

لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الارناؤود وألف من الأهالى المسلحين ، ولكنه نظراً لسعة خطوط دفاعهم . . وطبيعة مواقعهم أرى من الحكمة أن اتعجل باقتحام المدينة وأن نجاحنا معلق على نجدة المماليك . فإذا جاءوا إلينا أمكننا ان نرسل إلى البر الشرقى من النيل قوة تشترك معنا فى القتال ، اما الآن فيستحيل علينا ذلك ، لأن العدو متفوق علينا بقوة الفرسان . . وليس لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كالدلتا ، وفى انتظار تلك النجدة يتبين لنا اهمية موقعنا فى الحماد ، فإننا نتوقع ان يهاجمنا الأعداء فيها وسأبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا) . .

رشيد وطلب النجدة وموقف الوحدة الوطنية :

وبين صمود رشيد فى الدفاع عن ذمارها ، واقتداء المصريين بنضالها التاريخى ضد الغزاة ، أرسلت تطلب النجدة من القاهرة بعد ان اضطرت وشعرت بوطأة الموقف .

ارسل السيد نقيب إشراف رشيد الرسائل للسيد عمر مكرم يستنجد به ويطلب إمداد المدينة بالرجال ، فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة الأولى على الناس وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا إليه وتطوعوا وحملوا السلاح وازمعوا على السفر لنجدة إخوانهم . وبالرغم من ان (كتخدا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يعود محمد على من الصعيد ، فإن كثيراً منهم لم يعبأ بهذا المنع وارتحلوا لنجدة اهل رشيد والوقوف بجانبهم فى صد الجيش الانجليزى .

وتطوع كثير من اهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد ، واقبلوا عليها يتدفقون وقد مثل ذلك لونا جديداً من الشعور بالجماعة ، غير ان هذا لم يكن ليسعف الموقف ، إذ كان لابد من مدد من قوات الجيش المصرى ، ليقفه بجانبهم فى المعركة .

عودة محمد على من الصعيد :

وعاد محمد على من الصعيد ، فى غضون هذه الأزمة الدقيقة ، ورشيد تتابع

يطلب النجدة . فبلغ القاهرة ليلة ١٢ إبريل سنة ١٨٠٧ وخرج عمر مكرم والمشايخ والمحروقى لملاقاته . وركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ، ودار بينهم الحديث فى امر الانجليز فأظهر اهتمامه الكبير . ولكنه سخط على اهل الاسكندرية سيما امين اغا إذ مكنوا الانجليز من الثغر ولم يقبل لهم عذراً ، ولما قالوا له: (اننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر) كان جواب محمد على : (ان ليس على رعية البلاد خروج . وإنما عليهم فقط المساعدة بالمال . ثم انفض المجلس . وسار بعد ذلك تدبير الموقف بنشاط جدى) .

محمد على يستعد :

اطمأن محمد على كثيراً . وسر لهزيمة الانجليز فى رشيد . ولقى الحالة اقل خطورة مما كان يتوقع . ولكن لم تملأ قلبه الطمأنينة تماماً فقد راى ان الانجليز قد يستأنفون القتال . فبادر إلى تجديد جيش لمحاربتهم ، وجد فى استكمال الاستحكامات التى بدأها الشعب من قبل ، وواصل العمل فى حفر الخنادق من باب الحديد وبولاق ، لإقامة خط الدفاع من القاهرة . من الشمال . وشق اخاديد امام الفنادق تتصل بالنيل لتمتلىء بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الانجليزى . ثم اغرق عشر مراكب بين جزيرة بولاق والشاطىء ، لمنع مرور السفن الانجليزية فى النقل إذا ما جاءت من رشيد ، ثم نصب المدافع فى شبرا وامبابة وجزيرة بولاق . وقد اشترك معه العلماء والشعب فى العمل بحماسة ، واخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش . يعاونه فى ذلك علماء البلد والسيد عمر مكرم . فجمعوا تسعمائة من سكان العاصمة من اجل نفقات الزحف ، حتى تم إعداد الحملة . فكانت مؤلفة من اربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة والف من الفرسان ، ثم امرها بالسير قاصدة رشيد بقيادة طبوزاغلى (كتخدابك) نائب محمد على .

كان اهالى رشيد ينتظرون فى لهفة ان تنجدهم القاهرة بالمدد والمساعدة وهم فى صمود امام الانجليز ، وكان الانجليز من ناحيتهم ينتظرون ان ينجدهم المماليك وهم يهجمون على الأهالى بغير جدوى ، ليتمكنوا من الاستيلاء على رشيد ، ولكن هؤلاء أخذوا يسوفون ويماطلون فى الوفاء بعهدهم ويرقبون تطور الحوادث

فى حرص وقد وقفوا جانباً عن خلفائهم لما راوا من حرج مراكزهم . وقد بدا الموقف يتحول إلى جانب رشيد بفضل استجابة القاهرة لها بالعون القوى ، استمر الضرب والحصار نحو اثنى عشر يوماً ، كان الأهالى يناوشون مواقع الانجليز فى الحماد فأنفذ إليها الجنرال ستيوارت مدداً من الجنود . وركب المصريون مدفعين على الشاطىء الشرقى واخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الانجليزى ، بالبر الغربى ، عندئذ اجتاز الميجر ماكدونالد النيل عند مسجد ابى مندور فى ١٦ ابريل ومعه قوة من الجنود عددها ٢٥٠ جنديا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ولكن سرعان ما ارتدت القوة على اعقابها عندما تلقى المصريون مددا واستمر الضرب والحصار إلى ان جاء المدد الذى ارسله محمد على ، عندئذ اخذ الموقف الحربى يتغير من اساسه ولقد كانت هذه الإمدادات المصرية مؤلفة من فرقتين يقود إحداهما طبوزاغلى وقد اتخذ خط سيره الساحل الشرقى للنيل ، اما الثانية فكانت تحت قيادة حسن باشا وكان يسلك طريقه إلى رشيد بحذاء الشاطىء الغربى للنيل وقد ظلت كلتاهما تسيران بحذاء واحد على ضفتى النيل حتى بلغتنا قبالة النقطة التى كان يعسكر فيها الجيش الانجليزى واتخذها نقطة امامية وهى قرية الحماد فعسكرت فرقة حسن باشا اتجاهها كما اتخذت الفرقة الأولى قبالتها قرية برنبال معسكراً لها ،وكانت كل قرية على مراى البصر من الثانية .

بداية المعركة :

دار محور القتال حول موقع قرية ابى حماد ، لأن موقعها الاستراتيجى كان على جانب كبير من الأهمية . فمن يمتلكها كان يستطيع التحكم فى منطقة رشيد كلها وقد تخير الانجليز احتلالها والدفاع عنها بشدة لحماية ظهر القوات المحاصرة لرشيد من احتمال هجوم القوات المصرية من الجنوب .

وكانت اهميتها الحربية ترجع إلى وقوعها فى برزخ بين النيل وبحيرة إدكو وكان فى شمالها ترعة ، كانت فى ذلك الحين جافة تصل بين النيل إلى قرب البحيرة وكان التحكم فيها من شأنه ان يقطع على جيش مصر ولوج هذا الباب الوحيد

السهل فيحول دون تمكنه من القضاء على الجيش الانجليزى المحاصر لرشيد ونجدة أهلها غير أن قوات مصر إذ ذاك كانت من القوة لدرجة أن كان فى مقدورها فتح ثغرة فى هذا البرزخ بين القوات البريطانية والنفاذ منها إلى رشيد بل والالتفاف حول القوات الانجليزية نفسها ثم تشتيتها .

وما أن رابطت قوات مصر فى مواقعها ، حتى تقدمت منها طليعة من الفرسان البواسل فى صبيحة العشرين من شهر أبريل نحو مواقع الجيش الانجليزى فى الحماد وهناك التقت بكتيبة منهم بين المزارع ، فلم يسع هؤلاء إلا الارتداد إلى الوراء فلما لم يحكموا انسحابهم انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين ، وقضوا عليها كقوة محاربة ، وعلم ستيوارت بهذا التلاحم الذى خسر فيه جنوده وأنذر بتفكك أوصال جيشه والقضاء على قوة الحماد كلها ، أرسل القائد ماكلود ومعه قوة من الجنود والمدافع وعهد اليه بقيادة القوة المرابطة ثم رتب الكولونيل مواقع جنوده وكان عددهم ثمانمائة ، ترتكز ميسرتهم إلى النيل بقيادة الماجور وجلساند ، أما ميمنته فكانت بقيادة الكابتن تارلتون وكانت قرب بحيرة ادكو أما قلب هذه القوة فكان يرتكز إلى قرية الحماد نفسها بقيادة الماجور مور .

ثم انقضى يوم ٢٠ أبريل دون أن تتعرض مواقع الأنجليز للخطر وسرى الاطمئنان إلى قلب ماكلود على سلامة مركزه وتحصيناته .

وقام الجنرال ستيوارت فى ٢١ أبريل يطمئن إلى سلامة الخطة ومعدات قواته فأخذ يفتش خط الدفاع فى هذه القرية فلاحظ بعض العيوب فيها ، إذ وجد أن القوة فى خط الدفاع لا تحتمل فى بعض نقاطها أى ضغط من قوات جيش مصر إذا ما حدث وتكاثر عددها إذ كان من السهل أن تنفذ القوات المصرية عند تكاثرها من إحدى ثغرات هذا الخط إلى قوات رشيد وتمزق شمل هذا الخط الدفاعى ، لذلك عهد إلى الكولونيل ماكلود أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن موقعه ، ثم أمره بالارتداد إلى شاطىء البحيرة فى حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين . فإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يتراجع مرتداً إلى الجيش الإنجليزى المحاصر لرشيد إذ ذاك ..

ونظراً لأن ستيوارت كان قد أدرك تكاثر قوات مصر بشكل أصبحت فيه تفوق عدد الجيش الانجليزى عدة وعتاداً ، فقد ارتأى أن ينتظر حتى اليوم التالى ، ثم اعتزم أنه إذا لم تصله النجدة التى كان يترقبها الانجليز من المماليك برا بوعدهم واتفاقهم السابق أن ينسحب من موقع الحماد ثم يرفع الحصار عن رشيد ليتراجع منها إلى الإسكندرية .

النصر فى المعركة الفاصلة :

وجاء اليوم التالى (٢١ أبريل) وكان يوماً أغر على قوات مصر وعصيباً على القوات الانجليزية . فلم تأت امدادات المماليك المتوقعة ; وتطلع الكولونيل ما كلود إلى الأفق وامتد بصره فرأى فى الصباح معالم الهزيمة لجيشه . رأى القوات المصرية وقد تكاثر عددها وامتلأ السهل برجالها وقد تهيأت إذ ذاك للانقضاض على جيشه لتلقى عليه درساً قاسياً وكأنما كان القدر قد أعد الهزيمة ليفرضها على بريطانيا المعتدية ، وكانت خيوطها تنحدر إلى هذا اليوم العصيب الذى مثل اليوم الفصل للحملة الانجليزية كلها .

وحمى وطيس المعركة وواجهت القوات المصرية خصمها بأشد هجوم تضرب فى الشمال واليمين ، وتنفح الأمل الباسم المتفتح عن فجر جديد ، كتلة متراصة موحـــدة الهدف فى مواجهة جيش الامبراطورية الذى هزمت به الفرنسيين والأتراك من قبل ، لا تمزقها الخيانة ولا تعبث بمقوماتها الدسائس ، ولا تضللها الشائعات الضالة ومن ورائها شعب متماسك يتحسس نفسه فلا يجد فيها إلا عزماً وقوة وصلابة نحو الجهاد فى سبيل صيانه بلده ومقومات حياته ودينه وتطهير بلاده من الغزاة الانجليز .

بدأت المعركة فى السابعة صباحاً ، واستمرت ثلاث ساعات سوياً كانت القوات المصرية فيها تحكم ضرباتها على العدو وخططها فى السير فى المعركة .

تعقب الفرسان المصريون القوات الانجليزية الثلاث : القلب والميمنة والميسرة . فأحاطوا بقوة القلب ، وكان معها الكولونيل ما كلود فانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب حتى قتلت معظم رجالها ، وقتل من بينهم القائد ما كلود نفسه . . .

واحاطوا بالميمنة فمزقوا جنودها شر ممزق ومنهم قائدهم الكابتن تارلتون ، ولم ينج من القتل سوى خمسين اسرتهم هذه القوات ، اما ميسرة الجيش الإنجليزى فلم يجد قائدها سبيلا عن التسليم لقوات مصر وفك الحصار عن رشيد .

أنبـاء النصر فى القاهـرة :

وأخذت أنباء النصر تنتقل تباعاً إلى القاهرة فيتسابق السعاة إلى نقلها لينالوا مقابل ذلك العطاء الوفير من محمد على وشرف السبق فى حملها إلى القاهريين .

يقول الجبرتى : فى يوم الخميس (١٤ صفر) حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم وذلك أنه قد اجتمع الكثير من أهالى البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول (كتخدا بك) واسماعيل كاشف الطوبجى الى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الإنجليز طائفة وقتلوا منهم عدة رءوس فخلع الباشا (محمد على) على الساعيين جوختين ، وفى أثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا فى الأخبار وأن الإنجليز انجلوا عن متاريس رشيد إلى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم الى أن توسطوا البرية ، وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين .

وتمضى قصة النصر فتنقل إلينا صورة عما يحدث من الإعداد لنقل الأسرى إلى القاهرة وتزداد الأنباء تواردا فيزداد محمد على سروراً ، كما أحيط عمر مكرم علماً بالموقف وكان سروره لذلك بالغاً ، وقد أطلقت المدافع صبح ذلك اليوم (٢٣٠ ابريل) من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة احتفالا بهذه البشرى . وكان احتفالا بقوة الوحدة الوطنية فلم يكن النصر إلا من ثمارها .

وكان طبيعياً بعد ذلك ان يفد إلى القاهرة جموع الأسرى زرافات ووحدانا كما حدث اثر النصر الأول فى رشيد .

طليعـة افواج الأسرى :

وتطلع الناس لمقدم الأسرى واخذت طلائع هؤلاء تترى : تباعاً إلى القاهرة

فى اليوم التالى (٢٤ أبريل) لحضر أولا ١٩ إنجليزياً من جنود الحملة وعدة من الرؤوس فروا بهم وسط (الشارع الأعظم وأما الرؤوس فروا بها عن طريق باب الشعرية وعدتها نيف وثلاثون رأساً موضوعة على نبابيت)[1] كرواية الجبرتى ، وقد وضعوها فى وسط بركة الأزبكية مع الرؤوس الأول (صفين على يمين السالك من باب الهواء إلى وسط البركة وشمالها) .

وفى اليوم التالى (٢٥ أبريل) وصل تسعة أشخاص من أسرى الإنجليز ومعهم أحد ضباطهم ، ثم توافد فى اليوم الذى تلاه (نيف وستون ومنهم رأس واحدة مقطوعة فروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة وهرع الناس للفرجة عليهم وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأساً وأربعة وأربعين أسيراً من ناحية باب الشعرية وطلعوا بالجميع إلى القلعة) .

الركب الكبير :

ثم جاء ركب الأسرى الأكبر فى ٢٩ أبريل الذى ازدحمت شوارع القاهرة الرئيسية من أجل رؤياه ، وكان مظهراً اختلطت به مشاعر النظارة بين معانى الفرحة وعواطف الإشفاق بدافع النزعة الإنسانية .

فعقب المعركة جمع كتخدا بك جمهور الأسرى ومعهم جرحاهم ورؤوس قتلاهم وأنزلهم فى مراكب فى النيل لتبلغهم تلك القاهرة ليشهدهم سكانها ومن ثم يودعون فى سجون القلعة .

وركب الأسرى وجرحاهم ومعهم رؤوس قتلاهم تحت حراسة الجنود المصريين وساقت الرياح الشمالية السفن إلى القاهرة تشق عباب النهر فى عزة وعلى ظهرها حطام معركة تسجل جزاء الغزاة أمام وحدة الشعب المتماسكة ، وتمعن السفن فى المسير فى صراع مع التيار وتستحث الخطى فى لهفه اللقاء القاهرة ، فلا تواتيها ريح الشمال بقدر ما ينفس عن حرارة لهفة الجذلان بنصره ، المتشوق للقاء بنى عشيرته يشهدهم مبلغ قوة جيشهم ، ومدى خذلان أعدائهم .

وبينما كان الجنود المصريون مغمورين بفرحة النصر كان الأسرى تتنازعهم

(١) عبد الرحمن الجبرتى .

الأوهام والهواجس وتتزاحم فى عقولهم الأفكار خشية سوء المصير ، فيتنفسون عنها همساً ويأخذ منهم الخوف من ذلك كل مأخذ ، ويحاول الفرد التسرى عن ذلك بحديث أو بمنظر ولكنه لا يلبث أن يرتد فى حسرة بين الماضى والحاضر .

وتمخر السفن عباب النهر وتطول الليالى أمام الجنود فيقطعونها بين وحشة الأسر وذلة الهزيمة ورهبة المنظر المنبعث من رؤوس زملائهم ، وتقترب السفن من القاهرة ، فيزداد الجنود المصريون فرحا وغبطة بينما تزداد قلوب الأسرى وجلا من أن تصبح هواجسهم حقيقة واقعة . فيذوقوا سوء المصير كزملائهم الذين قطعت رءوسهم .

وتنبلج أضواء الفجر وتكشف خيوطه عن معالم تلال المقطم فتتكشف تحتها قباب القاهرة ومنائرها .

ويستيقظ الأسرى ليشهدوا القاهرة ، وعليها أضواء صبح جديد فيرونها لأول مرة فتصبح القاهرة لتشهد معالم النصر فى موكب الأسرى يطوفون شوارعها ومن ورائها شعب كان يتهيأ إذ ذاك لبناء أصول دولة حديثة .

وتلقى السفن بمراسيها فى بولاق فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٧ ويخـــرج أهالى القاهرة بين أخبار الأمس وموكب اليوم فى حلم جديد فيتوجه الجمع إلى بولاق ويتوزعون إلى الأزبكية وكأنهم يتلاقون على ميعاد من القدر لمشاهدة الموكب . ويتكاثر عددهم كلما انتشرت الأخبار عن مجىء الأسرى فيمتلىء ساحل بولاق والطرق المؤدية إلى القلعة بالنظارة .

وتنزل أفواج الأسرى الإنجليز ساحة القاهرة أسرى حرب لا فاتحين ، كما كانوا يحلمون ، وتسير جموعهم وقد نكست رؤوسهم وأبت أن ترفع إلا فى ذلة ، وحولهم رؤوس قتلاهم مرفوعة على رؤوس الرماح والنبابيت وعليهم سمات الإعياء والجوع والتعب لا يكادون يثيرون الشفقة بين اهل القاهرة حتى يرتد منظرهم العدوانى فيثير فيهم النقمة جزاء ما فعلوا ، وقد سار فى مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزى الماجور موز والماجور ويجلسند وكان يوماً مشهوداً .

وتابع الركب المسير حتى الأزبكية حيث صفت رؤوس الكثيرين من القتلى

الإنجليز السابقين فى صفين على رؤوس النبابيت الطويلة وسط الأزبكية وكانت نظرة واحدة إلى هؤلاء من أسرى الركب كافية لأن تضاعف فيهم الرعب وتزيد فى نفوس معظمهم الإعياء .

وأخذ حى الأزبكية يموج بالزحام والحركة ، وكأنما خرج الناس جميعاً ليروا موكب الأسرى فى يوم النصر ، وكانت أسطح المنازل تزدحم بالنساء وهن يمددن أبصارهن ليحظين بجلية الموقف .

وحدث أن تعمد الماجور ويجلسند وضباطه رفع قامتهم إلى أعلى وهم يسيرون بين الجمهور ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك فيلقون بأبصارهم نحو الأزبكية حتى اصطدمت تلك بأعين رءوس أقرانهم محمولة على النبابيت وسط الأزبكية فارتاعت نفوسهم وامتلأت رعباً وأسى، إذ ذاك ارتدوا إلى نفوسهم منكسى الرءوس فى ألم وحسرة وقد غدت بعد ذلك خطواتهم أثقل فى المسير ، تضاعف تعبهم وتمكن فيهم الكلال والأسى .

ثم توجه الركب إلى الأزبكية فألقى بروس قتلى الإنجليز إلى ما كان بها من قبل ثم تابع المسير حتى بلغ القلعة فاستودع سجونها جموع الأسرى ، تحت الحراسة المشددة وهناك وبين أحضان المقطم حيث كانت تربض القلعة ، استسلم هؤلاء لنوم عميق ولكنه كان نوم الكليل المتعب لا القرير المبين ، فكم كان يؤرقهم شعور القلق بسوء المصير ، ويثير فيهم الوحشة ظلام السجون بجدرانها السميكة الجاثمة على سفح المقطم يحتويهم الليل فيطول ، ويدهم الصبح ظلام الليل فلا يطلع النهار عن أمل يبعث فى قلوبهم الطمأنينة . وقد ظلوا على ذلك مدة والحوادث تجرى حولهم سراعا لتربط مصيرهم بمصير الحملة الإنجليزية كلها .

بينما كانت القاهرة تموج بنشوة النصر تشاركها مصر كلها ، ورشيد تواجه محنة بعد بطولتهـــا وأسرى الإنجليز بين جدران سجون القلعة ينتظرون ما وراء القدر فى مصيرهم ، كان التاريخ يسجل فى ثبته أفول نجم الحملة الغادرة وفساد خططها الحربية والسياسية على السواء ، وضياع أطماع (مست) فى سحب نفوذ بلاده على مصر .

انتقل الفريقان بعد معركة الحماد إلى محاولة مجانبة كل أخطار الآخر. ومحاولة الاستعداد إلى المماليك فى ذلك، والمماليك بين الطرفين يقفون منهما موقف المنتظر لما تسفر عنه الأحداث فيعلقون ولاءهم لأقواهما قدرة على تحقيق مآربهم فى البلاد.

وكان محمد على إذ ذاك قد شعر بكثير من الاطمئنان بزوال خطر الحملة على البلاد، ولكنه لم يهمد فى السعى للاستعداد لمواجهة احتمالات الظروف. والعمل على القيام بواجباته الحربية كحاكم للبلاد من قبل الدولة العثمانية. إزاء هذه الحملة وتطهير البلاد منها.

وعلى غير علم بمجريات الأمور فى المجال الدولى، التى كانت تعمل إذ ذاك لتقرير مصير الحملة، أخذ محمد على يستعد. فمضى يطالب المماليك بالوفاء بالتزامات ما عقد بينهما من صلح داخلى.

وعلمت تركيا بموقف رشيد الباسل من الحملة الانجليزية فأرسلت، كما يقول الجبرتى، إلى محمد على توصيه بمتابعة الحرب ضد الانجليز.

وسرعان ما شرع محمد على على الفور فى الاستعداد للعدو بتعمير القلاع التى كان الفرنسيون قد أنشأوها خارج بولاق كما قال الجبرتى: (وعمل متاريس بناحية ميت عقبة وغيرها ووزع على الجيارة جيراً كثيراً ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد ليبنوا هناك سوراً على البلد وأبراجا وجمعـــوا البنائين والفعلة والنجارين وأنزلوهم فى المركب قهراً.

ومضى محمد على فى استعداداته ولكن شاءت الظروف أن تحدد العلاقة بين الطرفين مؤقتاً فيتصالح الطرفان على نهج يتبعانه.

ومنذ هزيمة بريطانيا الحربية فى رشيد كان الموقف الدولى يتجه بحوادثه وآثاره إلى تقرير الغاية التى فرضتها رشيد على بريطانيا ثم تنفيذها من الجلاء النازح عن البلاد.

وكانت بروسيا قد دخلت فى حلف التكتل بدل النمسا، وتولى المستر جورج كالنج وزارة خارجية بريطانيا، وضاعف نابليون نشاطه فى مجال الشرق الأوسط فعقد معاهدة تحالف مع إيران، وبعث إليها الجنرال جاردين وكثيراً من ضباطه. ولم تعد الجالية الأوروبية تخشى جانب الأهالى وكان أهم غرض يرمى إليه نابليون هو خلق المتاعب فى وجه أعدائه فى كل مكان.

كانت بريطانيا وهذه الحوادث تجرى إلى مستقرها قد احتلت الاسكندرية ، وقد شاءت وهى تفاوض الباب العالى الاحتفاظ بمصر ، لتكون بمثابة توازن تستغله إبان هـذه المفاوضات إلا أن الجـــلاء العاجل عن مصر كان أمراً مفروغاً منه .

فلم تكن حكومة بريطانيا قد وصلها بعد نبأ الأحداث التى وقعت فى رشيد وانتهت بتمزيق قوتها الحربية ، ولكن الذى كانت تخشاه هو ما علمته من التقارير الأولى لكل من فريزر ومست أن احتلال الأسكندرية وهو اجراء وقائى لا بد منه للحيلولة دون الغزو الفرنسى ، قد يصبح أكثر ثقلا على امكانيات بريطانيا الحربية لا تستطيع تحمله ، لذلك أصبح من واجب القائد العام ألا يتوقع بعد حادث الاسكندرية أية استجابة للامدادات . وعليه أن يعرف أن نية حكومة بريطانيا لا ترقى إلى درجة امتلاك مصر من جراء معاهدة صلح وبذلك عز على فريزر أن يتمادى فى وعوده لمساعدة المماليك على استعادة القاهرة .

ولما وصلت أخبار ووشوب وستيوارت فى رشيد إلى بريطانيا ورأت مدى الكارثة التى حاقت بجنودها ، أصدرت أوامرها السريعة إلى فريزر بإخلاء الاسكندرية ، أوالعدول عن دخولها إذا لم يكن قد دخلها فعلا ، وكانت الحكومة البريطانية اذ ذاك تفضل احتلال صقلية عن الاسكندرية .

وفى نفس الوقت بذل الباب العالى جهده للحيلولة دون طغيان نفوذ فرنسا عليه فرفض قبول فضيلة فرنسية وورد على عرض فرنسا لإبرام معاهدة تحالف دفاعى هجومى بسؤاله عما إذا كانت فرنسا تنوى سحب قوات احتلال بولندا .

وقد دفعت الحوادث الداخلية وما انتهى اليه الموقف الدولى فريزر لأن تختمر فى ذهنه فكرة الجلاء قبل هذه الحوادث رغم التعليمات التى أرسلت بتأجيل الجلاء لحين صدور أوامر أخرى ، فانه جد فى اعداد الخطة لإجلاء الاسكندرية حتى اخلاها فعلا قبل هذه الحوادث بقليل .

وبما هو إلا وقت قصير حتى أبرم صلح بين الطرفين المصرى والبريطانى فى دمنهور فى سبتمبر ١٨٠٧ نص على جلاء جنود بريطانيا عن الأسكندرية .

وبعد ... لقد استراحت مصر من الغزو البريطاني الثاني بفضل وحدتها الوطنية في طليعة القرن التاسع عشر وكشفت بهذه الانتصارات عن شروق قوة روحية تحمل في طياتها معالم بعث جديد ، وخسرت بريطانيا بحملة فريزر بجانب خسارتها الحربية الكثير من سمعتها الحربية والسياسية .

وانتقلت مصر إلى حكم محمد علي ، فانتقلت إلى لون جديد من التحكم التركي وصمدت في تماسك حتى واجهته في ثورة عرابي في نهاية القرن التاسع عشر .

الفصل السادس

الوطنية المصرية

وثورة عرابي في مقاومة الإنجليز

كانت هزيمة إنجلترا في رشيد نصراً للوعي الوطني الطالع وإعلاء لروح مصر المكافحة منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر . وهزيمة المخطط البريطانية التي سايرت مجرى هذا التطور الروحي في نموه حتى تجلى في صورة أوضح في موقف رشيد ومن ورائها شعب متساند مع جيشه في صد العدوان البريطاني الذي تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧ وإذ تبدو هذه الطليعة إشراقاً شعبياً وقوة روحية تمثل بذور وعي قومي ينمو في إطار الفكرة الإسلامية في مشرق مصر الحديثة، فقد كانت طبيعة تكوينها الفكري المبنية على بساطة تفكير العصر السياسي في تخير حاكم البلاد في حدود الولاء للخلافة الإسلامية عاملا فرض عليها فرضاً : عامل حدد فيها من تخير حاكمها من غير بنيها ليكون هذا الحاكم في شخص محمد علي ذي النزعة الطبقية الأتوقراطية مهد روح المقاومة الذي انبثق في مصر منذ اللقاء الأول بين الشرق والغرب على يد الحملة الفرنسية وتجلى في مقاومة المصريين الحملة الفرنسية وظلم الأتراك والمماليك وحملة فريزر — مهد ذلك روح السبيل لبزوغ فجر النضال القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وإذا تجلى ذلك الروح من خلال الفكرة الإسلامية فقد كان لتجدد المجتمع المصري منذ هذا اللقاء وامتداده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لزيادة الاتصال بالغرب من عهد إسماعيل أثره الكبير في تطوير ذلك الروح بإيجاد نواة الطبقة المتوسطة من مجرد معنى رد الفعل إلى حقيقة النضال القومي الذي أشرق بانطلاق ثورة عرابي ، ثورة استهدفت القضاء على العلة الكبرى وهي التحكم الداخلي والخارجي وعلاج النكسة .

ولقد شاءت الظروف أن تمتد يد الضغط إلى الجيش ، هذه الهيئة المنظمة التي تعتز بكرامتها وبيدها سلاحها والتي يتميز وجودها بين الأمة بالاتحاد والشجاعة لتعالج قضيتها بأسلوبها وتبلغ بذلك أهدافها .

وشاءت الأقدار أن تحرك الجيش وقد مكنه من ظهوره شعوره بزوال هيبة الخديوى القديمة منذ أن تولى توفيق خديوية مصر . ولقد بدأ الجيش أولا بالدفاع عن مصالحه الذاتية وانتهى أخيراً بالدفاع عن المصالح المصرية ورأيناه يعمل على ذلك من قبل ، وكذلك بدأ الجيش فى مايو سنة ١٨٨٠ ، إذ قام بعض ضباطه وعلى رأسهم أحمد عرابى — ذلك الرجل الذى كره الطغيان وحاول محاربته فى شخص الحكم المطلق الذى يمثله الخديوى — يقدمون لناظر الحربية يومئذ شكوى احتجوا فيها على حبس مرتباتهم وتفضيل الأتراك الشراكسة فى حركة الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى .

كان من الممكن تلافى الثورة بعد ذلك إذا ما قررت هنا أصول العدالة وقوبلت ثورة النفوس فى منتصف الطريق ، ولكن هكذا شاءت الظروف أن يعالج الموقف بأسلوب كان منه انفجار يرمز إلى أصوله البعيدة فى العقل الجمعى للمصريين بعد أن تهيأت له الظروف وجاء موعده ليكون أداة للتطور النيابى فى عهد توفيق .

بداية الخطوات :

وقد بدأت ثورة الجيش دفاعاً عن مصالحه الخاصة سنة ١٨٧٩ ، ثم انتهى بها بالدفاع عن المصالح المصرية ، هكذا رأينا تباشير ذلك من قبل ، وكذلك بدأ الجيش سنة ١٨٨٠ إذ قام بعض ضباطه وعلى رأسهم أحمد عرابى يقدمون لناظر الحربية يومئذ شكوى احتجوا فيها على حبس المرتبات وتفضيل الأتراك والشراكسة فى حركة الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى وكذلك تسخير الجنود ، إلا أن الجيش يبدى هذه المرة لوناً جديداً فى دفاعه عن مصالحه إذ أخذت مصالح الجمهور تظهر منفصلة عن مصالح الأفراد عندما أشاروا فى شكواهم إلى الغبن والمحسوبية التى قضت بها حركة الترقيات فلما لم يبت فيها

قدموا عريضة أخرى لرياض طلبوا فيها عزل وزير الحربية فلما عد ذلك منهم تمرداً كانت معالجته لهذا الموضوع بالضغط إسزافاً فى الاستهانة بهم عندما تقرر يومئذ بمجلس الوزراء القبض عليهم فاستدراجهم إلى قصر النيل بحجة النظر فى الإعداد لزفاف إحدى الأميرات فلما توجهوا قبض عليهم ولم تنقذهم إلا كتيبة على بك حلمى التى أعدت لأن تدرأ عنهم مثل هذه الاحتمالات التى توقعوها علماً من حليفهم السرى فى مجلس الوزراء — محمود سامى — قبل حدوثها ولما أنقذوا أصدروا بيانهم للجمهور يفسرون الحادث مبدين طلبهم عزل عثمان رفقى فعزل ونصب مكانه محمود سامى البارودى جزاء إخلاصه لهم وبهذا بدأ الجيش دوره سبباً لإقرار العدالة .

وكان لهذا الحادث الذى انتهى بانتصار عرابى وقع شهى فى الآذان المرهفة فقد اهتدى الشعب الذى عانى — من شتى المظالم — إلى القوة التى كانت تعوزه فى محنته وكان ذلك عاملا على بعث الروح المعارضة الكامنة إلى الظهور .

ورغم هذا كله لم تستطع الحكومة أن تخفى نياتها نحو الجيش وتطمئن إليه بل لم يستطع الجيش أن يركن إلى الاطمئنان إليها لتوقعه الشر على يديها وفقدانه الثقة فيها .

تحول الحكومة إلى الجانب المتطرف :

ولم تكن محاولة الحكومة فى معالجتها أزمـــة الثقة فى الجيش بمختلف الاسترضاءات لتخفى طبيعتها بل كانت تلك أداة داعية لغموض موقفها تحينا للفرصة وقد بلغ القلق مبلغه بها حتى تحولت فجأة وبأتفه الأسباب إلى العنف فى مواجهة الثورة محافظة على كيانها فقربت من موعد التصادم المقدور .

حدث هذا عقب حادثة تافهة كانت ذات دلالة خاصة انتهت بها إلى هذه النتيجة الهامة ودللت بها على بالغ كرهها للحركة العرابية .

ذلك أن عربة أحد تجار الإسكندرية عندما كان الخديوى يقضى صيفه فيها وكان يقودها سائق أوروبى صدمت جندياً من فرقة المدفعية فى ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ بالقرب من سراى رأس التين ، فلما أصيب ذلك نقله رفاقه إلى هذه السراى

التي كان الخديوي إذ ذاك بها ملتمسين منه معاقبة الجاني فتأثر(١) الخديوي من هذا الحادث ذلك الذي دل على مبلغ نزول هيبة الخديوي بين الجيش ، وقد أمر بطردهم فانصرفوا .

لاشك أن هذا الحادث وإن دل على سوء نظام الجنود فهو تافه وقد كان من الممكن أن يخطر عنهم رئاسة الجيش لعقـــابهم بما يتراءى والنظم العسكرية في الحالات العادية ، غير أنه كان ذا معنى كبير والخديوي ينظر إذ ذاك للجيش نظرة قلق فأصدر أمره بتشكيل مجلس عسكري لمحاكمتهم فحوكموا وصدرت ضدهم أحكام بالغة القسوة كان أقلها الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وإذا كانت حقيقة هذا الحكم مستمدة من طبيعة نظرة الخديوي للجيش فلم تكن جرأة الجنود إلا مستلهمة من جرأة زعمائهم على سيد البلاد وقتئذ ، وقد كان نذيراً لتغيير الموقف كمحاولة لاسترداد هيبة الحكومة . حقاً لم يرض ذلك عبد العال حلمي فكتب يحتج لوزير الحربية فلم يسع الأخير إلا رفع الأمر للخديوي ، إلا أن الخديوي يبدي استياءه منه ، بل يعده تطاولا عليه فأغضب وزيره حتى استقال فعين الخديو بدله صهره داوديكن .

وقد سمت الحكومة بعد هذا لفرض سيادتها ورهبتها من جديد في ظل هذا التغيير فزادت القلق والتـــذمر تمكناً من قلوب العرابيين وزادتهم سعياً لإقرار الطمأنينة .

فلما بدأ عرابي يعمل لإسقاط نظام الحكم القائم لقي تأييداً من جميع الطبقات وفي مقدمتهم العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان فوزع عليهم منشوراً (٢) يحضهم على تأييده في القضاء على منابت الاستبداد وإقامة الحرية السياسية للمصريين وقد وفدت على العرابيين وفود من جميع أنحاء القطر وسلمت لهم عرائض النيابة عنهم معلنة تضامنها معهم واطمأن عرابي إلى أن الأمة تناصره بعد أن أصبح الجيش في قبضة يده فلما شاءت إرادة الحكومة أن تشتت شمل العرابيين بنقل آلاي عرابي وعبد العال حلمي خارج القاهرة كانت

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ص ١١٨

(٢) ص ٩٠ ج ٤ مصر للمصريين سليم النقاش .

قد حددت ساعة العمل وتطلب من نهايتها الحكومة مستبدة بقيام مظاهرة ٩ سبتمبر .

صمم عرابى على ألا يطيع الأوامر التى صدرت إليه بإبعاده هو وزميله بالإرسال[1] فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فى اليوم التالى لصدور هذه الأوامر إلى وزير الحربية يخبره أنه هو وجنوده سيحضرون أمام قصر عابدين بعد أن اتفقت كلمة الزعماء الضباط على إقامة هذه المظاهرة العسكرية فى ذلك اليوم لتقديم طلبات الأمة إلى الخديوى وأهمها إسقاط الوزارة وتأليف المجلس النيابى وزيادة عدد الجيش بجانب مطالب أخرى وهكذا انقلب الرجل من زعيم عسكرى إلى زعيم سياسى للبلاد . واحتشد الجيش فى الموعد المضروب فى ميدان عابدين وهناك أملى عرابى على الخديوى مطالبه وخضع الخديوى له خضوعا كاد أن يكون تاماً فأسقط رياضاً واستدعى شريف لتأليف الوزارة وأجلت المطالب الأخرى بحجة بحثها ومن ثم انصرف الجند لثكناتهم بعد أن ضمن الجيش قلب نظام الحكم المطلق إلى نظام الحكم النيابى ، وقد عهد بناء على طلب عرابى إلى شريف باشا أن يؤلف الوزارة الدستورية ويدعو مجلس شورى النواب للانعقاد فى ٢٦ ديسمبر ، وبهذا طبعت الحركة بالطابع السياسى واستهلت فجرها المشرق فى القضاء على التحكم التركى القديم .

ولم يقبل شريف الوزارة فى بادىء الأمر بل ظل متردداً مخافة تدخل رجال الجيش الذى بدأت بواكيره فى محاولة عرابى إدخال بعض أعوانه ، وقد ترجم شريف عن طبيعته التى تتحاشى الطفرة وتتجه إلى الاعتدال فلما أحس بالأمن من ضباط الجيش وتسلم من أعيان البلاد ضماناً بإمضاءاتهم ألفها[2] فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقد رفع إلى الخديوى كتاباً ضمنه الأسباب التى حدت به إلى قبوله رئاسة الوزارة[3] وبرنامج أعماله .

---

(١) ص ١٢ مذكرات عرابى ـ كشف الستار ص ٢٢٩

(٢) الوقائع ١٧ ـ سبتمبر سنة ١٨٨١

(٣) المرجع السابق .

وفى الوقت الذى كاد النظام الجديد يستقر فيه بإعلان اللائحة الأساسية حتى لم يبق على إعلانها وصدور المرسوم بها سوى إجراءات شكلية من تبادل الرأى بين المجلس والحكومة على التعديلات الطفيفة التى أدلت بهـا لجنة المجلس على المشروع توجه مالت قنصل انجلترا وقنصل فرنسا فى مصر إلى عابدين فى ٨ يناير سنة ١٨٨٢ وقدما للخديو مذكرة مشتركة من دولتيهما مؤرخة فى ٧ يناير ومكتوبة بصفة رسالة برقية من وزارتى خارجيتهما إليهما فى مصر يعلنان فيها وقوفهما بجانب الخديو وتأييد سلطته وحقوقه فى حدود الفرمانات الصادرة . ولقد كان معنى ذلك هو تحريض الخديوى على الوقوف ضد الاتجاهات الجارية وقد قوبلت المذكرة بين خاصة الشعب ورجال الجيش بالسخط الشامل وكتب إدوارد ديسى فى ٩ يناير يقول أن المذكرة أبعدت عنها كل ثقة . لقد كان كل شىء يسير سيراً حسناً وكان ينظر إلى إنجلترا كما ينظر إلى دولة جارة مخلصة حامية لمصر أما الآن فالمصريون يعتقدون أن إنجلترا ألقت بنفسها فى أحضان فرنسا وأن فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا .

وجد الخديوى نفسه أمام دعوة صريحة للعبث بدستور البلاد ولكنه لم يتعجل الأمور ، لذلك كان من نتيجة هذه المذكرة إنحياز العناصر المعتدلة من الوطنيين إلى جانب المتطرفين فلقى بعد ذلك قانون شريف الأساسى الذى عرضه على المجلس معارضة فيما يتعلق بالميزانية بل تحول هذا المجلس وأصبح أقل مسالمة للحكومة .

وقابل الضباط المذكرة بالسخط العام فتوجه الوزراء وعلى رأسهم شريف إلى الخديوى وتداولوا فى الأمر فاستقر رأيهم على إبلاغ المذكرة إلى تركيا مـع الإعراب عن عدم قبولها وتوجه شريف إلى معتمدى فرنسا وإنجلـترا وأنهى إليهما اعتراضه(١) على المذكرة ونفى الخلاف حول حق المجلس فى مناقشة الميزانية وبالرغم من أن المشروع كان خلواً من حقه فى النظر فى جزية البـاب العالى أو الأموال الخـاصة بشئون الدين العام أو قانون التصفية أو الاتفـاقات الدولية ولـكن كان من حقه النظر فى مرتبـات الموظفين الاجانب والإدارة

---

(١) رسالة فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٢ .

الأوروبية عند نظره الميزانية وقد اختلفت نظرة الدولتين فى فهمهما لهذا الحق حول الميزانية فكانت بريطانيا ترى عدم منح المجلس منحاً باتاً من نظرها ولكنها كانت تتجه إلى أن يراعى عند نظرها مصالح بريطانيا المالية. وقد كانت منصبة حول الإدارة الأوروبية بهيئة موظفيها بهذا الحق(1) للمجلس.

محاولة فرنسا وإنجلترا للعمل بالإصلاح النيابى :

أثارت مظاهرة 9 سبتمبر دبلوماسية أوروبا عامة وإنجلترا وفرنسا خاصة ولم يتبع عرابى مشورة الذى أصدرته فى ذلك لعدم التعصب يشرح فيه لممثلى الدول الكبرى الأمور التى دفعت الجيش إلى عمله وتعهده بحفظ ما لجميع رعايا الدول الموالية لمصر من المصالح عندما تنجلى بعد تأليف وزارة شريف الاتجاه نحو دعم مصالح المصريين بجانب هذه الضمانات وقد أدى إلى الاصطدام بالاستبداد الداخلى وانتصار الثورة العرابية عليه إلى الاصطدام بالاستبداد الخارجى كما تمثله أوروبا .

وفى الحقيقة أن المساس بمصالح الأوروبيين فى البلاد كما تمثلها المراقبة الثنائية كان لا بد منه ومصر تسعى إلى الاستقلال بالإدارة الداخلية التى بسطت نفوذها عليها وإلا فقدت هذه الثورة معناها الأصيل .

وقد حاول الخديوى رئيس وزرائه وزعماء المجلس من الأعيان الاعتدال حتى يستطاع تفادى ذلك التصادم أو التخفيف منه غير أن ذلك لم يكن دأب جميع النواب فالحزبان اللذان قاما بالحركة النيابية كانا يمثلان طبقتين مختلفتين فالأعيان من الطبقة الموسرة وكثير منهم من الأتراك والشراكسة وعلى رأسهم شريف ثم الجيش وهو من الفلاحين ولم يكن دأب الطبقة الأولى أن تدافع عن طبقة الفلاحين الكادحة فلا تتبع إلا الاعتدال الذى يصون حقوقها وأن تكون ظلاً للخديوى وهو ما لم يكن متوقعاً من طبقة الفلاحين . ولقد كان لفرنسا (2) أثرها الكبير فى دفع الأمور إلى نهايتها .

(1) رولشتين فى المسألة المصرية ص ١٦١ من الترجمة .

(2) شكل جمبتا وزارة جديدة فى فرنسا وكانت سياسته القضاء على الحركة فى مصر قبل أن تمتد إلى شمال أفريقيا وقد رأى من الحكمة (ص ١٩١ رولشتين) فى ١٤ ديسمبر الاتحاد مع إنجلترا لتأييد الخديوى فى الوقت الذى كان فيه عرابى يتشاور على ميزانية الجيش .

أما فرنسا فكانت نظرتها متطرفة نحو الميزانية إذ كانت ترى أن إعطاء المجلس هذا الحق معناه القضاء على جميع النظم التي قررها قانون التصفية والمراقبة الفرنسية الإنجليزية .

ولقد طلب قنصلا الدولتين من شريف بإيعاز من الرقيبين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية وقدما إليه في ٦ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى أثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر في اللائحة الأساسية لأن « ذلك الحق » ولو كان مقصوراً على المصالح التي لم يخصص إيراداتها للدين العام فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين (١) ولاعتقادها بميول المجلس العدائية نحو العنصر الأوروبي في الحكومة ، وقد كان ذلك الاتجاه ممثلا لمعتمدي الدولتين والرقيبين وحكومتيهما وكان الموقف دقيقاً وعلى جانب كبير من الخطورة وقد رأى شريف أن يلتقي به في منتصف الطريق فيرجيء المجلس البت في المادة المتعلقة بالميزانية ولكن عبثاً حاول . كما فشل المستر بلنت فقد كان المجلس يتجه إلى استعمال حقه كاملا وعرض شريف فكرة التأجيل عليه يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨٢ وذلك بأن أعاد إليه في ذلك اليوم مشروع اللائحة الأساسية بصحبة كتاب إلى رئيس المجلس يتضمن رأي القنصلين بحرمان المجلس حقه في تقرير الميزانية على أن تمضي المفاوضات فيها وأن يتم الاتفاق بين الحكومة والنواب على باقي نصوص اللائحة وطلب(٢) من المجلس إقرار اللائحة كما عدلها مجلس الوزراء وأن تترك النصوص المتعلقة بالميزانية إلى حين ، وأن يبدي النواب رأيهم في أمر الميزانية لتجعله أساساً للمفاوضات بين الدولتين .

الإعراض عن شريف :

أرتضى العرابيون وخاصة البلاد من الأعيان والملاك بشريف ما دام عاملا على إقرار النظام الذي يقضي على ذلك الاستبداد الداخلي الممثل في توفيق وبطانته والاستبداد الخارجي الذي يؤازره فيفسد على الجيش والشعب حياته

---

(١) من معتمد فرنسا إلى .

(٢) الوقائع في ١٤ فبراير سنة ١٨٨١ .

فلما تقدم النفوذ الأجنبي ليثبت بمقومات الاتجاه الجديد كان حريا أن يؤلب عليهم الخديو أيضا عندما نجد في مشكلة عملا يستزيد به هيبته فيستعيدها كحاكم مستبد في البلاد . ولذا كان قد تولد عندهم الاستعداد للإعراض عن شريف بسبب مشكلة الميزانية .

ولما كان ذلك يفسح المجال لظهور هذا الرجل بل وعرابي لمسنا نقطة التجاوب الطبيعي بين الطرفين فلما لمس البارودي الموقف دفعهم بحكم أهدافه إلى التطرف ليفسح المجال أمامه للظهور فالتقى الطرفان في نقطة ازداد الموقف بعدها حدة .

اتجه العرابيون إذن والنواب إلى الإعراض عن شريف وقد استطاعت الأحداث التالية أن تزيد النوافع تعبيرا ووضوحا .

فلما ظهر كتاب شريف في المجلس ظهر على جمهور النواب روح المعارضة ثم والوا اجتماعاتهم في منزل رئيسهم سلطان باشا وانتهت مناقشاتهم إلى قرار رفض طلب التأجيل وإسقاط الوزارة وقد اقترب الطرفان (١) من أزمة حادة .

وفي اليوم التالي لورود الخطاب للمجلس وضعت لجنة الدستور الجديد تقريرها عن كتاب شريف وعرضته على مجلس شورى النواب بجلسة الأربعاء سنة ١٨٨٢ وقد رأت ضرورة عرض المسألة على هيئة المجلس مع التعديلات التي قررها مجلس الوزراء ليقرر (٢) فيها مايراه .

واجتمع المجلس في أول فبراير وعرض سلطان على المجلس تقرير لجنة الدستور وعرضت اللائحة الأساسية المرسلة من اللجنة إلى مجلس الوزراء والتغيير الذي أدخله المجلس عليها ثم قرر المجلس اعتبار اللائحة قانونا مستعجلا واستعجال اللجنة في نظر التعديلات التي أدخلتها الحكومة على مشروع اللائحة وإعداد الجواب على كتاب رئيس الوزراء .

---

(١) رسالة سنكس الى دى فرسينيه في ٣١ يناير .

(٢) الوقائع في ١٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

واجتمعت اللجنة فأقرت بعض تعديلات مجلس الوزراء على مشروع اللائحة ووضعت نصاً جديداً للمواد المتعلقة بالميزانية وهو : « أن تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويعين من أعضائه لجنة مساوية لمجلس النظار عدداً ورأياً لتقريرها جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فإن وقع بينهم خلاف وكان العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب ، فإما أن يؤيدوا رأى النظار وإما أن يؤيدوا رأى لجنة النواب فإن كان الأول وجب تنفيذ الميزانية وإن كان الثانى ولم يكن حصول الوفاق كان الحكم فى ذلك حكم بند الخلاف وهو أنه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على أمر ما أن ينفض مجلس النواب وإما أن يستعفى النظار وفى هذه الحال أى إذا أيد النواب رأى اللجنة وخالفوا رأى النظار تنفذ الميزانية فى المهم الضرورى منها لإدارة المصالح وعدم تأخير الأشغال تنفيذاً مؤقتاً ويبقى أمر الميزانية إلى ما بعد تسوية المسألة بأى طريق ووسيلة .

ووضعت اللجنة تقريرها وهو التمسك بإعادة الميزانية كما وضعتها لجنة الدستور ورفض التأجيل بعد أن عرضت بموقف شريف ورأت الرد(١) عليه شفوياً ولما اجتمع مجلس شورى النواب يوم الخميس فى الثانى من فبراير بدت مناقشات النواب تشف عما وراءها من الأخذ بنصيب كامل لحق المجلس خروجاً عن اتجاه شريف .

اقترح محمد بك الشواربى تشكيل لجنة تتجه للخديوى طالبة إقرار ما استقر عليه رأى النواب فيرى إبراهيم أفندى الوكيل رأياً أكثر اعتدالا وهو السير أولا إلى شريف ليرفع إليه الأمر السوء السكتاب فى المجلس ويطلب منه التصديق على اللائحة فإن أبى فليكن التوجه للخديو فيتجه أحمد أفندى محمود اتجاهاً أشد تحدياً فيرى ضرورة نشر تقرير اللجنة الذى تلى على النواب « فيعلم لدى الرأى العمومى » .

---

(١) الوقائع فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

وانتخب المجلس لجنة(1) لمقابلة الخديوى مكونة من ١٥ عضوا من زعماء المجلس وقد توجه هؤلاء فى نفس اليوم لشريف فأبى التصديق على اللائحة وبها المادة الخاصة بالميزانية إلا بعد مفاوضة انجلترا وفرنسا . عندذلك توجه الخديوى فى لهفة تعلوها الجرأة يعلن إليه توقف شريف عن التصديق وطلبوا منه سرعة انجاز هذه المسألة .

لم يكن للنواب فى ظل نظام المجلس الأساسى والداخلى الحق فى مثل هذا السلوك والمجلس لم يتخلص بعد من نظامه القديم ولكنه كان لونا من التجاوز وحمل أنصار الرجعية على الرضوخ لأهدافه .

أما الخديوى — ذلك المغلوب على أمره — فقد سلك سلوكا ذا مرمى بعيد إذ رضى بتغيير وزارة شريف ولكنه ترك للنواب اختيار غيرها متنازلا عن حقه فى ذلك ، ولم يكن اتجاهه غير دستورى فقط بل لم يكن مألوفا أيضا بحكم التقاليد المرعية ، كان اتجاها يدل على تسليم ماكر للظروف ليترك لنفسه حرية العمل عند الاقتضاء عندما يلقى مسئولية ما يحتمل أن يحدث من أحداث سياسية على عاتق المجلس، وقد استغل المجلس ومن ورائه العرابيون الموقف ومظهر الخديوى كالمغلوب على أمره فى بساطة ورشحوا الرجل الذى وضع يده فى أيديهم وآزرهم وحاول حماية ثورتهم وهو ، محمود سامى البارودى ولم يكن غيره ليصلح ليحمل مطالب العرابيين من السياسيين .

وزارة البارودى :

واجتمع البارودى بالنواب الخمسة عشر فى داره وهناك استقر الرأى على أعضاء الوزارة ثم صدر المرسوم (2) إليه بتكليفه بتشكيل الوزارة وما لبث أن دفع

(1) حسن باشا الشريعى . سليمان باشا أباظة . محمد بك الصيرفى . أحمد بك على . أحمد بك الشريف . محمد بك الشواربى . أحمد أفندى محمود . أحمد أفندى عبد الغفار . أحمد بك السيوفى . إبراهيم أفندى الوكيل . أمين بك الشمسى . على بك شعير . عبد الشهيد أفندى بطرس . محمود سليمان . مهنى أفندى يوسف .
(2) الوقائع فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

الخديوى كتابة بقبولها[1]. وأسماء أعضائها متضمنا برنامجه فى الإصلاح الداخلى والعمل على صدور اللائحة كاملة دون المساس بالمبادىء النيابية كحقوق الدين والمعاهدات وصدور المرسوم بتشكيلها فكان البارودى رئيسا ووزيرا للداخلية وأحمد عرابى وزيرا للحربية والبحرية . وعلى صادق باشا للمالية ومصطفى فهمى للخارجية والحقانية وعبدالله باشا فكرى للمعارف وحسن باشا الشريعى للأوقاف ومحمود بك فهمى للأشغال وقد استطاع التشكيل الجديد أن يحقق أطماع بعض الشخصيات وفى ظلها شمل الجيش حركة ترقيات شاملة وسعت كل الضباط الذين ناصروه وأيدوه .

صدور دستور الثورة :

وكان أبرز ماعنيت به وزارة البارود هو إعلان الدستور فاجتمع مجلس الوزراء يوم ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ برئاسة الخديوى للنظر فى مشروعه وبعد أن نقحه المجلس بعض التنقيح أقره فقام به وزير المعارف والأوقاف إلى المجلس لعرضه عليه وقد تقرر فيه مبدأ سيادة الأمة وحق المجلس فى نظر الميزانية .

كان الخديوى فى فبراير قد أصدر مرسوماً يحدد نيابة أعضاء المجلس بخمس سنوات ابتداء من يوم انعقاده كما أصدر بعد هذا أمرين أحدهما تعيين سلطان باشا رئيسا للمجلس فى هذه المدة والآخر بتحديد إجتماع المجلس فى هذه السنة على أن يكون يوم ٢٦ مارس ١٨٨٢ وبهذا تطور مجلس شورى النواب فاتسم بسمات النيابية من ناحية الحقوق وليس من ناحية الشكل فقد ظل كما كان من قبل طبقياً لا يمثل غير العمد والمشايخ والأعيان فى احتفاظه بالهيئة القديمة وهو

(١) ما أن تولى البارودى الوزارة حتى أرسل الباب العالى إلى الخديو فى ٥ فبراير عن طريق ثابت باشا مندوبه فى القسطنطينية نص القرار الذى أصدرته تركيا فى هذا اليوم عن النزاع الذى قام بين مجلس النواب وشريف حول الميزانية متضمنا النصح بإبعاد الوفاق منعا للتدخل الأجنبى . أنظر ملف ثابت باشا محفظة رقم ١٦٤ — خطاب ثابت إلى الخديو دار المحفوظات التاريخية — أنظر المرجع فى الملحق هذا وقد أرسل القرار ردا على سابق طلب الخديو باستعمال القوة لاخضاع مجلس النواب .

من هذه الناحية لم يكن يحقق للأمة تمثيلا كاملا بالمعنى الذي تعرفه الأمة ولكنه كان خطوة جريئة إلى الأمام.

وابتهج الناس بصدور الدستور واجتمع الأعضاء بين نشوة النصر يتناقشون ولكن فيم دارت مناقشاتهم ؟ وبأى روح؟ روح النصر وفى حدود الأهداف الحقيقية التى سعى الملاك من أجلها لتأييد الثورة لإتجاهها الآخر لإيجاد نظام حكم تعاونى، وعاشت مصر فترة قصيرة من الحياة النيابية فى عهد الثورة لأول مرة فى تاريخها الحديث تحكم نفسها بنفسها وتمارس سلطتها الشرعية بنوابها على أساس كونها مصدر السلطات وتستقل بشئونها الداخلية من دون العناصر الدخيلة. فهل ظل هذا الفجر مشرقاً لامعاً فى أفق مصر تعالج على ضوئه شئونها وتبنى على هديه قواعد طمأنينتها فى الخاص والعام ؟

كان التطور النيابى لونا منافياً لاتجاهات أوربا فتألبت عليه بوحى من أهدافها الاستعمارية وكما أنها أطاحت بعرش اسماعيل على أساس أنه فى زعمها — الموعز بالنضال القومى فى نهاية حكمه — كان لا بد لها من أن تكتسح أمامها [عرابى] بعد أن آثر مصلحة بلاده عليها على أساس أنه المقيم فى رأيها لهذا النظام !!!

فى هذا الوقت كانت بريطانيا تعقد النيه على أن تفصل فى الأمر بحد السيف وإنما كانت تنتظر حجه تتذرع بها فى هجومها على مصر وما كاد التفكير يأخذ طريقه بحل المسألة عن طريق تركيا حتى استقر على حلها بعقد مؤتمر بالآستانة بدعوة من رئيس وزراء فرنسا دى فريسنيه فلبت الدعوة ألمانيا وروسيا وإيطاليا والنمسا وانجلترا وقبل أن يقرر المؤتمر قراره بدعوة علية بالاسكندرية بحجة قيام عرابى بترميم الطوابى وضربت الإسكندرية بالمدافع ليقف المؤتمر أمام الأمر الواقع وتنفرد هى بوحدة النفوذ فى وادى النيل.

قامت الحرب سجالا بين مصر وبريطانيا وكان الشعب يقف بجانب جيشه يمده أزره بالتطوع بشتى المعونات المادية ولما احتل الإنجليز الإسكندرية بعد أن أخلاها الجيش المصرى وانسحب إلى كفر الدوار حيث استقر هناك مؤقتاً

حصيناً له عينه مهندسوا الجيش والثورة ووثقين أن كل حزبياً والخطة يجب تنظيم قواته وتحصين مواقعها بمساعدة الآلاف من أهالى المديريات المجاورة.

وكان موقف الشعب وعنايته بقواته فى هذه المرحلة من مراحل الثورة موقفاً ينم عن التجاوب بدافع النزعة الوطنية ولم يكن ثمة من يشك فى أن جهادنا وطنى بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز .

وقد تبرع الأحرار والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية بالنقود اللازمة للجيش وأظهر المديرون والموظفون على إختلاف مراتبهم شعورهم نحوه وزاد التطوع للجيش وسائر الأشغال العسكرية .

وكان الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم وباختيارهم متشوقين لمقاتلة الإنجليز وكان سكان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى ...

وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى إمداد الجيش بكل إحتياجاته وبدا على الأهالى شديد قلقهم للدفاع عن وطنهم .

ولما قامت الحرب لم يكن فى خزانة الحكومة شىء من المال فقد نقل الأجانب أموال الخزانة وصندوق الدين إلى الأسطول وكان من الأهالى من تبرع بنصف ما يملكه من الغلال والمواشى ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن العرض لعدم قدرته على الدفاع بنفسه . وكانت تلك وقفة الشعب وعرابى يوالى جهاده للحيلولة دون نفاذ القوات المتدية إلى القاهرة من منطقة كفر الدوار ، فلما نجح فى ذلك إستدار العدو إلى الشرق وإستطاع عرابى نقل قواته إلى الميدان الشرقى حيث كان له دوره الوطنى فى ذلك لولا الخيانة التى التى لم يكن يتوقعها من بعض ضباطه .

فمنذ أن استقر الجيش وقواده بالتل الكبير أخذت البلاد ترسل إليه آلات الحرب وأخذ الجنود والأهالى يتنافسون فى إنشاء الحصون وإقامة المتاريس. وقد تبعه الكثيرون من أهل الحرب حتى أصبح الميدان الشرقى غاصاً بالمتطوعين من زعامة الشعب وجاء إلى عرابى عدد هائل من المشايخ والعمد ..

محاولات المساس بالوحدة الوطنية :

من الوسائل التى حرص الإحتلال البريطانى فى مصر على إتباعها كى يستقر حكمه فى البلاد إلى أكبر فترة ممكنة ـ سياسة التلون فى المعاملة بحيث لا يبدو سافرا فلا يستخدم السيف فى موضع اللين . فكان يرضى ولا يغضب ويفرق ولا يجمع لتبقى يده هى العليا ، وهو بهذا إذ يحاول المساس بالإنسجام الوطنى ، يبقى على مصر فى حالة من التفكك والتبعية .

وكان من وسائله فى ذلك إثارة موجة الأقليات ، وقد تعرضت مصر لهذه المحاولات بصور شتى .

وتتجلى فلسفة الاحتلال هذه فى كتاب اللورد كرومر (مصر الحديثة) واضحة ، فقد عبر عن رغبة عميل الاحتلال إلى خدمة بلده على حساب مصر ونظرته نحو الشعب المصرى ، فقد حلل مصر على أنها ليست شعبا متجانسا ولكنها بلد خليط من الأجناس والأديان : مسلمون ومسيحيون وإفريقيون وآسيويون وأوربيون ، نظرة إستعمارية تقليدية تجافى الحقيقة ولكنها تبرر الوصاية الأجنبية بحجة عجز هذه العناصر المختلفة عن حل أمورها وإقامة وطنها وضرورة بقاء الأجنبى « الأرقى » أفقا ليكون بذلك سلطة وميزانا وحكما .

ورغم أن الحكم البريطانى قد تحطمت محاولاته على صخرة الوحدة الوطنية الراسخة فى مصر ، فلم يتوقف الإنجليز طيلة مدة إحتلالهم عن هذه المحاولات ، وقد واتتهم أكبر فرصة لذلك يوم إغتيال الوردانى بطرس باشا غالى سنة ١٩٠٩ . فقد حاولوا أن يجعلوها فتنة دينية فى البلاد رغم أن القضية كانت سياسية تماما كما كانت تنطق بطبيعتها وكما جاءت فى مناقشات مجلس العموم البريطانى إذ ذاك . وكان بطرس باشا غالى يحاول إقناع الجمعية التشريعية بإصدار قانون بمد إمتياز شركة قناة السويس . وكان يشاركه فى الوزارة بالطبع وزراء كلهم مسلمون .

وقد اغتيل قبله وبعده سياسيون مسلمون على أيدى مسلمين ، ولكن المحاولة الإنجليزية وصلت قمتها بعد الحادث القبطى فى أسيوط سنة ١٩١١ ، ثم بعقد المؤتمر المصرى ردا عليه فى مصر الجديدة .

ولم تكن يد السير ألدون جورست المعتمد البريطاني بعيدة عن الدعوة إليه، ومما يؤكد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة لعقد هذا المؤتمر القبطي، وهي التي فكرت في إسناد رئاسته إلى مصطفى رياض باشا عميل الاحتلال، وأوعزت إليه برئاسته رغم شيخوخته .

ولولا أن الاحتلال كان مغتبطا بهذه الحركة أو راضيا عنها، لما فكرت الوزارة في تأييدها، ومما يؤيد ذلك أيضا أن جميع مواضيع المؤتمر القبطي، قد خلت تماما من أي معارضة إنجليزية للإحتلال أو انتقاد لسياسته أو مطالبة بتحقيق وعوده، في حين أن طابع المؤتمرات الوطنية في ذلك العصر والعهد - كان توجيه الأمة لمقاومة الاحتلال والجهاد في سبيل الاستقلال، ومما يستوقف النظر حقا أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الإحتلال، ومما يشرف تاريخ محمد فريد حقا أنه لم يشترك في هذه المظاهر التي تتنافى مع منهج مصطفى كامل في تدعيم الوطنية .

وقد كتب محمد فريد عن ذلك في مذكراته : « في أثناء سجني » ، شرع في المؤتمر المصري الذي جمعه محمد سعيد باشا بناء على رغبة السير ألدون جورست لمعاداة الأقباط وبالتالي التفرقة بين الأقباط والمسلمين .

وشاء الإنجليز أن ينشغل المصريون بأنفسهم عن الاحتلال وأن يجدوا أعداء من بينهم بدلا من التركيز على العـــدو الحقيقي ولكن عبثا حاولوا ، فسرعان ما احتوت هذه المحاولات وغيرها الحركة الوطنية المصرية الحقيقية وغرقت في خضم حركة التنوير الليبرالية الكبرى التي عرفتها مصر منذ الإمام الشيخ محمد عبده ومن بعده ثم احتوتها ثورة ١٩١٩ التي وجهت أعنف الضربات إلى محاولات الإستعمار في هذا المجال، وكان تعميق الوحدة الوطنية من أهم وأعمق إنجازات ثورة ١٩١٩ وقيادتها التاريخية التي تمثلت في زعامة سعد زغلول الأمة المصرية .

الفصل السابع

الوحدة الوطنية

في ثورة الشعب ١٩١٩

لم ترض مصر بالتسليم بإخفاق ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ بل ما كادت روحها تسكن مدة عشر سنوات حتى أخذت ترفع رأسها من الهدوء لتجمع فى مد قومى جديد . ومنذ بداية القرن العشرين أخذ الكتاب الصحفيون يدعون الشعب للوحدة الوطنية والتماسك لمعاودة مواجهة الخطر الاستعمارى كما كانت تمثله بصفة خاصة بريطانيا باحتلالها مصر . حتى تبلورت الدعوة فى نضال مصطفى كامل ومن بعده وصلت الحركة الوطنية برجل الشارع فى عهد محمد فريد داعية النضال من أجل الحرية على أساس الوحدة الوطنية المتساندة الصامدة .

أخذ الوعى القومى ينتشر حتى جاءت الحرب العظمى الأولى فكانت ميلاد عمل ثورى جديد .

ولقد بدأ الاختمار الثورى ينساب بين المجتمع المصرى ضد الاحتلال عندما استطاع ذلك الاحتلال بوجهه السافر أن يصل إلى قلب المجتمع إبان الحرب بتعارفه مباشرة ومساساً بالقيم التى كانت قوام ذلك الروح والتى كان يعيها وعياً مباشراً ويحرص عليها حرصه على كيانه وحياته . ومن ثم كان يمكن للاختمار الثورى مع أكبر مصادره على الدفع الحركى ولما كان الاحتلال أكثر إحتكاكاً ومساساً بالقاعدة الشعبية ونظراً لأنها كانت إذ ذاك وهى البيئة المحافظة تمثل مكمن هذا الروح فى قوته كانت تلك تتأهل بطاقات ثورية كبرى .

كان الاختمار الثورى ينمو فى فترة الحرب فى ظل الحماية ضد الاحتلال فتربط

مصر بشعور واحد وإن تجلى مختلفاً في مستوياته بين فرد وآخر أو طبقة وأخرى بكل باختلاف النظر والاستعداد التجاوب مع تحديات الاحتلال ، بين الفلاحين والعمال والبرجوازية من المثقفين .

أما العامل السياسي فقد كان أدخل إلى وعي المثقفين منه إلى وعي سائر الطبقات وكان هؤلاء ينظرون للقومية غاية وبكرامة ثم وسيلة ، ولهذا كان حظهم من الاختيار الثوري القائم على الوعي السياسي يمثل حظاً وافراً عالياً .

على أن هذه الأسباب بالرغم مما كان لها من تأثير عظيم في الإسهام في الاختيار الثوري فإنها لم تكن تمثل السبب الرئيسي لذلك ، بل كانت تلك أسباباً ثانوية مساعدة .

فمصر لم تغضب فقط لشظف العيش والفاقة والمظالم الاقتصادية بالضرائب والمصادرة وغير ذلك بل بسبب أهم وهو ما وراء كل ذلك ، من المساس بكرامتها . فقد تحتمل هذه كلها لو كانت لغاية وطنية أو فكرة إنسانية ولكن علام الاحتمال ؟ وهل إذا كسبت انجلترا الحرب فستكبل مصر بأغلال العبودية في ظل الحماية وتحرمها من حقوقها القومية والسياسية أو تكبلها التحدي على غيرها ؟ ولكن ربما كان ذلك الشعور أدخل أيضاً إلى وعي المثقفين وأوضح لديهم من غيرهم .

أما السبب الرئيسي العام الذي بعث الأمة بالاختيار الثوري فلم يكن فقط ما وراء المظالم من المساس بالكرامة السياسية بل المساس بالكرامة في قمتها المرتكزة عليها في الأعماق أساساً ، الروح المصري الذي يمتد بأصوله في أعماق التاريخ المصري العريق ويقوم عليه كيان الأسرة إذ ذاك والمجتمع وهو وإن كان في مستواه قوياً عند الفلاحين والمحافظين إلا أنه كان يعتبر أقرب إلى وعي الشعب كله .

ولقد استطاع الاحتلال وهو يفصح عن طبيعته الظالمة الجارحة بأساليبه التي تجلت في مظالم السلطة العسكرية إلى حد كبير أن يوغل إلى قلب المجتمع حتى طرق مكامن وجدانه طرقاً مباشراً جارحاً فيما احتواه من قيم روحية . ولقد عاش من أجلها الشعب في إطار الأسرة ومن ثم بعثه بعثاً قام على اختيار قومي .

كانت مصر إذ ذاك تعيش فى إطار قيم الأسرة بما انحدر إليها من غابر حضارتها وامتزجت بقيم من الحاضر بما خلق منها كيانا روحيا قويا ووحدة وطنية متماسكة صامدة عبر العصور.

وسرعان ما امتدت من القاهرة إلى سائر أرجاء مصر جذوة قوية مضطرمة وإذ فوجئ الاستعمار بالثورة فإنه لم يلبث بعد الصدمات الأولى أن حاول تفتيتهم فاستخدم الشدة فى مواجهتها فى الداخل ثم حاول عزلها خارجياً وبدأت الثورة بمظاهرات سلبية ألفها الطلبة يوم ٩ مارس ١٩١٩ فتصدى لها البوليس ثم أضرب طلبة الأزهر وجميع المدارس وخرجوا فى مظاهرة اشترك فيها الجمهور هاتفين بحياة مصر مطالبين بالحرية فلم يسع القائد البريطانى إلا أن أصدر أمراً بمنع المظاهرات منذراً المتظاهرين بالعقاب على أنهم برغم خروج بعض القوات البريطانية فى الشوارع وفض المظاهرات لم يعبأ بهم المتظاهرون.

ولم يلبث المحامون فى ١٠ مارس أن أسهموا فى هذه الثورة فأعلنوا الإضراب عن عملهم إحتجاجاً على الموقف الذى تردت فيه البلاد وكان ذلك بمثابة دعوة لطوائف الشعب أن تلتئم فى وحدة واحدة من الإضراب الشامل إحتجاجاً وإبداء لشعورهم الكاره للإحتلال فكان ذلك من عوامل نجاح الثورة. وما لبث أن قام إضراب المحامين الأهليين وتبعهم زملاؤهم المحامون الشرعيون، ومن ثم تعطل القضاء فى جميع المحاكم ثم امتدت جذوة الثورة إشتعالا فأضرب فى اليوم نفسه عمال العنابر وعمال السكك الحديدية فتعطلت المواصلات ودواوين الحكومة ومواصلات الشركات الأجنبية وأقيمت الحواجز والمتاريس فى كثير من الأحياء وهوجمت سيارات نقل جنود العدو كما حفرت الخنادق.

وفى ١٦ من مارس قامت مظاهرة من النساء وقدمن إحتجاجاً مكتوباً إلى معتمدى الدول الأجنبية برغم محاولات الجنود البريطانية الحيلولة دون تنفيذ عملهم وقد كان لوقع ذلك أثر فى نفوس الشعب وقد عمل على تعبئة المشاعر وحث على المضى فى ركب الثورة بحماس تحدوه روح التضحية.

ومن القاهرة إمتدت شعلة الثورة إلى الأقاليم بعد أن ضربت لها القاهرة مثلا

فى التضحية ورسمت لها الطريق إلى الحرية ومضى الاهالى قدماً بنزعة قومية ووعى سياسى وإن اختلفت مستوياته بين الجمهور فقد أظهرت القاهرة مستواها الاعلى من الاختبار بين المثقفين .

وامتدت المظاهرات بين سائر المثقفين إمتداداً أفقياً من القاهرة . إلى سائر مدن الإسكندرية وطنطا ودمنهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وبنى سويف والمنيا والفيوم وأسيوط وسائر العواصم وما لبثت الثورة أن امتدت إلى صميم القرية تتجاوب الفلاحون معها من خلال معاناة مساوىء الإحتلال وقد استمرت فكرة قطع المواصلات إبتداء من ١٢ مارس ومابعد استمرت فى الوجهين القبلى والبحرى برغم إنذارات القائد البريطانى بالويل لمن يحاول العبث بالمواصلات حتى إضطر إلى منع الانتقال من قرية إلى أخرى وتوجيه حملات إلى الأقاليم لقمع الثورة وحراسة المواصلات .

ومع تماسك الوحدة الوطنية كان امتداد الثورة إلى أعماق الريف وقد امتدت كذلك فى القاهرة وبلغت عمقا روحياً أثر فى نضالها الطبيعى فاشتدت فى ثورتها إشتداداً حتى عاد الأزهر كما كان من قبل فى ظل الثورات المصرية الأولى من تاريخ مصر الحديث ، قلب الثورة النابض ، فحفل بالخطباء من كل الطبقات والأديان .

وفى ١٧ مارس قامت مظاهرة كبيرة نظمت بإحكام وحرصت القيادة البريطانية على هدم المساس بها حقنا للدماء التى قد تزيد من حماس الثورة فأرسلت حكمدار العاصمة الإنجليزى ليسير فى المقدمة حتى لايصطدم الثوار بالجنود البريطانيين . ولا غرو فقد جمعت بين جميع الطبقات من علماء وقضاة ومعلمين ومحامين وتجار ورجال أعمال وطلبة الأزهر والمدارس وطوائف الصناع إلا أن السلطات البريطانية لم تلبث أن شددت على المظاهرات حتى لاتتكرر وبرغم ذلك مضى المد الثورى وخرج عمال العنابر فى يوم ٨ مارس قاصدين الأزهر فاعترضتهم قوات العدو بوابل من نيرانها فسقط كثير من القتلى والجرحى ثم مالبث النبلاء أن عاودوا الكرة فى ١٣ مارس إحتجاجاً على سفك الدماء وقد إتسمت الثورة

بالحرص على صيانة أهدافها القومية وإذ كانها فتألفت جماعة من الثوار تولوا حفظ النظام فى أثناء سير المظاهرات وفى أثناء الإجتماعات التى تعقد وقد سميت هذه الجماعة التى توعدها الإنجليز بالويل والعقاب بالشرطة الأهلية .

وقد نجحت بريطانيا فى حصار الثورة فى الخارج بتأثيرها الدولى «إعتراف مؤتمر الصلح بالحماية» ثم محاولاتها استخدام العنف واللين تارة . فى الداخل . ومن ثم كانت دار الحماية إذ ذاك بقصد أن ترى الشعب عدم جدوى ثورته وتدفعه لقبول الأمر الواقع ، وقد كان وقع ذلك الاعتراف ، بلا جدال بين الشعب مؤثرا ، فقد قابله بدهشة مقرونة بمرارة وألم .

على أن ذلك وإن ترك آثاره بحكم الطبيعة إلا أنه لم يؤثر على تماسك الشعب ولا صموده ، وقد تجلى ذلك فى بقاء البلاد بلا وزارة وفى احجام عن قبول الوزارة حتى يأمنوا الخروج عليها ، وقد اضطر اللنبي علاجا لذلك بتخويل وكلاء الوزارات سلطة الوزراء ، وتجلى ذلك من ناحية أخرى فى مواقف الطلبة وإصرارهم على استمرار الإضراب .

كان هؤلاء مضربين طوال شهرى مارس وإبريل ، فلما دعاهم اللنبى إلى المدارس ابتداء من ٣ مايو ظلوا على إضرابهم فأصدر بلاغا فى ذلك اليوم أنذر فيه بإغلاق المدارس إذا لم يعد العدد الكافى لفتحها ، ورغم هذا كان رد الطلبة على هذا البلاغ بإقامة المظاهرات احتجاجا عليه بدلا من الإذعان له .

ولما لم يعودوا إلى مدارسهم فى الموعد المحدد فى البلاغ وهو ٧ مايو ، أمر بإغلاق جميع المدارس حتى يدعو باستئناف العام الدراسى التالى فانتهز الطلبة هذه الفرصه واستمروا فى إقامة المظاهرات الكبيرة وتعرض لهم الجنود البريطانيون فأصيب كثيرون ، كما قبض على آخرين .

ولما أعلن تعطيل الوزارة وسائر المصالح الحكومية فى يوم الثلاثاء ٦ مايو أثار ذلك الإعلان غضب الجمهور فعمت المظاهرات نواحى القاهرة فى ٦ مايو احتجاجا على ذلك .

واستمرت الثورة وإن اتسمت بأسلوب مسالم فقد كانت تنطوى على غضب يخيم عليه سكون نسبي .

وبدأت الحكومة تشعر بوجود ذلك السكون النسبي فأرادت إصلاح معظم الخطوط الحديديه ، وأخذت السلطات العسكرية كثيرا من الثقة وأتاحت السفر من القاهرة ومعظم مدن الوجه البحرى، بدون جوازات سفر اعتبارا من ١٠ مايو ، كما ألغت جوازات السفر للوجه القبلى أيضا ابتداء من أول يونية .

ومع هذا الهدوء النسبي أخذت تنساب إليه أنباء الخذلان أمام مؤتمر الصلح فتجلى أثارها بين الشعب. وفى ذلك الوقت من شهر مايو أعلنت شروط الصلح التى كان الحلفاء قد قرروها وسلمت إلى الوفد الألمانى فى مؤتمر فرساى فى ٧ مايو ١٩٢٠ فجاءت النصوص الخاصة بمصر من المادة ١٤٧ إلى المادة ١٥٤ مؤيدة للحماية التى فرضتها بريطانيا على مصر وقد قبلتها ألمانيا ضمن ما قبلته من شروط الصلح وأصبحت جزءا من معاهدة فرساى التى وقعت أمضت فيما بعد فى ٢٨ مايو عام ١٩١٩ .

وقد كان لاعتراف المؤتمر بذلك أثر أليم فى نفوس المصريين كما كان للاعتراض السابق على الحماية من الولايات المتحدة أن يثير الشك فى نفوس الشعب من جدوى كسب المجال الدولى بجانب القضية المصرية ومما لا جدال فيه أن الثورة فى صدارتها حتى هذا التاريخ ، كانت قد خسرت بالاعتراف الدولى بالحماية البريطانية على مصر قوة لو كانت قد توافرت فى هذة الفترة لحققت كل أهدافها .

ولم تكن خسارة مصر ثمرة سيطرة بريطانيا على الموقف الدولى فقط بل أيضاً لعدم توافر الجو الدولى لمصر فى ذلك الوقت الذى ينظمه رأى عالمى حر أو مضاد للاستعمار على نحو تستطيع به موازنة تلك السيطرة فى المنظمة الدولية مثلا ، فقد كانت حركة التحرر العالمى فى بدايتها .

وكان من الطبيعى أن ينتهى ذلك كله بانتقال المعركة السياسية إلى ساحة مصر مستندة إلى تماسك الوحدة الوطنية .

ولقد أخذ شعور بريطانيا بالثقة فى هدوء مصر يتجلى فى خطبة ألقاها اللورد كرزون باسم حكومته فى ١٥ مايو فى مجلس اللوردات عن الحالة

فى مصر . فأقر بأن الحالة قد تحسنت عن ذى قبل وإن لم تبعث على الرضا ، وأن النظام قد عاد . ثم أخذ يشير إلى بعض الأحداث التى حدثت كإضراب الموظفين والطلبة . . وغير ذلك ، ثم تكلم عن اعتراف ولسن بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر إعلانها عام ١٩١٤ وما تضمنته معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائها من الاعتراف بها ثم قال : وعلى ذلك لا يمضى زمن يسير حتى تنال الحماية الاعتراف العام ، وتساءل عن الفائدة التى جناها المصريون من الثورة ، وإنه إذا كان الغرض من هذه الثورة وما صاحبها من الخسارة فى الأرواح والممتلكات إنهاء علاقة البريطانيين فى مصر وتحقيق استقلالها فقد قضى عليه بالفشل وأن حكومته لا تنوى مطلقاً أن تتخلى أو تغفل عن الالتزامات والنفقات التى تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها وأن هذه الالتزامات والنفقات قد تأيدت بإعلان الحماية البريطانية عليها ثم أبدى عطفاً على الأمانى المشروعة فى دائرة الحماية . ورأت حكومة بريطانيا كعلاج للاضطرابات فى مصر إيفاد لجنة برئاسة ملنر لتحقيق أسباب ذلك ، واقتراح القانون النظامى اللازم فى سبيل الحكم الذاتى وضمان المصالح الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية .

ولم يأت خطاب كرزون مقرراً للواقع ، أو حقيقته ، فى كل ماجاء به ، بل كان فى جوهره تعبيراً عن شعور بريطانيا فى ثقة ممزوجة بالتحدى من أنها قد حققت قسطاً من السيطرة على الثورة بما يعنى فى نظرها تمهيد السبيل إلى حد ما لنقل المعركة السياسية إلى الداخل ، حتى لم يعد إلا الإصرار على إرسال لجنة ملنر للعمل على تثبيت الحماية ، كما كان إيذاناً بانتقال المعركة السياسية إلى مصر حول الحماية .

ولقد اضطر بريطانيا إلى ذلك السلوك موقفها من الثورة فى الخارج والداخل ورغبتها فى استكمال نجاحها فى الخارج .

وكان لزاماً على بريطانيا أن تستكمل تأييد الموقف الدولى للحماية بالحصول على موافقة المصريين عليها كى تصبح شرعية لاسيما وأن معاهدة الصلح مع تركيا لم تكن قد أبرمت فقد كان من المحتمل أن تصرح تركيا بأن مصر لم تقبل الحماية

فلا يمكن بهذا أن تعترف بها ، وبالتالى لا يمكن التنـــازل عن حقوق سيادتها الرسمية لدولة غير مصر إذا كان من الضرورى أن تتنازل عنها . على أن ذلك لم يكن ميسوراً إنجازه بالرغم مما قطعته بريطانيا من خطوات للسيطرة على الثورة فى الخارج والداخل بمجرد إرسال لجنة ظاهرها تحقيق أسباب الثورة وباطنها العمل على الحصول على اعتراف المصريين بالحماية ومن ثم تستكمل شرعيتها فلم تكن الثورة قد قامت بعد حتى يصبح من السهل أن يوجه إليها ذلك التحدى فيتلاشى غرضها القومى الأسمى .

كانت بريطانيا قد قطعت خطوات فى مواجهة الجبهة الداخلية لتمهيد الخواطر لقبول الحماية ، فلم يعد ممكناً لاستكمال ذلك إلا وزارة تشرع وتعيد النظام وتمهد الطريق لأعمال لجنة ملنر .

ولقد جاءت خطبة كرزون إثباتاً للعمل ونقلا للمعركة ففى اليوم الذى نشرت فيه خطابته فى ٢١ مايو ١٩١٩ بدأت بريطانيا تنفذ ما اعتزمت عليه ، فاستدعت رجلا كان بينه وبين سعد جفاء وطلبت منه تشكيل وزارة جديدة فألفها بغير برنامج قومى لا يهمها شىء إلا دفع الشعب للسكينة والتمهيد لتثبيت الحماية .

ولقد انتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين أعضاء الوفد وبدأت العمل بإرسال لجنة ملنر إلى مصر لأمور منها فى نظرها على الأقل إنه إذا لم تنته إلى تحقيق الغرض فى الحصول على اعتراف المصريين بالحماية فهى بذلك توسع رقعة الخلاف بين وحدة الوفد بما انتهى إلى تصدع الوحدة القومية .

ومع بداية التحدى البريطانى أخذت الجبهة الداخلية تتحرك لمواجهة المعركة فقد كان من الطبيعى مع بداية خذلان القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح وتسرب أنباء ذلك الخذلان إلى مصر ، أن يزداد اعتقاد المصريين بأن المسألة المصرية لم يعد فيها إلا أن تحارب على أرض مصر ذاتها وأن قوتها لتحقيق النصر هى وحدتها القومية ومن ثم بدأ الاهتمام فى الداخل بالحفاظ حول تماسك الجبهة الداخلية وما لبث ذلك عقب الإعلان عن إرسال لجنة إلى مصر لإمضاء معاهدة الصلح بما أيد الحماية البريطانية على مصر أن أصبح مسئولية تاريخية ألقيت على عاتق

الوفد فقام بها الجهاز السرى بقيادة عبد الرحمن فهمى خير قيام .

وأخذ الطرفان يلتقيان فى معركة الحماية فى صراع سافر فى ظاهره منذ أن تولى محمد سعيد رئاسة الوزارة ، وفى باطنه كان نضالا ثورياً يدعمه الجهاز السرى بالشدة والضراوة للحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية بكافة الوسائل .

خرج الشعب بعد أن تألفت الوزارة يرد على تحدى بريطانيا بالاحتجاج على تأليف هذه الوزارة (1) ويمضى فى تعبيره عن أهدافه بما يثبت استمرار الثورة بعد ذلك ، وكان أروع تعبيراً فى مقاومته لجنة ملنر بما دفع بريطانيا أن تشعر بقوة الثورة وبقوة تماسك الجبهة الداخلية وبفشل سياستها التى قامت على تجاهل الوفد ، بما يدفعها لأن تتراجـــع عن غرورها ودعواها والاقتراب من الأمانى المصرية .

كانت مهمة هذه الوزارة الأولى : إعادة السكينة والنظام فى مصر ، فوجه سعيد جهده كله فى ذلك ، فمضى بسياسة كان ظاهرها كسب ثقة الشعب ، وباطنها دفعه إلى الرضاء بالواقع ، لحاول شغل الشعب عن الكفاح السياسى بالاهتمام بالمسائل الجزئية الخاصة ، بزيادة أجور الموظفين والإفراج عن بعض المعتقلين ، لتهدئة الخواطر . فنجح فى ذلك نجاحاً كان موضع تقدير اللنبى .

ولقد كان من نتائج إمضاء معاهدة الصلح ونجاح الوزارة فى التعجيل بإعادة السكينة أن تساهلت السلطات العسكرية وأذعنت لإقناعه بتحويل قضايا الوطن من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية باستثناء حوادث الاعتداء على أفراد القوات البريطانية وإن جاء إيقاف المحاكم العسكرية مؤقتاً ، كما استجاب اللنبى بطلب الوزارة الإفـــراج عن بعض المعتقلين السياسيين كما ألغيت الرقابة على الصحف .

على أن ذلك ما لبث أن تكشف مغزاه أمام الشعب فعرف باطنه من أنه لم يكن مقصوداً لذاته ، بل كان مقصوداً لشغل الشعب عن الكفاح السياسى فكان الناس

(1) عبد الرحمن الرافعى ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٣٩ وما بعدها .

يستريبون بنياته حتى تقدم عليه أحد الغلاة لقبوله الوزارة وتهيئة الخواطر للرضاء بالواقع فثـــار عليه ورماه بقنبلة فى ٢ سبتمبر ١٩١٩ لم تصبه ولكنها هزت أركان الوزارة .

على أن اللنبي مالبث أن أدرك مباشرة حقيقة الموقف ، فى ضراوة المقاومة ، من تماسك الجبهة الداخلية وذلك عندما علم الشعب بنبأ إرسال لجنة ملنر ، فسرعان ماهاجت الخواطر فتواصى المصريون بمقاطعتها .

دور الجهاز السرى :

ولقد ظهر دور الجهاز السرى، فى معركة الحماية ، يستمر فى قوته وشد إزره وحمايته ضد الدسائس والخصوم التى شاء الاحتلال الاستناد عليها فى هذه المعركة السياسية ، والحفاظ على الخط الثورى عموما متماسكا قويا ، والوحدة الوطنية صامدة بالتوجيه تارة والتنكيل بالدسائس تارة أخرى.

وصدرت الأوامر فى أوائل سبتمبر عام ١٩١٩ إلى مصالح الحكومة ودواوينها لإعداد التقارير والبيانات والإحصاءات اللازمة التى ينتظر أن تطلع عليها اللجنة عند وصولها إلى مصر(١) .

وأعلن رسميا فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ فى لندن تأليف اللجنة برئاسة ملنر وزير المستعمرات ولفيف من العليمين بشئون مصر المدنية والحربية ، وقد تجلى منذ إنشائها البرم والسخط على تأليفها فقامت مظاهرات الاحتجاج فى القاهرة والإسكندرية منذ أوائل أكتوبر ١٩١٩ والأيام التالية (٢) إعلانا للإحتجاج على تأليف اللجنة وقوبلت المظاهرات بالعنف البالغ، كما حاولت الحكومة فض هذه المظاهرات بمختلف الوسائل وما لبث الموقف أن تفتق من هذا الهياج عن بلاغ صادر من دار الحماية عن قدوم لجنة ملنر وذلك فى مساء ١٤ نوفمبر ١٩١٩ وحددت مهمتها بأنها ستقوم باقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية.

---

(١) دكتور عبدالعزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ص٢٠٠ وما بعدها .

(١) عبد الرحمن فهمى ، ثورة ١٩١٩ ، ص ٩٣ .

وقد رد الحزب الوطنى على البلاغ فى بيان إلى الأمة أعلن فيه سياسة عدم المفاوضة مع المحتلين ، وأعدت لجنة الوفـــد المركزية بيانا أذاعته فى ١٦ نوفمبر ١٩١٩ احتجاجا على صدور ذلك البلاغ وعدته مخالفا للمبادىء التى أعلنها الحلفاء والمبادىء التى جعلت أساساً للهدنة والصلح ، وإرادة الشعب المصرى الذى يعرف ما هو مصير بلاده .

وعلى أثر صدور بلاغ دار الحماية ، قامت المظاهرات فى العاصمة منذ ١٥ نوفمبر واشتدت فى اليوم التالى ، وانتهت إلى خسائر فى الأرواح من الاصطدام بالبوليس والقوات الإنجليزية .

وحدثت فى الإسكندرية مظاهرات فى ١٥ نوفمبر إثر اطلاع الجماهير على بلاغ دار الحماية انتهت بتصادم ثورى بينها وبين البوليس والجيش البريطانى كما انتقلت المظاهرات إلى بعض الأقاليم مثل طنطا والمنصورة وشبين الكوم وغيرها .

ولم يدم الوفاق بين الوزارة واللنبى ، فقد اختلفا فى مسألة (١) ملنر .

كان اللنبى يرى أن امتعاض الشعب من قدوم اللجنة سبب كاف لتعجيل قدومها وإن إقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لاحساب لها هو مقدمة صالحة لقدوم اللجنة .

شاء سعيد إرجاء إرسال اللجنة انتظارا للفراغ من عقد الصلح مع الدولة العثمانية ، تتنازل فيه عن حقها فى السيادة لبريطانيا ومن ثم تطمن الثورة فى الصميم فأبى الغرور البريطانى فى شخص اللنبى أن يرضى بذلك الاتهام بالضعف أمام ضجة المقاطعة وقد دفعه للتعجيل ماعلمه من بوادر التفكك الذى أصاب أعضاء الوفد فى باريس فشاء الإسراع فى استدراج العناصر المعتدلة لمزيد من الانشقاق .

وإزاء ذلك الخلاف لم ير محمد سعيد بدا من الاستقالة بعـــد نشر بلاغ دار الحماية عن مهمة لجنة ملنر ، واشتداد المظاهرات فرفع كتاب استقالته فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ .

---

(١) دكتور عبد العزيز رفاعى : ثورة سنة ١٩١٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .

ونشطت الشائعات البريطانية فى هذه اللحظة الحرجة التى كانت مصر تجمع فيها على مقاطعة لجنة ملنر التمهيد لمقدم اللجنة والعمل على نجاح أهدافها فشاء اللنبى محاولة ضرب الوحدة الوطنية فى تماسك المسلمين مع الأقباط ، فعمد إلى تكليف أحد الأقباط وهو يوسف وهبى بتأليف الوزارة فألفها فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩ بغير برنامج قومى ، ولكن عبثاً حاولت هذه السلطات بلوغ أهدافها أمام تماسك الشعب .

وإذا كان رئيس الوزراء قبطياً فقد أعلن الأقباط إذ ذاك استياءهم منه وسخطهم عليه وعمدت السلطات العسكرية أن توجه نشاطها لدعم مركز الوزارة بمناسبة قرب قدوم لجنة ملنر ولكن جاء رد الجهاز السرى عليها رداً قوياً فوت عليها أغراضها فى ذلك ، ولما كانت تستهدفه من ضرب الوحدة الوطنية .

فقد حدث أن استدعى اللنبى قبل تأليف الوزارة محمود سليمان رئيس اللجنة المركزية للوفد وإبراهيم سعيد وكيلها وطلب منهما مغادرة القاهرة إلى بلديهما مع بقاء عبد الرحمن فهمى تحت المراقبة فى القاهرة . ولما لم يذعن الأولان ، رحلتهما السلطات العسكرية كما رحلت على ماهر إلى الأقصر واعتقلت غير هؤلاء من زعماء الحركة فى الأزهر .

وقد رد عبد الرحمن فهمى على ذلك رداً فوت على بريطانيا أغراضها إذ جمع اللجنة المركزية وعين مرقص حنا عضو اللجنة وكيلا لها ورئيساً بالنيابة ثم كتب إلى سعد فى ٣ ديسمبر ١٩١٩ — يشرح فكرته من وراء ذلك فيقول : اعتقل صاحب السعادة محمود سليمان باشا وإبراهيم باشا سعيد (١) وقد خلا بذلك محلا الرئيس ووكيله . ونظراً لأننا فهمنا من سياق الحديث أن السلطة المتصرفة فى شئون مصر الملتفين حولها أرادت إسناد مركز الرئاسة إلى يوسف وهبى باشا معللين ذلك بأن يكون هذا سبباً من أسباب تعدد القلاقل بين صفوف الأمة .

ويستطرد فيقول : فى هذه الظروف الحرجة ذاتها استصحبت ستة من

---

(١) محمد أنيس دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ص ٥٠

أعواني أعضاء الوفد باللجنة المركزية وتوجهنا إلى الكنيسة يوم الأحد ٣٠ نوفمبر الماضي وأبدينا مشاركتنا لهم في تألمهم من قبول رئيس الوزراء لمركزه الجديد وأكدت لهم أن هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن يسبب أى نفور في علاقاتنا لأنه إذا كان وجد من بينهم من قبل الوزارة في هذه الظروف الحرجة فقد وجد بيننا سبعة بجواره من المسلمين (يقصد أعضاء الوزارة) ..... »

حضور اللجنة :

ولقد وصلت اللجنة مصر في ٧ ديسمبر ممثلة لجميع الأطراف الإنجليزية ومؤلفة من رجال مشهود لهم بمعرفة الشئون المصرية السياسية، وبرئاسة ملنر وزير المستعمرات البريطانية .

وكانت بريطانيا تأمل في عهد وزارة يوسف وهبي أن يقابل الوفد بالترحاب ولكنها ما كادت تستقر حتى أحست أنها في حصار لا يجد له منفذاً إلى لقاء .

فقد قابلها الشعب بامتعاض ، كما كان متوقعاً ، وانتشرت الإضرابات احتجاجاً على قدومها .

ثم قام الطلبة في اليوم التالي بمظاهرات عدة في ضواحي القاهرة ، ثم انهالت الاحتجاجات على اللجنة .

وكانت المظاهرات في الاسكندرية وكثير من العواصم قد قامت احتجاجاً كما قام المحامون بالإضراب أسبوعاً من ١٧ ديسمبر احتجاجاً على قدوم اللجنة .

ثم وقع حادث أليم ولكنه غذى الثورة بالحرارة ، ذلك هو عدوان الجنود الإنجليز على الأزهر في ١١ ديسمبر ١٩١٩ .

هذا وقد بدأت مظاهرة صبيحة ١١ ديسمبر من طلبة الأزهر وغيرهم فلما قطعت في سيرها شوطاً أدركها الجنود الإنجليز بالسيارات فهاجموها وعادوا إلى الأزهر ودخل كثير منهم فدخل وراءهم الجنود الإنجليز بنعالهم على كل ما صادفهم.

فاحتج العلماء على الحادث (١) وأرسلوا باحتجاجهم إلى السلطان ورئيس

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، ص ١١٨ .

الوزراء والنبي . لحرك ذلك الحادث العلماء للعمل الجدى .

وقد كان طبيعيا أن تتجه الثورة إبقاء على الوحدة الوطنية ، إلى استخدام أسلوب الاعتقالات السياسية ، ترهب به أعداء الثورة والمتقسمين من الخونة ، لم يعلن من قبل أن كل من يتولى رئاسة الوزارة فى ظل الحماية يعتبر طائعا لبلاده .

وليس فى الخطابات السرية ولا فى مذكرات سعد زغلول مايدل على (١) أن سعد هو الموعز بهذه الخطة والاعتقالات لكنا لانجد مع هذا فى تعليمات سعد السرية كلمة واحدة عن رأيه ، أنه لايوافق على هذه الاغتيالات ونحن نميل إلى القول بأن سعد كان يرحب بهذه الاغتيالات ولايعرض عليها .

ولم يمهل الجهاز السرى يوسف وهبى رئيس الوزراء ، حتى اضطر فى النهاية للاستقالة وأرسل عبد الرحمن فهمى إلى سعد فى ٢٣ ديسمبر يخبره بأن : « ألقى طالب من طلبة الطب قنبلتين يوم ١٥ ديسمبر الجارى على رئيس الوزراء ، ولكن أخطأه ، وضبط ذلك الشاب وهو ينفذ خطته (٢) .

ولم يمهل الشعب اللجنة بل خرج محتجا فى مظاهرات عدة وانطلق الجهاز السرى يهدد الوزارات ، وأخذ الجهاز السرى ينظم حلقة من الأعمال لحصار هذه اللجنة ، ويحدثنا عبد الرحمن فهمى عن الأسلوب الذى اتبعه فى هذه المحاصرة فى مذكراته الكبيرة (٣) .

كان لابد للثورة أن تمضى فى معاركها حتى تحقق أهدافها القومية وكانت بريطانيا تتطلع إلى مخرج للموقف .

ولما كانت السياسة البريطانية إذ ذاك قد عثرت على عدلى على مائدة مسرح مفاوضات سعد ملنر كأقدر رجل ترضى به ، فى استطاعته أن يمثل النواة التى تجمع حولها جميع المعتدلين بما يمكنها من بلوغ أهدافها . فقد كانت بهذا قد ضمنت وقوف هؤلاء بجانبه وضمنته زعيما للمعتدلين إذ ذاك فيما قام به من وساطة بين لجنة

---

(١) د . محمد أنيس ، دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ — ص ٥١ .

(٢) د . عبدالله رفاعى ثورة سنه ١٩١٩ ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) المرجعان السابقان .

ملنر والوفد وما بذله من جهد أثناء مباحثات الهيئتين للتوفيق بينهما بما كان يرشحه لأن يكون الزعيم المصرى المنتظر .

وكانت بريطانيا تبنى خطتها على فكرة إقناع الزعماء المصريين بقبول التسوية الملنرية فى جوهرها كما بنتها أيضا بجانب هذا على فكرة إبدال الحماية بنظام آخر تقبله مصر .

وبدأت بريطانيا تمهد السبيل لدخول المرحلة التالية لفشل مفاوضات سعد ملنر لتحقيق أهدافها . فأعلنت الحكومة الإنجليزية السلطان فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ بقرارها الآتى نصه :

« إن حكومة جلالة الملك، بعد درس الاقتراحات التى اقترحها اللورد ملنر استنتجت أن نظام الحماية لايكون علاقة مرضية تبقى مصر فيها تجاه بريطانيا العظمى »، ومع أن حكومة جلالته لم تتوصل بعد إلى قرارات نهائية باقتراحات اللورد ملنر فإنها ترغب الشروع فى تناول الآراء فى هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان فؤاد (١) .

وبدأ الحديث فى أوساط مصر السياسية (٢) عن تولى الوزارة المفاوضة وهل من الخير استدعاء سعد للحضور ليشترك فى المشورة . أم ينتهى الأمر إلى حل المسألة فى ذلك بالتشاور ؟ وانتهى إلى عدم اشتراك الوفد فى الوزارة وكان الخلاف الذى بدأ بين أعضاء الوفد يجعل اشتراكهم فى المفاوضة أمراً غير ميسور .

ولما كان عدلى كرشدى يشعر بأن عليه واجبا يؤديه ليخلص مصر مما ورطها فيه، من الحماية قبل الوزارة، فلما أن قبل السلطان استقالة وزارة نسيم فى ١٦ مارس ١٩٢٠ حتى عهد فى اليوم ذاته إلى عدلى يكن بتأليف الوزارة الجديدة وضمن عدلى جوابه برنامج وزارته فأعلن أنها ستجعل نصب عينيها فى المفاوضات الرسمية أن

---

(١) محمد شفيق غربال ، المفاوضات المصرية ، ص ٨٤ .
(٢) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، ص ١١٥ .

تصل إلى اتفاق لايجعل مجالا للشك فى استقلال مصر .وأنها ستدعو الوفد المصرى للاشتراك فيها وأن الأمة سيكون لها على لسان ممثليها فى جمعية وطنية القول لتصل فى هذا الاتفاق ، إن هذه الجمعية ستكون أيضا جمعية تأسيسية تضع الدستور وستكون الانتخابات لهاحرة بحيث تمثل رأى الأمة تمثيلا صحيحا .فوعد بالعمل على رفع الأحكام العسكرية وإلغاء الرقابة على الصحف وبالامتناع عن إحداث كل تغيير جوهرى قبل تنفيذ النظام النيابى (1) الجديد .

كانت الوزارة فى ظاهرها محاولة لحل القضية المصرية ، ولكن على طريقة أعضائها من الحاقدين على الثورة والناقين على الوفد والأخذ بإنصاف الحلول .

الوحدة الوطنية من جديد :

وانتظمت مصر كلها فى ركب سعد موكبا واحداً لحفاوة به ، وأحس الشعب فى ذاته بقوة فانبعثت به إلى حيث يتلاقى أفواجه وتزخر أمواجه . وكان سعد هو بلا جدال عنوان تلك القوة . كان استقباله فى الإسكندرية يوما مشهودا ، فلما استقل القطار إلى القاهرة تلاحقت معه جموع الشعب على طول الطريق .

وفى القاهرة كان اللقاء عظيما ، حارا ، فما أن لاح فى سيارته حتى استقبلته القاهرة وكانت مصر فى موكبه فى احتفال كبير .

وعاد سعد ، واستهل جهوده فى مصر شاكراً الأمة على ثقتها وحفاوتها ثم قال :

«إننا لم نعد إلا لنقوى عزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ولنشد أزرنا باتحادهم .

ونتأكد من أن الاشتراك فى المفاوضات الرسمية الذى دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادىء التى وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها . ومع الخطة التى رسمتها وتعهدنا بمتابعتها ولا شىء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع

(1) عبد الرحمن الرافعى ، ثورة 1919 ج 2 ص 233

كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة وعاملة على تحقيق غايتها السياسية [1].

ولقد أثبتت الحوادث، أن الوزارة الجديدة كانت تود الاستعانة بالوفد بغير المبادىء التي يراها كممثل للأمة.

ثبتت الثورة حفاظا على مبادئها أمام اتجاه المنحرفين الذى بدىء به الوزارة هادفة وضع التسوية القوميـة فى اطار التسوية الملنرية ولـكنها لم تكد تصمد حتى أخذ ذلك الاتجاه يجذب إليه العناصر المنقسمة بين الوفد من المعتدلين فاذا بها أمام ذلك الاتجاه فى شكل تحالف رجعى يستهدف فى باطنه تحوير الثورة إلى حركة أعيان.

ووقف سعد صامداً بالاتجاه الثورى فى مواجهة الرجعيـة مع قلة من أعضاء الوفد ولـكنه كان يستمدقوته من تأييدالأمة وثقتها الـكبرى كقائد وزعيم، وامتد الموضوع من الوفد إلى صفوف الأمة. فأخذت المعركة إلى القاعدة الشعبية تعبر عن ذاتها بمختلف الوسائل، بين مظاهرات فى شوارع المدن وبين الصحف والاجتماعات وبالخطب ومختلف الأحاديث. ونهضت الثورة فى مواجهة الرجعية عموماً، كما مثلتها الوزارة لخروجها عن إرادة الأمة وتحديها. فحدثت ثمة مظاهرات عدائية للحكومة فى طنطا فى ٢٩ أبريل عام ١٩٢١، تعرضت لها قوات الشرطة ولما عجزت عن تفريقهم لـكثرة عددهم، أطلقت عليهم النيران فأصابت الـكثير من المتظاهرين حتى لقد بلغ عدد الجرحى ٤٠ جريحاً الأمر الذى زاد من حرج الوزارة. ولصق بها تهمة حكم الشعب بالقوة وعبثا حاول عدلى ابراء ذمته منهـا فقد تركت آثارها عميقة بين الشعب.

وسافر الوفد أول يونية سنة ١٩٢١ إلى لندن، وبدأت المفاوضات بينه وبين كرزون وزير خارجية بريطانيا وكانت مرهقة حقاً.

وما أن علمت الجماهير بتأليف ذلك الوفد الرسمى دون اشتراك الوفد، حتى زادت المظاهرات عنفاً، لمواجهة أى تصدع وذلك فى القاهرة والاسكندرية وفى كثير من المدن، واتخذت طابع العداء لـكل من يخالف سعدا فى رأيه، وانتقل الاختلاف فى الرأى

(١) عباس محمود العقاد، سعد زغلول، ص ٣٥٨.

إلى التحريض ضد الخصوم ، وازدادت المظاهرات عنفا فى الاسكندرية وتحولت إلى اضطرابات بين المصريين والأجانب حتى تدخل الجيش والشرطة لقمعها، ولما انحرفت المظاهرات عن معناها نشر سعد نداء فى ٢٤ مايو حث فيه الشعب على حسن معاملة الأجانب ونشر فى اليوم التالى نداء آخر بوقف المظاهرات اتقاء لما يثيره أهل الفتنة فيها من الأعمال واكتفاء بما أظهرته الأمة ، وكان لحوادث الاسكندرية وقعها السىء بين انجلترا .

صممت الوزارة إذن على المفاوضة ولم تتردد فى انجاز ذلك بدون اشتراك الوفد ،وسافر الوفد الرسمى إلى لندن لمفاوضة المسئولين فانصرفت جموعها فى مصر بعد سفر ذلك الوفد الرسمى إلى الثقة بالوزارة ونزع الثقة من سعد وتكفل بهذا وزير الداخلية إذ ذاك عبد الخالق ثروت .

ولقد كانت الفكرة التى ألم بها المستر لويد جورج على حد تعبيره : (هى أنه وإن كان يثق بأن الاتفاق ممكن من جانب الطرفين إلا أنه لضمان الهياج الذى أحدثه زغلول فى مصر وبعث الرأى العام هنا على القلق والحذر ومن شأنه أن يجعل البرلمان الانجليزى لا يطمئن إلى مد نفوذ زعمائه إلى مثل ذلك الشغب والهياج وأن يحمله على الضمانات ، بحيث يصبح الاتفاق متعذراً ، وقد تساءل هل يحسن تأجيل المفاوضات إلى وقت يسود فيه الهدوء وتكون الأحوال أكثر ملاءمة وادعى للثقة والاطمئنان مما هى عليه الآن ، كما أنه لم يخف دهشته من ترك زغلول حراً فى ايقاعه الفتن واحداث الاضطرابات .

وفى العاشر من نوفمبر ، سلم كرزون لعدلى مشروعا بريطانيا ورأى الوفد الرسمى أنه لا يحقق الغاية التى سافر من أجلها للمفاوضة وأهم مواد المشروع :

« انتهاء الحماية والعلاقات الخارجية للإدارة القضائية بالسودان واستخدام الموظفين للادارة المالية — والأحكام الخاصة بالمسئولية العسكرية » .

الوحدة الوطنية فى مواجهة التآمر :

وتجمعت الوحدة الوطنية فى مواجهة الاتجاه البريطانى الآخذ صورة الرجعية

بما أفسد عليه خططه وأهدافه .

وبالرغم من أن الوطنية المصرية كانت قد خرجت من معركة الرجعية متصدعة الوحدة . فقدظلت مستمرة ، وكان لهاأن تمضى ، بقوة الاندفاع الأول ، حتى تحقق كل أهدافها القومية .

وكان أمام بريطانيا إثر فشل المفاوضات خطتان : الأولى ترتيب حالة مؤقتة وفق قواعد مشروع كرزون ، والثانية وهى إخراج عدلى ، لتنفيذ الأحكام التى تضمن ذلك المشروع والاعتراف بها المصريين وتأجيل ما اختلف فيه الطرفان إلى أن يتم الاتفاق عليه .

وسواء أخذت بريطانيا بالأولى أو بالثانية فقد كانت إذ ذاك ترى استحالة إنجاز ما تستهدفه ، والثورة بزعامة سعد تسيطر على مصر بما يفقدها معاونة ذوى النفوذ من المصريين لتنفيذ خطتها ، لذلك كان لابد لها من أجل أهدافها عزل سعد على رأس المتطرفين ، عن السياسة ، ثم ضمان معاونة ذوى النفوذ من المصريين على تحقيق غايتها .

وعاد عدلى إلى مصر بعد فشل المفاوضات وكان الجو بعد عودته وفشل هذه المفاوضات ينبىء بأنه سيكون جوا سياسيا مكفهرا مليئا بالتهديد والوعيد . ولقد عبرت بريطانيا عن طريق اللنبي عن ذلك فى خطاب وجهته إلى السلطان قالت فيه عن اقتراحاتها :

« أنها تعتبر اقتراحاتها هذه سخية فى جوهرها واسعة النطاق فى نتائجها » ثم خلصت من ذلك إلى الوقيعة بين السلطان والمتطرفين » .

ولقد آمنت بريطانيا أنها لاتستطيع بلوغ غايتها عن طريق المعتدلين دون القضاء على الثورة فى العناصر المتطرفة منها ، ويعنى ذلك وأد الحركة الوطنية وقالت عن السياسة التى تبعتها فى الحاضر بأنها « لايمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضاء الأمة المصرية واشتراكها ولكن حكومة بريطانيا تحافظ على الرغبة التى كانت لديها على الدوام

---

(١) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، ص ٢٧٥

وهى العمل على إنماء مواهب المصريين وزيادة عدد الموظفين منهم فى كل نوع سيما الفروع الإدارية والمالية التى كثر فيها عدد الموظفين الأوربيين.

ثم خلصت من ذلك إلى التهديد من جديد للمتطرفين فقالت :

« إذا كان الشعب المصرى يستسلم إلى أمانيه الوطنية فمهما كانت هذه الأمانى صحيحة ومشروعة فى ذاتها ودون أن يكترث اكتراثا كافيا للحقائق التى تستحكم فى الحياة الدولية فإن تقدمه فى سبيل تحقيق مثله الأسمى لا يصيبه التأخر حتى لا تتعرض للخطر تعرضا تاما، إذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن ما على الأمم من الواجبات ومعظم ما لها من الحقوق وأن الزعماء المتطرفين الذين يدعون إلى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون حريتها بما كان لهم من الأثر فى مجرى الحوادث وما قد يهدد أمن بعض الدول الأجنبية خوفا على مصالحها بما أثاروا مخاوفها وكذلك عملوا فى الأسابيع الأخيرة على التأثير فى سير المفاوضات بنداءات مبهمة استثاروا بها العامة، وأن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخدم مصالح مصر بتساهلها إزاء تصريح من هذا القبيل ولن يمكن لمصر أن تسير فى سبيل الرقى إلا متى أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل منع هذا التهييج ، لأن العالم يتألم الآن من جهات عديدة من الاندفاع فى نوع الوطنية المتعصبة ، وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع بشكل شديد سواء فى مصر أو فى غيرها .

ولقد كانت النية تتجه للأخذ بالنقطة الثانية .

وكان اللنبى يسيطر على فكره عاملان أحدهما اعتقاده أن نفوذ بلاده يتوقف على سيادتها البحرية فى البحر المتوسط وطالما احتفظت بهذه السيادة فلا ضير من أن تتساهل مع مصر تساهلا معقولا كما كان يسيطر عليه عامل آخر وهو ضرورة الوصول إلى مخرج من الأزمة التى أحدثها إخفاق الوفد الرسمى البريطانى واستقالة عدلى (١) وكان هذا المخرج هو التمهيد لتطبيق الخطة الثانية بنفى سعد وضمان التعاون مع ذوى النفوذ من المصريين.

---

(١) محمد شفيق غربال ، المفاوضات المصرية الانجليزية ، ص ١٠٨ .

ومهما يكن الأمر فقد استعدت بريطانيا بهذا التشكيل بالمتطرفين تمهيدا لسيطرة الرجعيين على الثورة فى محاولة للوصول بهم إلى مخرج من الأزمة التى حدثت من إخفاق الوفد الرسمى فى المفاوضات وكان على رأس المصريين المتطرفين سعد زغلول ومع أن ذلك إذا كان سهلا لدى بريطانيا فقد كان متوقعا أن تكون آثاره صعبة على مصالحها، ولما سمع الزعيم الكبير ذلك قال : «أيهددوننا بنصب المشانق، ليكن ، نحن مستعدون » ولم يسعه إلا أن لشر نداء ناشد فيه الأمة على التمسك بالاتحاد والعمل على نزع الشهوات الدنيئة منها وكذلك الأحقاد، كما نادى بالتجرد من الهوى فلا يطيب العيش للمصريين حتى يطلق الوطن السجين، ويتمتع باستقلاله التام ، ولم يعتبر ثمة خصم للمصريين إلا الذين أرادوا احتلال مصر .

وختم نداء بدعوة للتماسه بقوله : « انكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية فى العالم وقد خلقتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول دوما عنكم ، اقسموا ولم يبروا بالقسم ، فنثق إذن بقلوب كلها اطمئنان ونفوس ملؤها استبشار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

ونهض اللنبى بتنفيذ إجراءاته وأرسل اللنبى فى ٢٢ ديسمبر بلسان مستشار الداخلية إلى سعد تعليمات تحظر عليه على حسب الأحكام العرفية الخطابة فى الناس أو شهود اجتماع عام أو الكتابة فى الصحافة أو القيام بأى عمل من الأعمال السياسيه، وعليه أن يغادر القاهرة ليقيم فى منزله فى الريف تحت مراقبة المدير ، وما هى إلا ساعات حتى عاد إليه الرد (١) عن طريق مستشار الداخلية جاء فيه : أنه تسلم خطابه ثم قال :

« ... وهو أمر ظالم احتج عليه بكل قوتى ، إذ ليس هناك ما يبرره ، وبما أنى موكل من قبل الأمة السعى لاستقلالها فليس بغيرها سلطة تخلينى عن القيام بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى فى مركزى مخلصاً لواجبى وللقوة أن تفعل ما تشاء إذا عقدت اجتماعات ... »

---

(١) عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ص ٣٨٢

وانتشر الخبر فى أحياء القاهرة فماجت بالحركة وعاهــدت سعد على الثبات فى الجهاد فكانت الجموع تتلاقى فى غير اتفاق سابق متجهة إلى بيت الأمة وكان سعد إذ ذاك يتوقع نفيه للمرة الثانية ولكنه كان يؤكد إيمانه بتغلب الحق على الباطل .

شاء اللنبى بهذا أن يوقع اليأس فى قلوب المصريين . فلقد أرسل تقريره إلى كرزن بإبعاد سعد وشركائه قائلا : بأن سيلان أوفق مكان لأنها معروفة فى الأذهان باعتقال عرابى وذلك من شأنه أن يحدث بين الشعب تأثيرا عظيما ، وأرسل كرزون إلى اللنبى فى ٢٣ ديسمبر رسالة يعلن فيها موافقته على إبعاد سعد وأنصاره إلى سيلان فى أول فرصة كاقتراحه فى تلغرافه المؤرخ فى ٢٣ ديسمبر .

ونفى سعد ولجأت السلطات العسكرية إلى عزل سائر المتطرفين عن الميدان السياسى .

تلك كانت بداية المؤامرة التى اضطلعت بها بريطانيا لتتخلص البلاد من الثورة فتعلن الرجعية التعاون معها ، وتتمكن هى بالتالى من إيجاد حل يصحح مركزها فى وادى النيل على أساس اعتراف المصريين .

على أنه إذا كانت بريطانيا قد شاءت بنفى سعد وعزل المتطرفين عن السياسة واخماد الثورة ، فقد اسرفت فى سوء فهم الموقف وتقديره .

فما أن علمت مصر بنفى سعد للمرة الثانية مع صحبه ، حتى تجددت ثورتها بشكل أثبت به فشل خطة اللنبى بما عرض المصالح البريطانية فى مصر لمزيد من الخطر .

عادت نزعة توحيد الصفوف من جديد ، وأخذت هذه العناصر تستعد لمنازلة الاحتلال والمنشقين عن وحدة العمل الثورى .

وكانت مواضع الخلاف بين المندوب السامى وحكومته تنحصر فى أن الحكومة كانت على استعداد لأن تلغى الحماية بموافقة البرلمان وتعترف باستقلال مصر بشرط أن يقبل المصريون شروطاً تتعلق بضمان المصالح البريطانية، وكان اللنبى يرى فى إلغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ، وأن تعلن فى الوقت نفسه احتفاظها بحرية العمل فى بعض الشئون ، وفقاً لما تقتضيه مصالحها حتى قيام التسوية . . .

وعرضت بريطانيا عليه ذلك ، ورد اللنبي بأن تفوق دولته لايتوقف
الحماية بل على قوتها البحرية والعسكرية المرابطة فى مصر فإذا ما أبلغت بري
باحتفاظها بموقفها فلاخطر إذن من الاعتراف لمصر بالاستقلال عندئذ يمكن
للساسة المصريين التعاون مع المندوب السامى .

وما عاد اللنبي إلى مصر حتى أعلن التصريح المعروف بتصريح ٢٨ ف
١٩٢٢ ، وعلى أثر إعلانه تألفت وزارة عبد الخالق ثروت فى أول مارس .

ولقد اعترفت بريطانيا بالتصريح بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع احت
بصورة مطلقة ، بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة يبقى الحال فى شأنها كما كان عر
وهى : الدفاع عن مصر وحماية الأجانب وحماية الأقليات والسودان .

ولقد جاء ذلك التصريح بعد اعتقال الزعماء ونفيهم ثمرة لتحالف الرجعية ،
رأسها ثروت مع الاحتلال ، خيانة كبرى لوحدة النضال الثورى ، واست
لسابق التآمر على الثورة بنفى زعيمها سعد زغلول انتقاما من قدر العمل الثو
وبداية تحويلها إلى حركة الأعيان بل ومسا لحقوق الأمة فيما جاء
من مميزات سلبت بها بريطانيا .

على أنه بالرغم من هذا فقد دفع ذلك التصريح مع تواضعه ، مركز
السياسى القومى بخطوات إلى الإمام، وكان من الممكن الاستفادة منه فى المزيد
الجولات الناضجة لاستكمال ما كسبته الأمة ، وإذا لم يكن قد ولد بين أمة قدمت
بالانقسام وقد جاء التصريح يسترضى المعتدلين والرجعيين ويثير الثوريين
فكان متوقعاً أن تشهد مصر فى ظله مرحلة من الصراع السياسى المضطرب .

استثار التصريح العناصر الثورية والرجعية فانقسمت الأمة إلى معسكر
سعديين وعدليين وجذب عناصرهما إلى صراع فى البداية حول المبدأ ، و
سعد فى المنفى . فجاءت الأنباء برأيه فى استنكار التصريح واعتباره نكبة وط
حتى بلغ الانقسام أشده وما لبث الصراع أن تحول فى النهاية إلى صراع حول نظا
الحكم الداخلى فى ظل الاستقلال ، ومن ثم كان التصريح بداية تحور النضال القو
إلى نضال سياسى يتناول المسألة المصرية بالعلاج على أساس التجزئة .

وظلت ، الوحدة الوطنية رغم هذا ، متماسكة فى جوهرها تلتف حول مصر والمصالح العليا ، وتترك آثارها على شتى مناحى النشاط فى مصر بتجاربها ودروسها على السواء .

ومن نبعة هـذه الروح التى غرستها الثورة فى النفوس قامت الدعوة لمتابعة البعث الاقتصادى الذى غرست أصوله قبل الثورة فما أن ظهرت دعوة طلعت حرب إلى تأسيس بنك مصر فى أغسطس ١٩١٩ حتى ناصره الشباب تطلعا نحو الاستقلال الاقتصادى فنجحت الدعوة وتأسس البنك .

ومع هذه الروح التى بثتها الثورة ، مكنت الشعب بنتائجها السياسية من السيطرة على مقادير بلاده فى ظل الحكم الدستورى ، وجدت روح الثقة والتجدد والتطلع مجالا للإنتاج وكشفت الثورة للشعب رؤية الطريق وهو ينهض فى أعقاب الثورة مستغلا نواحى الضعف والقوة فيه كما عرف الخصوم والأصدقاء وعرف من تجربة الثورة ما كانت مصر فى حاجة إليه لكسب الجولة الأخيرة من أجل التحرر الكامل والحاجة إلى الجيش القوى والنهضة الاقتصادية ، والقضاء على الاحتلال البريطانى .

وفى ظل الحكم الدستورى على ما كان به من عيوب تمكن الشعب من أن يقوى أدوات النضال القومى وهو الدستور كى يمضى فى الدفاع عن إستقلال الأمة .

الوحدة فى أعقاب الثورة

وقد ظلت القيادات السياسة الوطنية الواعية بعد ذلك تحمى هذه « الوحدة » المقدسة بكل قواها ضد كل المحاولات غير المسئولة من الداخل لتغير شكل الدولة العلمانية أو من الخارج تطبيقا لمبدأ « فرق تسد » .

فعندما أخذ الملك فؤاد يرنو إلى الخلافة الإسلامية يريد بها توطيد سلطته الزمنيه الأتوقراطية فى الداخل على حساب الحكم الدستورى ، وكان ينازعه فيها الحسين ملك الحجاز وفيصل ملك العراق ، هاجم سعد زغلول هذا الإتجاه وتبعه أنصاره والصحف الموالية له .

وكان الاتجاه أن تصطبغ حقيقة توليـــه العرش بالصبغة الدينية ، ولكن

مصطفى النحاس وقف فى وجه البدعة التى ابتكرها ذهن الأمير محمد على المعصب، ورأى فيها « اقحاما للدين فيما ليس من شئونه ؛ وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية» وعبر عن رأيه فى هذا التيار أمام النواب قائلا «الإسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده » .

ونلمس صدى غضب النحاس لتحركات الرجعية الأوتوقراطية المغرضة فى الحقل الدينى ، وعلى رأسها الملك فاروق والأمير محمد على ، وفى المراسلات السرية بين السفير البريطانى المستر مايلز لامبسون ووزير الخارجية البريطانى المستر أنتونى ايدن . ففى رسالة الأول إلى الأخير يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٣٧ كتب يقول أن النحاس باشا قال له أن الملك «يزاول أشد الأفعال خطورة فى الحقل الدينى ، وأنه يعمل كما لو كان أحد أئمة الدين ، وأنه (أى النحاس) قد اعتزم أن يقاوم أى ميل نحو اضطهاد الدين فان قانون البلاد قانون مصرى . وفى الوقت الذى كانت تلعب فيه الرجعية بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ م. بأمل تغيير شكل الدولة القومية العلمانية وإحياء فكرة الخلافة الإسلامية لتثبيت حكم الأوتوقراطية ، وكان السفير البريطانى يكلف أحد أعضاء السفارة البريطانية (وهو هاملتون) بدراسة شاملة لوضع الأقباط فى مصر بعد معاهدة ١٩٣٦ ، لبحث امكانيات الاستفادة من أى الشقاق بين عنصرى الأمة فى الظروف الجديدة التى كانت تمنع التدخل فى شئون مصر الداخلية .

وقد بعث السير مايلز لامبسون بهذه الدراسة فى تقرير هام يوم ٥ يولية ١٩٣٧ صدره بملاحظاته . وفى هذه الدراسة التى تحفل بالمتناقضات ، اعترف هاملتون بأن الدين الإسلامى « ليس فى حد ذاته عقيدة غير متسامحة » وأن القرآن قد أمر بالتسامح ولكن (هاملتون) مع ذلك ادعى وجود « شعور محسوس معاد للأقباط » وفى مصر بعد الاستقلال كذلك فقد اعترف هاملتون بما يملكه « مكرم عبيد » من نفوذ فى سياسة حكومة الوفد ، واعتبره « أكثر الناس نفوذا فى السياسة المصرية » ولكن من جانب آخر نسب إلى حكومة الوفد الميل إلى صبغة الإدارة الحكومية « بلون إسلامى متزايد » كذلك اعترف

« هاملتون » بأن طبقة الفلاحين الأقباط والطبقة الثرية لن تتأثر بالميول الإسلامية المزعومة لحكومة الوفد ، وأن نفوذ الأقباط « يتجاوز كل نسبة عددية لهم » ولكن مع ذلك أخذ يبدى شماتته فى الأقباط لما زعم من أنهم « سوف يفقدون عددا من الوظائف الحكومية خلال الأيام الأولى للاستقلال » وأضاف : « ألم يكونوا من بين أعلى الأصوات التى تطالب بالاستقلال ؟ وهل يمكن الآن التراجع والاعتراف بخطئهم فى مساندة الحركة الوطنية ! »

ويعتبر حجر الزاوية فى هذا التقرير ماورد فى الفقرة الثامنة هذه ، وحيث حاول « هاملتون » عبثا تلمس نقطة الضعف فى البناء الوطنى والقومى المتماسك للأمة المصرية تنفذ منها السياسة البريطانية عند اللزوم ، بعد ان استطاع هذا البناء المتماسك أن يحرر مصر من كثير من القيود فى ذلك الوقت ، فقد زعم أنه يوجد فى الجو ، دون شك ، شعور محسوس معاد الأقباط ، وهذا الشعور ليس خطيرا فى الوقت الحاضر ، وقد لا يصبح كذلك اطلاقا مالم يستغل إثارة اضطرابات معادية للأجانب . ومن هنا يمكن الربط بين هذه الفقرة التى أشرنا إليها والتى يبدى فيها هاملتون شماتته فى الأقباط لدورهم المؤثر فى الحركة الوطنية . ولكن أعداء مصر لا يتعلمون والتاريخ يعيد نفسه . فبالرغم من أن مصر لم تنعم بحكم ذاتى مستقر فى تحقيق أمانيها من فبراير سنة ١٩٢٤ — ١٩٥١ فقد كانت تنعم بوحدة وطنية متماسكة وكان الحكم قاعدة نشطت بطريق مباشر على تجدد المجتمع بعناصر جديدة طليعية وبطريق غير مباشر ، أداة غذت هذا المجتمع بمعان جديدة ومكنته بالتالى عن طريق النضال الثورى ومهدت الطريق لميلاد ثورى جديد على يد جيش مصر ، وبقدر ما كانت مظهراً لهذه الوحدة زادت الوحدة الوطنية به تأكداً وتماسكا .

الباب الثانى

أصالة الطابع الوطنى

فى الشخصية المصرية

نشأ الطابع الوطنى للشخصية المصرية وتطور عبر التاريخ ثمرة للبيئة الطبيعية والإجتماعية على مراحل فى وحدة من السمات مستمرة تنتهل من البيئتين قدرة على الاستمرار على نحو لايتغير إلا بقدر تغير البيئة الاجتماعية تغيراً لا يمتد إلى الأعماق فهو طابع يكاد ينتمى بطريقة ما إلى طابع آخر دون أن يكون هناك فهو بتأثير البيئة الجغرافية يوجد فى مصر ولكنه يمتد بسبب ما إلى تأثير البيئة الإجتماعية الاستمارية عبر التاريخ وهو طابع مصرى فرعونى بالجدول لكنه عربى أيضاً بالأب ومعنى هذا أنه خليط بين أضداد يجمع بين سمات متعددة ثنية خصبة على نحو يولد فيه موازنة الوسط .

ولقد سلك الطابع القومى أساس إنسانى واحد قام جوهره عليه منذ أن نشأ، وإن اختلفت مراحله اختلافاً فى الدرجة وبالتالى من حيث الإيجابية والسلبية لم يكن الفرد ولا الفردية محور بناء الجماعة المصرية كأنعكاس تأثير البيئتين الطبيعية والاجتماعية بخصائصهما الخاصة ومن ثم قامت الجماعة المصرية على أساس النزعة الجماعية، فلا غرو أن اتسم الطابع القومى بهذه السمة الإنسانية وبالرغم من ضعف الفردية منذ النشأة الأولى فقد كان الطابع القومى إيجابياً فمن خلال معايير الجماعة ومنظماتها ومنذ أن توحد الكل فى واحد كان الفرد يستعيد الثقة والشعور الذاتى والأمن والنظام على نحو قام على وعى إنسانى يمنح ويعطى أكثر مما يأخذ، فكان ثمة الرضا والقناعة والكرم والاستغراق فى الوعي الدينى والتوحد والطاعة والتوسط والإتزان وكلها سمات تتميز بالإنسانية، ولما انتقل الطابع القومى

إلى عهد التبعية (١) السياسية أخذ يفقدفى صراعه معها جزءا من مكونات إيجابيته فبدا إيجابياً فى سلبيته من هـــذه البيئة فى عزلة ثم تتبع ذلك بصراع مع هذه التبعيه فى معركة غير متكافئةوفى ظل كف العدوان أخذ يتسم بخصائص من السلبية افتقد بها جزءاً من إيجابيته ، وكان من مظاهر ذلك سمة اللا مبالاة ومانفرع منها التى ظلت واستمرت بما وجدته من غذاء فى العهود التالية دون تغير إلا قليلا .

وأخذ الطابع القومى فى ظل المسيحية والإسلام يتحد بنمو الفردية ولا يتغير بتغير الجوهروهو الجماعية التى كان يقوم عليها المجتمع. وقد بدت هذه النزعة فى ظل الإسلام متوازنة تسم سماته بلون جديد من الإيجابية ولـكن ما كاد الإسلام يمضى فى ذلك حتى كان عهد الإقطاع الشرقى بما فرضه من ألوان التبعية. إذ ذاك وجدت السلبية فى ظله زاداً جديداً تجلى بشتى أساليب التعبير حتى إذا ما انتقل إلى العصر الحديث واجه تغيراً أعمق إذ أخذت الفردية تقتحم عليه مـكانه ومعاقله لتغير من سماته ولـكن برغم مااعتراه من تجدد لم يبلغ التغيرجوهره لأن التجديد كان يتجلى من خلال روح هذا الطابع التى نهلت أولا من ينابيع البيئة المصرية وإن تمـكن فى العصر الحديث من المزيد من الإيجابية على أسس حديثة .

وقد أتسم الطابع القومى للشخصية المصرية بالوحدة والاستمرار عبر التاريخ بالإيجابية والسلبية على السواء ، ولـكنه إذ يبدو اليوم فى غير توازن بين الناحيتين فقد بدأ التـكافؤ يتجلى بينهما ويزداد مع الأيام طابعاً قومياً غربياً إسلامياً قاعدته من روح البيئة المصرية وسطحه مزيج من بناء عربى إسلامى حديث فى صدق تاريخى ويعطيها زادها على الطريق الطويل من ناحيتها وقدرة على الاستمرار بما وطنت عليه من صلابة وإصرار وحكمة. فالشعب الذى استطاع أن يصمد محتفظا بهذه الوحدة رغم الـكوارث والغزوات الأجنبية لهقوة سرية قادرة على الاستمرار فى الحاضر فى مواجهة العصر الحديث على أن الأمر فى حقيقته لم يقف عند ذلك بل جاوز حد الاعتدال .

---

(١) د . عبد العزيز رفاعى ، الطابع القومى للشخصية المصرية ص ٨٣٠

الفصل الأول

الوحدة الوطنية

إحدى سمات الشخصية المصرية

تجلت الوحدة الوطنية عبر التاريخ سمة أساسية من سمات الطابع المصرى قوامها قناعة ورضا وتقدير وإعجاب وحب وطاعة وقد نبعت أصولها من الماضى العريق كسائر سمات الطابع المصرى من البيئة الطبيعية ولكن غلبت عليها أحيانا السمة الحضارية للأسرة كانت الأسرة فى الماضى ثمرة بيئة صالحة لاستنبات معايير إجتماعية مصدرها الحضارة فقد أغنى الحكيم بتاح حتب الأدب المصرى القديم بالنصائح فى آداب الأسرة حاثا على رعاية الأم والزوجة بما يشيع الرحمة والحب فى البيت ولقد أصل قدم مصر الزراعية بالحضارة حب الأسرة حتى غدا ذلك سمة يعرف بها كل مصرى تقريبا .

ومن خلال الأسرة تكون نظرة المصرى معبرة عن معاييرها مؤثرة بها فى السلوك الاجتماعى وهى فى نظر المصرى جوهر العلاقات كلها وقد يتمرد المرء على كل شىء ولكن يقف تمرده عند حدود العلاقات البيتية وتتجلى تلك النزعة بين جميع أفراد الشعب تقريباً حتى اللصوص والمعوزين والشيوخ لتأخذهم هذه العاطفة العميقة الجذور .

وتبدو الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ وهى قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته وفى الأدب المصرى القديم تعرف وصايا الأسرة كما تجلت فى وصايا « بتاح حتب » التى كتبت قبل أكثر من ٤٦ قرنا وقد جاء فيها « إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طول حياتها » ولا تنسى الوصية توقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك وفى نسخة من وصية محفوظة فى

مخطوطات الأسرة ، يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجة فى شبابك تنجب لك ولداً تربيه وأنت فى صباك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذى له أسرة كبيرة إن الناس يوقرونه من أجل بيته » وفى هذه الوصايا يقول الحكيم « ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وظلت تحملك بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك فلم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط ماذا أصنع بهذا وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ووفرت لك الخبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا يصيبك الضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها إلى شكاية » .

وبمثل هذه الوصايا التى كانت من معايير المجتمع الفرعونى القديم قويت الأسرة ولم تتغير بهذه الوصايا فقد زادها الإسلام دعماً والعصر الحديث فهماً ومن حب الأسرة نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظاً شديد المحافظة ثائراً متأهباً للتمرد فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة لصيانة العادات والتقاليد وقد يعجب المرء كيف يثور شعب وديع . إن الذى يثور هو الوديع المحافظ المغرق فى المحافظة .

إن المصرى ينسى كل شىء إلا وشائج الرحم والأسرة ومن الأخلاق التى تلازم حب الأسرة غيرة الزوجة وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه . فالمصرى يروض نفسه على الضنك ولا يروض نفسه على ابتذال البيت وثمة فرق بين المصرى فى هــــذا وبين البدوى كلاهما يأبى أن يبتذل عرضه ويثور على من ينتهك حرمته ولكن الأول يأبى ذلك كما تأبى أن يداس على مصادر عيشه وموارد مياهه وهو يغضب للزوجة وكأنه يغضب فى الحرب فالاعتداء على الزوجة عنده هو بمثابة هزيمة فى حرب أما المصرى فيغار على الزوجة إبداعاً كإبداع الحضارة اعتزازاً بصداقة وأرحاماً أمينة وضناً بعلاقات ألفها وهو إذ يغضب إنما يغضب لقرابة تقطع أو محراب يهان وثمة فرق إذن بين غيرة منشؤها أدب الأسرة وغيرة منشؤها سلوكى وطبقى وهو القتال .

إن المصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وهو أقوى ما يربطه بالمجتمع والأمة فلم تكن الحكومة لديه عموماً تمتزج بنفسه امتزاج الألفة وكان اعراضه عنها أمراً زاد اعتماده على الأسرة وحصر عواطفة الإنسانية فى علاقاته البيتية فى جميع العصور لأنها كانت مهرباً أمينا من القوة والمظالم وغاية ما يخامره من أمر الحكومة أنها أمر يدارى . علاقته بالحكومة مهادنة محتملة وليست علاقة ود إلا نادراً ثم كان محافظاً ومتحفزاً للتغيير فى وقت واحد وغاية ما يظفر منه الإصلاح بالترحيب أن يمتزج ذلك بنظام البيت والأسرة ويتسرب إلى حياته من خلال عواطف الأرحام فلم يكن اشتغال المصريين بالسياسة يتعدى جانب التحرى والمصرى . إذ ينقاد للسياسة ينقاد لأن الطاعة فى ذلك أشبه بنظام الأسرة .

ومن خلال الأسرة، تكون علاقة الإنسان بالآخرين فى المعاملات وشتى التقاليد ففى مراسم الزواج يحتل العرف مكان الصدارة إذ يقضى بتفضيل الزواج من الداخل على الزواج الخارجى فالأبناء العم الأولية على أبناء الخال وفى ظل ذلك كله تتجلى آثار الأقوال التى تنظم السلوك فثمة من يقول « احترم أبوك ولو كان صعلوك واحترم كبيرك يحترمك صغيرك » ويتعدى حب الأسرة حتى النظر من خلال معاييرها إلى الجيران ، فالأمثال توصى بالجار خيراً فتنها « أحسن لجارك ولو أساء .. اختار الجار قبل الدار » فى هذا المجتمع يسود التعاون والترابط الروحى وتذيع فيه أقوال بالتعاون مثل « اللى ياكل لوحده يزور، وإيد على إيد تنكتر وتزيد » .

ومن خلال العلاقات الأسرية وقيمتها يكون اندماج الفلاح بأرضه حيث تستقر العائلة وتحنو عليه البيئة بخيرها فهو يرتبط بها بوشائج عميقة .

ومن خلال حب الأسرة ، كانت عنايته بالموتى والعالم الآخر عنايته بالذرية حتى لاتضيع فى ظنه تماماً . وقد كان من ذلك اهتمام المصرى بتحنيط الجثة قديما لتكون مصدر الحياة بعد الموت ولا تعدو التقاليد والعادات الجنائزية اليوم جزءاً من حب أسلاف الأسرة ومن الوفاء للأسرة يفسر البكاء الشديد والنحيب على المفقودين وعلى الغرباء والمسافرين وهو جزء من البكائيات الجنائزية وإذا يبدو

هذا الارتباط بالأرض والقرية مرتبطا بكيان الأسرة فإنه متصل أيضاً بذلك عن طريق آخر وهو ارتباط الفلاح بماضيها فهو يوفر ماقاله السابقون، ويوفر كذلك حركة الشيوخ لمستوى فعاليتها لفعالية حركة الآباء ، فالرعاية تجمع بين الطرفين ومادام المصرى محافظاً من خلال الأسرة ومجتمع القرية ومادام ميراثه من الماضى ومن مسلماته ومادامت البيئة توفر له الاستقرار لذلك فهو يتحرز عن كل جديد. وتكشف الأمثال ذلك ومنها مايقول «اللى مالوش قديم مالوش جديد، واللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش » ويتمثل ذلك بين جميع المصريين طابعاً قوميا ولكنه يتجلى واضحاً عميقا بين الفلاحين والعمال. ويبدو خفيفاً بين الصفوة من سكان المدن التى انسحبت عليها الحضارة الحديثة ولكن دون أن يفقد أساساً. فمع امتداد الحضارة الغربية نشأت الفردية شعوراً ذاتياً يتجلى فى البداية من خلال الولاء الأسرة ويتهيأ لأن يتعدى حدودها إلى الولاء الأسرة الكبرى الأمة. وغدا المرء ينظر المجتمع من خلال ذاته ومن ثم أخذت بعض العادات تتفكك وتتلاشى بوصفها غير ذات موضوع وأخذت النظرة المجتمع تتسم بالعلانية بعد أن كانت من قبل وجدانية فحررت الأسرة من الغلو فى المشاعر والعلاقات الاجتماعية. فهى تعبر عن عواطفها فى حدودها وإذ لا يمثل ذلك إلا من الصفوة فقد غدا المجتمع بهذا وذاك ينظر إلى الأمور بميزانين أحدهما تقليدى والآخر تجديدى حديث ولكن دون انفصال لأن الحديث يقوم فى أصوله على القديم وبينما نجد السوية بين الريف نجـــد الازدواجية فى فرد المدينة على نحو لا يمثل انفصاماً مرضياً فى الشخصية .

لقد عاشت الأسرة المصرية ولا تزال متماسكة فلا غرو أن تكون الوحدة الوطنية قوية وهى نبعها الكبير .

الفصل الثاني

الطابع الوطني المصري

بين طوابع الشعوب

يتميز الطابع الوطني للشخصية المصرية بسمات تميزه عن غيره من شعوب المجتمع الدولي ولكنه من حيث الجزء قد يشترك مع هذه الشعوب أو تلك ببعض السمات، وقد يختلف معها من حيث الدرجة فهو في الغرب ولكنه ليس غربياً وهو في الشرق ولكنه ليس شرقياً. ولكنه ككل طابع قومي متميز يتجلى ذلك إذا نظرنا إلى الشعوب المجاورة نظرة مقارنة فباختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية بين مصر والصحاري المجاورة كان ثمة اختلاف بين سكانها على نحو يتسم بطابع خاص في نوع المعيشة والأخلاق. ويقوم الفرق بين مصر وجيرانها عموماً في هذا المجال بمقدار الفرق بين الفردية بين الجانبين فالنزعة الفردية لدى أهل البادية واضحة لا تعلوها مسحة اجتماعية إلا في إطار القبيلة ولكنها لدى المصري فرديه اجتماعية إنسانية قبل كل شيء فليس لدى البدوي ما لدى المصري من سمات الرضا والقناعة. والفرق بين الاثنين ليس فرقاً بين بيئة الجنوب وبيئة الغرب ولكنه فرق يرتكز على درجة الفردية، فالفردية بين البدوي واضحة تؤثر في جميع مستويات السلوك الاجتماعي فحيث الاستقرار في نظم الحكم والحياة بين المصريين لا نرى البدو إلا متنافسين حول الرياسة وقل أن يسلم الواحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو أكبر عشيرته، تتعدد بينهم الحكام والأمراء وتختلف بينهم الأيدي على الرعية. وبينما ينطبع المصري على الطاعة نجد البدوي من أصعب الأمم قيادة، فالحياة السياسية بين المصريين مستقرة طوال عهدها بالسياسة والحكم على نحو يفوق غيرها في الشرق والغرب. إن المصري يثور لكرامته ولكن في غير تعصب بينما يغضب البدوي لأقل شيء ويسرع إلى الحرب ويميل الطرفان

الحرية ، ولكنها فردية عند البدو واجتماعية لدى المصرى. ويزع الطرفان نحو المساواة ولكن الأول يمارسها فى حدود القبيلة ويمارسها الثانى من خلال المعايير الإنسانية والبدو شجعان كالمصريين وكلا الطرفين يقوم بالمدافعة عن نفسه ولا يكلها إلى سواه ولكن ثمة فرق بين شجاعة الاثنين شجاعة شعب مصرى مستقر فى بيئته لم يكن فى حاجة للعدوان إلا بقدر الدفاع ولكنها قبل كل شيء شجاعة الكريم الذى يندفع فى سلوكه من خلال المبدأ لنصرة الخير فيضحى من أجل ذلك بالكثير . ويشترك الاثنان فى العطاء والكرم ولكنهما يختلفان فى ذلك من حيث الطبيعة والدافع .

لقد كان البؤس هو الذى جعل الكرم وإطعام الفقير فى البادية وإيقاد النار ليهتدى بها الضيف فى مقدمة الفضائل، الفقر هو الذى حبب إليهم الإغارة على ما شاءوا وقد جعلتهم الحياة فى حاجة إلى أمن ومن ثم كانت الحاجة إلى الشجاعة والوفاء من كبريات الفضائل عملا وظيفياً. فالكرم فى مصر كرم فى النفس والبيئة وهما أولا مصدر العطاء الوفير يمارسه المصريون من حيث المبدأ .

ويختلف الاثنان أيضاً فى النظرة إلى الإحسان فالإحسان يأخذ من المصرى مبلغاً كبيراً ولكن بينما يثير الإحسان فى البدوى الحقد على مصدر الإحسان والشعور بالخضوع والكراهية نجده لدى المصرى يواجه بالامتنان والشكر وبين البدوى والمصرى حب الأسرة ولكنهما يختلفان من حيث الدرجة فى الطبيعة وفى النزعة الاجتماعيه ، فبينما نجد طاعة البدوى للأسرة طاعة قد تعلو عليها سلطة الفرد نجدها لدى المصرى طاعة مطلقة ومصدر استقرار وتماسك فالبدوى يدافع عن شرف الأسرة كمن يخوض فى معركة يستهدف منها النصر . والمصرى عندما يدافع عن شرف الأسرة يعكس مدى إيمانه بالمبادىء وليس البدوى كالمصرى محباً للفكاهة لاختلاف البيئة الطبيعيه وموسيقاها ورقتها فى النفوس، بينما تبدو موسيقى الصحراء فى وحدة متكررة عابثة رهيبة فلا عجب أن ترى أهل الصحراء وقد استولى عليهم انقباض النفس أو الكآبة أو الوجد . والفكاهة لدى المصرى دلالة ذكاء أما البدوى فيستتبع مزاجه العصبى أنه يظهر ذكاءه

فى تعبيراته ولكن ثمة فرق بين الذكاءين فذكاء المصرى خلاق أما البدوى فلسانه أمهر من عقله .

والبدوى عكس المصرى من حيث الخيال فخيال الأول محدود قلما يرسم له ولكن المصرى يمتاز بخصب الخيال وقد كان ذلك سبباً لمعرفة المثل العليا ويتجلى خياله فى شتى الفنون .

ومن الشعوب المجاورة أيضا شعوب البحر المتوسط وهنا نجد أيضا فى الطابع القومى المصرى تميزاً واضحاً ففيها من هذا الطابع الكثير كما فى هذا الطابع منها الكثير ولكنه يظل طابعاً مصريا مميزا ككل. والاختلاف بين الطرفين هو بقدر اختلاف البيئتين لاسيما البيئة الطبيعية فمناخ مصر يدعو إلى السكينة والهدوء بينما يدعو فى البحر الأبيض المتوسط إلى الإثارة ، فثمة بين سكان فرنسا رياح عاتية تلعب دورها فى حياتهم وتؤثر على السلوك الفردى ورياح شمالية تثير الأعصاب. ولكن لا يتصف مناخ مصر بذلك ، ومن البيئة الجغرافية تكونت روح الشعوب حيث تكونت الروح المصرية وتكونت الروح اللاتينية من جغرافية البحر المتوسط وباختلاف الفئتين اختلفتا فى محور الطابع القومى وهو الفردية فبينما مصر لا تميل عامة إلى الفردية تميل إلى ذلك بيئة البحر المتوسط بيئة الأراضى المقسمة والسهول المنعزلة عن بعضها البعض والمحاطة بالجبال والسواحل المتشابكة ، جغرافية الجفاف والفيضانات الغزيرة وثمة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اللاتينية فرق تام على أساس الفرق بين درجة الفردية بين الاثنين وبينما تعتبر سيكولوجية الشعوب اللاتينية سيكولجية الشباب الذى بلغ سن الرشد نجدها فى مصر سيكولوجية شعب ظهر ونضج مبكراً لا يعد فى سلوكه إلا رجلا فى سن الوقار وتختلف السمحات بين الطابع القومى المصرى وطوابع هذه الشعوب اللاتينية من حيث الدرجة فالقناعة والرضا فى سمات الطابع المصرى موجودة ولكنها أمر نسبي بين طوابع الشعوب المحيطة وكان من آثار ذلك الكثير ، اتسام هذه الشعوب بالشك وتميز المصريين بالتفاؤل فى استطاعة اللاتين التفريق بين المبادىء وطرق تطبيقها بما يباعد بينهم وبين النفاق والمداهنة والرياء وعدم المبالاة . ويدين المصريون للحضارة المصرية والإسلامية

بمعايير الأخلاق والتكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة كما يدين اللاتين لروما بطابعهم الخاص فى ذلك التكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة والقبيلة وكذلك يدينون لها بمفهوم القانون .

ومفهوم القانون عند الطابع المصرى غيره بين شعوب اللاتين. فالأول يقوم على الثقة التى تعتبر أيضا جوهر القانون الانجليزى، بينما يقوم ذلك بين الشعوب اللاتينية على التحرر والواقعية وهو بهذا قانون مكتوب وعند اللاتين تعتبر سلطة الدولة خارجة عن سلطة الفرد وأعلى من السلطة وكأنها سلطة عظيمة الخطر وواجب الفرد حماية نفسه من هذه السلطة فالدول بهذا لا تبدو أمام الفرد رحيمة ومن هنا كان سر العاطفة الحماسية التى تتسلح بها الشعوب اللاتينية فى معاركهم السياسية، بينما تعتبر الدولة لدى الآنجلو ساكسون تعبيراً عن الجماعة وأداة المواطنين، ولا جدال فى اختلاف الطابع الوطنى المصرى فى ذلك حول مفهوم الدولة فرغم امتداد الحضارة الغربية إلينا لا يزال ذلك الخلف المنحدر من القديم ممثلا فى سمات ذلك الطابع القومى فالفرد ينظر إلى الدولة من خلال نظرته للأسرة ويجد من المعايير القديمة مايعمل على إدماج الكل فى واحد إذا ما كانت الدولة إمتدادا لهذا الكل، عندئذ لا يحاسبها وقد يختلف معها فلا يملك من موقف غير العزلة منسحبا إلى داخل ذاته فهو لا يهمه صلاحها بقدر ما يهمه صلاح الأسرة ولكنه يحاربها إذا ما مندت بالمساس بمقدسات هذه الأسرة لأنها عندئذ تكون ، قد خرجت على معاييرها. والشعب اللاتينى أقدر من المصرى فى القدرة على التحليل لأن المصرى يميل إلى البساطة والوضوح ولا يميل فى تفكيره إلى الالتواء ،فنظرته إلى الأمور بهذا تبعده عن الفلسفة وهو بهذا أبعد عن التعميم أما فيما يتعلق بالمصالح المادية فالمصرى لا يميل بذلك الوضوح إلى الانتهازية الرخيصة كما يميل إليها اللاتينى ، ومن هنا الفرق الأساسى بين الشخصين يتميز الطابع المصرى متسماً بالكرم والعطاء أكثر من الأخذ على نحو لا يعرفه اللاتينى قدراً لا نوعا وعلى ذلك تجد الفرد فى مصر فى إطار الفردية الاجتماعية يتسم بالتواضع بينما يتسم اللاتينى من خلال نظرته الفردية بالكبرياء والزهو قد يضحى فى سبيل نجاحه الشخصى غير متورع بنجاح

الجماعة أما فى طريقته الخاصة فيؤمن بالشك ويملك الإحساس بالواقعية وهي سمات يأخذ منها المصرى بقدر ومقدار ولكنها ليست من سماته، وثمة سمات مشتركة بين الشعبين بين عنصرى الفلاح والكاتب الفرنسى، فكلاهما يرتبط بشدة بأسرته وأرضه وبكل ما يشده إلى بيته . وكل ذلك يتجلى (١) فى فرنسا فى الحياة الخاصة ويتجلى فى مصر على أوسع الحدود وكل من الشعبين يحب الأسرة كسائر الشعوب، ولكن حب مصر الأسرة فياض بالإنسانية، فنجد الفرنسى كرب عائلة وعضو فى هذه الأسرة يحرص على المصلحة المادية فى عاطفة مشبوبة تجاه الملكية الفردية ، ويتسم بروح الادخار التى قد تتحول إلى ضيق فى الأفق وهو أمر يناقض اتجاها واضحاً نحو الجماعية المثالية ، وهو إذا ما اطمأن على مصالحه يسمو إلى التحرر الفكرى ، أما المصرى فسمح فى العطاء ولا يحرص كثيراً على المال ، والفرنسى بفرديته يفكر بنفسه ولا ينحنى أمام سلطة ، إذن فهو ليس من أولئك الذين يؤمنون بالدكتاتورية ، ولكن المصرى لو اتبع أمرا أقامه بنفسه إنساق إليه بطبيعته الطيبة لانخفاض مستوى الفردية عند الشعوب اللاتينية ، فلا عجب إذن أن يتسم الحكم فى مصر بالاستقرار والدوام والبعد عن الاضطراب، وبينما يميل الشعب المصرى إلى مخاطبة الوجدان والعقل ، يتميز الفرنسى بمخاطبة العقل والمنطق. فثمة فرق بين شعب يقدم العقل على العاطفة وآخر يفعل العكس ، وبينما يتطلب العرف فى مصر أن يكون الفرد طيباً أولا يجرى العرف فى فرنسا على أن يكون عاقلا أولا .

لقد خضعت فرنسا للدين كما خضعت مصر ولكن كان ثمة فرق فى النزعتين انعكاس للفرق بين طبيعة الشخصيتين ، كان خضوع مصر ولا يزال استغراقاً فى الوعى الدينى ولكن فرنسا قاومت الدين عن طريق مذهب الشك وهو إذا كان متشككا فى الدين فإنه يتصرف فى حياته ويعيش فى إطار الفكر الرومانى بينما لم يكن المصرى متزمتاً متشككا ، إنه يعيش فى الحاضر من خلال قيم القديم، وكما يختلف الطابع القومى بين مصر والشعوب اللاتينية، عامة كما تجلى على سبيل المثال فى فرنسا يختلف أيضاً مع الطابع البريطانى والألمانى وغيره ، فالشعب البريطانى

---

(١) ستفجريد سيكولوجيا بعض الشعوب ص٤٧ مترجمة

وهو جماع من الكلت والساكسون يقوم بناؤه على تكوين تاريخى لهذه الشعوب ، وهى بيئتة الطبيعه فبينما يمثل طابع مصر طابعاً عريقاً يتمثل طابع بريطانيا بالحداثة فى الوجود ، ويختلف المصرى عن الإنجليزى كلية فقد طبعه المناخ البحرى على سمات خاصة والإنجليزى لا يتواضع فى أن يصور نفسة بالغباء ولكنه ذا طبيعة خاصة فهو ينفر من الذكاء القائم على المنطق كذكاء الفرنسى، ويرى أن المشاكل لا تحل بطريقه هندسية ، وهو عكس التفكير المصرى فالإنجليزى وهو من بيئة بحرية يتصرف فى حياته تصرف ربان السفينه بتطور فى جو من عدم الاستقرار ويؤمن بالتطور فى غير عنف ، والمصرى فردى اجتماعى خلقيا والإنجليزى فردى ذاتى ، وثمه فرق بين النزعتين ، والمصرى مطيع عن طابع وطبيعة الإنجليزى مطيع برغبة ؛ والمصرى يميل إلى النظام فى إطار الولاء نحو النظام أما الإنجليزى فولاؤه للنظام فى حرية ، والفردية فى مصر إجتماعية وهى مغايرة لوجود الفرديه بين الإنجليز والفرنسيين.

ويختلف الطابع المصرى أيضاً عن الطابع الألمانى تميزاً إن لم تعرف العنصرية ولا التعصب الدينى ولا رفضت الاختلاط الصحى بالغير. كان التسامح الدينى اسلوبها ولا يزال والتعصب الدينى والحروب الدمويه الداخلية لم تعرفها كما عرفتها أوربا وكان التشيع والإضطهاد يأتيها من الخارج كما حدث فى فتره الإضطهاد الدينى فى المسيحية الأولى وكما حدث فى عهد الفاطميين عندما أدخل هؤلاء الشيعه .

ويبرز التوازن والاتزان عن طريق الاستعانة والتعايش بين القديم والجديد، وأصبح من الممكن أن ترى كيف يعيش الماضى فى حاضر مصر ، إن الطريق المصرى هو التوسط تقبل التجديدات دون نبذ القديم والتمسك بالاثنين جنباً إلى جنب والتوسط والاتزان سمات عامة فى كل جوانب الوجود المصرى ، وقد تجلت هذه السمة على التوازن بين سائر السمات فنزعة القديم بل عن حذر وتقدير، والبساطه ليست فى غلواء والطاعة ليست خضوعاً وسلبا، واللامبالاة ليست مطلقة والفكاهة ليست هذراً، وانك لتجد هذه الملكة فى مجرى التاريخ واضحة. فلم تجد فى الثورات غلوا وكانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أروع مثال على ذلك التوازن فهى تركيب بين القرار والنقيض وسط يجمع بين النقيضين لا هى باليمينية ولا هى باليسارية بل تأليفاً بين نقيضين فى تطور جديد لخدمة مصر والعروبة .

الباب الثالث

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

والوحدة الوطنية

انطلقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ امتدادا لمد قومى ضارب بجذوره فى أعماق التاريخ .

وما انطلقت . . . حتى لقيت تأييداً شعبياً نم عن تماسك شعبي كبير ووحدة وطنية صادقة .

وبفضل تماسك هذه الوحدة الوطنية نجحت الثورة فى تحقيق أهدافها ، وقد سارت تحقيقا لإنجازاتها الثورية فى المجالات المختلفة .

وحفاظا على هـذه الوحدة الوطنية . قامت الثورة فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بإلغاء الأحزاب السياسية باعتبارها أوكارا الفساد السياسى والتلاعب بحقوق الوطن ، ثم قامت بإنشاء هيئة التحرير فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ لمواجهة الاحتلال المتربص وتكتلات القوى المضادة للثورة ، وخاصة بعد حل الأحزاب السياسية ومتطلبات الهدف المشترك الأساسى والعاجل وهو تحرير الأرض وتمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد ، ثم ظهر الاتحاد القومى فى ١٩٥٧/٥/٢٨ كضرورة لمرحلة تدعيم الاستقلال الوطنى فى أعقاب العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ ، وبعد تمصير الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أى جاء فى المرحلة التى كانت المهمة الأساسيه فيها هى التنمية الاقتصادية وبناء اقتصاد قومى قوى والبدء فى الانتقال بالمجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم ، ثم تبلورت هـــذه التجارب فى عام ١٩٦٢ فى تجربة أخيرة هى الاتحاد الاشتراكى العربى باعتباره الممثل لتحالف قوى الشعب العاملة ، وقائد العمل الوطنى ، والتجسيد الحى للوحدة الوطنية المقدسة .

الفصل الأول

إنطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

نهاية مـــد قومى

من أصول كانت تتهيأ وتختمر مع الأيام فى أعماق المجتمع العربى فى مصر الحديثة ، وتعبر عن ذاتها فى سلسلة من الانبثاقات القومية ، انطلقت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مرحلة عليا كذروة لنضالنا القومى ، نضالا مصريا ثورياً عربياً فى أسلوب جديد ومنهج جديد وأبعـــاد لمرحلة جديدة فى مجرى القومية العربية .

وكان النضال القومى من قبل نضالا بضرورة التماسك والوعى السياسى القومى ، لا تـكاد تنبثق حتى تنال منه قوى معادية كانت انعكاسا لتركيب المجتمع القائم وقوى الاستعمار .

بدأ ذلك إشراقا قومياً فى مصر الحديثة فى بداية القرن التاسع عشر ، وما لبث أن منى بالنـكسة ، ثم تجلى فى ثورة عرابى التى كانت ذروة ذلك المد القومى فى علاج النـكسة . ونظراً لحاجة ذلك النضال إلى مزيد من الوعى القومى السياسى بالذات جاءت النـكسة باحتلال مصر . ولـكن ما لبث الروح القومى أن عاد فى نهاية هذا القرن وطليعة القرن العشرين ، يكافح الاحتلال حتى تجلى على يد المثقفين بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم انتهى بامتداد تجدد المجتمع المصرى بثورة عام ١٩١٩ الشعبية ، ثورة مثلت مرحلة أعلى فى مجرى نضالنا القومى ، وهى وإن لم تحقق أهداف ذلك النضال كلها إلا أنها نقلته إلى مشارف ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وكان طبيعياً أن يستمر الاتجاه القومى فى نموه قدما وهو ينبعث من أعماق المجتمع العريق إلى غايته حتى يحققها ، فلما تحالفت فى نهاية الشوط قوى الاتجاه المعادى له وبلغ ذلك التحدى ذروته كانت حتمية التاريخ فى مجرى المد القومى أن يكون فى مراحله العليا ، كاستجابة لهذا التحدى ، ثورة يكون مركز الثقل فيها

طليعة ثائرة من الجيش وبأسلوبه بعد أن توافرت لديه حوافز الثورة لمعالجة الموقف كله علاجا جذريا .

وإذ تمثل ثورة ٢٣ يوليو نهاية مد قومى فقد مثلت قيادتها ومنهجها وأسلوبها بداية حقة لنضال ثورى يفرضه الوجود العربى ومن مستلزمات بعثه ، ولقد نشأت عناصرها من صميم المجتمع العربى المعاصر فى مصر نشأة ثورية من وحدة بناء الجيل الصاعد الذى نشأ حرا فيما بين الحربين يجدد من الطبقة المتوسطة ويتأثر بالحوادث انفعالا ، يراقبها ويتابعها تحفزا لمعالجتها .

ومن خلال المبدأ القومى أخذ أفرادها يتابعون سير الأحداث من خلال مبادئهم القومية ويدركونها وزنا من خلال معاييرهم القومية فيتأثرون بها بأسلوب خاص، ويضعون أيديهم على عناصر الداء ، من تحكم الاقطاع والاستعمار والسراى والرأسمالية ومدى حرمان سواد الشعب من خيرات بلاده . ويتابعون بألم فساد الحياة النيابية وحرمان البلاد من حرية الرأى وانحلال المجتمع وانسحاب ذلك الفساد إلى الجيش مستنداً إلى الاستعمار .

وكانت حرب فلسطين عاملا كبيراً فى تغذية الشعور القومى بين الجيش. فقد أخذ الجيش من خلالها يدرك إدراكا مباشراً مدى فساد نظام الحكم، وتحكم الاقطاع ثم يحس بقبضة ذلك الاستعمار التى حالت دون تطور الجيش .

وفى حين كان هؤلاء من الطليعة يرقبون الأحداث من خلال المبدأ القومى كانوا يشهدون كفاح الطليعة من المدنيين من الشعب فى كفاحها من أجل الجلاء واستعدادها على مر الأيام لتضحيات كبرى، وإصرار الاستعمار على البقاء مما اضطر الحكومة لإلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى عام ١٩٥١ ، الأمر الذى زادهم شعوراً بالواجب وفتح أمامهم الطريق للعمل فاسهموا فى الكفاح المسلح الذى بدأ فى أعقاب إلغاء هذه المعاهدة.

وفى حين كان ذلك المد يمضى قدما كانت الأحداث تفتح أمامهم الطريق لأن يتقدموا الصفوف ويتزعموا الشعب للنضال ضد الاستعمار والرجعية وتمادى الاستعمار فى تحديه لمصر، ذلك لإنقاذ الموقف جذريا ، وما لبث أن أعلن الجيش ولاءه للنضال القومى وتزعمه ، تحت قيادته ، وفى خدمة أهدافه ، متحدياً إرادة القوى

الحاكمة التى شاءت عزل الجيش عن هذا النضال ، ومن ثم فتح الطريق أمام إرادة التغيير العربى ، فانبثق على يديه فجر النضال الثورى .

وإذ تمثل الثورة نهاية مد قومى فقد جاءت فى ذاتها اثبت مكانة فى مجرى النضال منذ أن استهدفت معالجة ما كان فى ذلك المد يعانيه أثناء سيره، كما جاءت نضالا ثوريا جديدا فى منهجها واهدافها منذ أن أخذت تجدد من المجتمع المعاصر فى مصر ، حتى غدا ذلك مجتمعا متحررا فى أمن اقتصادى وسياسى واجتماعى بما جعل منه نواة بناء لمجتمع عربى حديث .

وكانت الثورة فى اسلوبها ترشيدا عليا لمـــا يجب أن يـكون عليـــه النضـــال العربى .

ورغم ما واجهته من شدائد وصعاب ومؤامرات فقد مضت بقوة تمثل بداية النضال الثورى العربى فى انتصارات متوالية وقد توافر على يديها ما كان المجتمع العربى فى حاجة اليه ، قوة ثورية تجدده وتحميه وتقوده إلى النصر فى مواجهة الصهيونية والاستعمار .

الفصل الثانى

الوحدة الوطنية

وتصفية الاستعمار

وبينما كانت الثورة تتجه للقضاء على السيطرة الداخلية ، ومعالجة المسائل الداخلية ، كانت تعمل على مواجهة السيطرة الخارجية ، كما كان يمثلها الاستعمار البريطانى ، وقد انتهت محاولاتها فى ذلك إلى صدام مسلح بين الطرفين بالعدوان الثلاثى عقد النصر فيه لمصر الثورة .

وأخذت مصر تستعد لمقاومة الاحتلال البريطانى ومنازلته واحباط خططه، فنجحت فى القضاء على القوة الداخلية المتحالفة مع الاستعمار عندما خلعت الملك وألغت الملكية وضربت الروح الاقطاعى والرأسمالية المستغلة ، اقتصادياً وسياسياً.

كما نجحت الثورة فى شل نشاط الانجليز فى البلاد بفضل ما اتخذته من تدابير الرقابة على نشاط العناصر الانجليزية فى البلاد وحصر التعاون مع الانجليز فى نطاق محدود وإلغاء الصحف الحزبية المسايرة للاستعمار كما نشطت فى مراقبة القوات البريطانية فى القناة .

بجانب هذا ، أخذت مصر تستعد عسكريا لمنازلة القوات العسكرية إذا حدث ورفضت بريطانيا الجلاء ، فأنشأت مراكز لتدريب الحرس الوطنى والفدائيين لخوض حرب نضال ضد الانجليز فى القناة . والاهتمام بمصانع الأسلحة وخزن كميات كبيرة من البترول .

ونشطت مصر فى مكافحة الاستعمار ولقد بدأت فى دعوة بريطانيا لتصفية قضية الجلاء ابان محاولاتها لتصفية قضية السودان .

فبينما كانت مصر الثورة تستعد للمعركة الفاصلة مع الاستعمار، كانت تتجه نحو

السودان بنظرة جديدة تقوم على الايمان بضرورة منح السودان حقه فى تقرير المصير ، فقامت اتفاقية السودان فى ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ بين الحكومة المصرية وبريطانيا بشأن الحكم الذاتى ، وقد انتهت بتقرير المصير السودان .

وقد قضت الاتفاقية بانهاء الحكم الثنائى المصرى — البريطانى وتقرير حق شعب السودان فى تقرير مصيره ، وممارسة السودانيين لشئون الحكم فى بلادهم أثناء فترة الانتقال السابقة على تقرير المصير ، ثم الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليما واحداً .

وسرعان ما انتهزت الثورة فرصة إبرام اتفاق السودان فدعت الانجليز للدخول فى مفاوضات لتصفية القضية الثانية الخاصة بمسألة القناة والجلاء .

ولقد وقفت مصر أثناء مفاوضات الجلاء ، مع التدابير التى تتخذها استعداداً للمعركة مع الانجليز ، موقفاً ينطوى على شىء من الرغبة فى التفاهم ولكنه لم يكن مرضيا لبريطانيا ، الأمر الذى جعل المفاوضات — وكانت قد بدأت فى ٢٧ أبريل عام ١٩٥٣ — تتعثر ثم تنقطع فى ٨ مايو من نفس العام بسبب تمسك وفد مصر بتحقيق مطالبه التى كان أهمها الجلاء التام ، وتسليم القاعدة العسكرية ووضعها تحت إشراف مصر وغير ذلك .

وأسرعت قيادة الثورة بتنظيم المقاومة المسلحة فى منطقة القناة ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عقد فى ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ الاتفاق النهائى بين مصر وبريطانيا المتضمن تنظيم عملية الجلاء عن منطقة القناة وكان أهم نصوصها : —

١ — جلاء القوات البريطانية جلاء تاما عن الأراضى المصرية خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على الاتفاق الحالى .

٢ — انقضاء معاهدة التحالف الموقع عليها بلندن فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ ، وكذلك جميع ما جاء فيها من اتفاقات أخرى .

وقد جاءت النصوص الأخرى تنظيمية وقد اشترط أن يظل الاتفاق نافذاً مدة سبع سنوات ، ولقد حققت اتفاقية الجلاء ، جلاء القوات البريطانية عن مصر كما أعفتها من الارتباط بمعاهدة الدفاع البريطانى عن الشرق الأوسط .

ورغم ما جاء فى الاتفاقية من التزامات فرضت على مصر ، خاصة ما جاء فيها بعودة القوات البريطانية فى حالة وقوع هجوم مسلح على مصر من دولة فى الخارج، أو فى حالة حدوث تهديد بهجوم مسلح من دولة من الخارج ، فان ذلك لم يدم طويلا ، فقد أدت الأحداث التى أعقبت الاتفاقية إلى تصادم بين مصر وبين بريطانيا متحالفة مع إسرائيل وفرنسا ، تصادما أنهى هذه الاتفاقية واستكمل حرية مصر فى معركة حاسمة فقد انتصرت فيه مصر الثورة على ذلك العدوان الثلاثى الذى وقع عليها عام ١٩٥٦ .

العدوان الثلاثى وانتصار الوحدة الوطنية :

كان الاستعمار الغربى ، منذ أن ثبت أطماعه فى الشرق، يسوءه أن يرى مصر قوية منيعة عزيزة الجانب لأنه كان يدرك أن الحفاظ على هذه الأطماع هو فى الابقاء على مصر فى حالة من الضعف والتدهور .

وكانت سياسته إزاء مصر أن يعطى ويمنع على شرط الا يهدد ذلك مصالحه فاذا ما نهضت مصر تهدد مصالحه لا يجد مناصاً من التآمر عليها بشتى الوسائل ليوقف ذلك المد القومى، فاذا لم يجد ذلك لديه وأحس بالخطر الداهم من مصر الناهضة على مصالحه فليس لديه من سبيل غير استخدام السيف حيث لم ينفع السوط .

ولقد خاضت مصر مع ذلك الاستعمار معارك هامة فى كفاحها من أجل الحرية والقومية تفاوتت فى درجات النجاح وكانت معركة السويس عام ١٩٥٦ إحداها ولكن أهمها وأعظمها نصراً ونجاحا .

ولقد درج الغرب الاستعمارى على سنته إزاء مصر، فلما كانت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ فتح عينيه على بعث قومى جديد كان امتداداً لمد قومى سابق، فمصر التى أرادها الغرب فى حالة من الضعف قد استطاعت فك القيود والتحرر وزادت فى قوتها لتحتل مكانا مرموقا .

وعمد الاستعمار إلى التحرش بمصر علة يثير فى طريقها المصاعب والاضطراب فدفع بإسرائيل للقيام بسلسلة من الاعتداءات على الأراضى العربية اتسمت

بالغزو المسلح ، ولكن لم يكن ذلك ليرد هذه الثورة عن طريقها بقدر ما كان نقطة تحول ، فبدأت توفق فى كسر احتكار السلاح ، وقد أصبح بهذا من مستلزمات توازن القوى فى هذه المنطقة .

وحاولت مصر أن تستكمل جيشها بالسلاح فلجأت فى البداية إلى الغرب تطلب السلاح من انجلترا فأخذت تلك تراوغ وتشترط شروطاً تمس حرية مصر ، كطلبها انضمام مصر إلى حلف بغداد ، ثم لجأت إلى الولايات المتحدة الأمريكية فوضعت أمامها الصعاب فى إتمام ذلك ولم تستطع مصر الحصول على السلاح من فرنسا ، فلما تعذر على مصر الثورة الحصول على السلاح من الغرب اتجهت إلى الكتلة الشرقية ، إذ ذاك وفقت إلى عقد صفقة لشراء ما كان يلزمها من السلاح من تشيكوسلوفاكيا مقابل تزويدها بالقطن والأرز المصرى فى عام ١٩٥٥ .

كسرت مصر الثورة احتكار السلاح فارتبط ذلك بتأمين سلامة الدول العربية من الخطر الصهيونى وذلك بدعم الوحدة العسكرية فى الشرق العربى ، إذ أبرمت مصر مع سوريا عام ١٩٥٥ ومع العربية السعودية فى نفس العام ومع اليمن فى العام التالى أحلافاً عسكرية موجهة ضد إسرائيل ، اعتبرت بها الدول العربية الأربع أن كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة منهم يعتبر اعتداء عليهم ، ثم عقدت عام ١٩٥٦ فى عمان اتفاقية نصت على إنشاء قيادة موحدة للجيوش : سوريا والأردن ومصر ، وقد نهضت مصر تنشىء لنفسها سياسة مستقلة وتقضى على احتكار السلاح وتقيم اقتصاداً نامياً ومجتمعاً حديثاً ثم تصمد فى مد قومى لتكون للعرب ولأفريقيا والحرية فى كل مكان مناراً .

لم تسترح القوى الاستعمارية والصهيونية إزاء ذلك التطور الذى بدأ مع فجر الثورة ناهضاً لتحقيق مجتمع أفضل فكان طبيعياً أن تنشط لتواجه ذلك المد حفاظاً على أطماعها .

شعر الاستعمار بالتهديد فبدأ يواجه الموقف بالمؤامرات ، وكان متوقعاً بعد هذه البداية إذا مضى ذلك المد القومى إلى غايته العظمى ألا يجد الاستعمار مناصاً من تطبيق سنته التقليدية باستخدام القوة للحفاظ على أطماعه .

وجه الاستعمار حملات شديدة ضد مصر الثورة،فلم تجد بعد أن مضت فى سبيلها التحررى ، وجه فى البداية حرباً نفسية موجهة من جميع محطات الإذاعة لإثارة الأكاذيب ضد الثورة والدعوة صراحة إلى التآمر والتمرد .

وحاول الاستعمار باسم التحالف مع الدول الكبرى أن يربط مصر بركابه بمحاولة ضمها إلى حلف عسكرى الشرق الأوسط لكن الثورة ظلت متمسكة بما رأته من أن الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط ، لابد أن ينبثق من داخل المنطقة ذاتها .

ولجأ الاستعمار إلى فرض الحصار الاقتصادى حول مصر ،فاستطاعت حكومة الثورة أن تفوت على الاستعمار أغراضه ، لحطمت ذلك الحصار الاقتصادى وفتحت آفاقا جديدة للاقتصاد المصرى فى الخارج والداخل بتمصير الشركات والاستثمارات الأجنبية الاحتكارية . . . وغير ذلك .

ثم جاءت معركة تمويل السد العالى لحاولت القوى الإستعمارية ،بعد أن فشلت فى مؤامراتها السابقة ، أن توجد وسيلة للمساومة حول تمويله يحدوها الأمل فى تكبيل مصر بأغلال تشغلها عن اتجاهها الثورى الصاعد .

كانت الثورة قد أدركت مع نشاطها الثورى فى شتى الميادين أن تطور الاقتصاد فى المجتمع هو الأساس الراسخ لاقامة الحرية السياسية والحرية الاقتصادية فشاءت بناء سد يتحكم فى مياه نهر النيل بما ينتهى إلى تدعيم الاقتصاد الزراعى وبالتالى تطور الصناعة من مساقط مياه السد .

وكان لا بد لها من الحصول على قرض خارجى لمعاونتها فى بناء ذلك السد وما يستلزمه من مشروعات شتى فمدت يدها إلى البنك الدولى للانشاء والتعمير ، وكان موقفه لا عونا، ولكن محاولات لفرض السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد فكان من شروط هذا البنك والتى طالب بها :

١ — الاتفاق على تفاهم لفرض وصاية على المصروفات العامة للدولة .

٢ — عدم إبرام أية اتفاقية دولية تحمل الدولة دينا خارجياً إلا بعد التفاهم مع البنك الدولى أولاً قبل الاتفاق على أى مشروع .

٣ — أن تكون إدارة المشروع خاضعة للاتفاق مع البنك الدولى .

ورفضت مصر ذلك بطبيعة الحال ، وأعلن البنك الدولى إيقاف الاعتماد الذى كان يقدر بمائتى مليون دولار لتمويل مشروع السد تنفيذاً لرغبة الاستعمار ممثلا بصفة خاصة فى انجلترا والولايات المتحدة .

ولقد ظن هؤلاء أنهم قد حاصروا الثورة فى الزاوية التى أرادوها أن تكون من أمد طويل ولكن عبثاً ما حاولوا فقد جاء ذلك استثارة زادت الشعور العام غضباً ضد ذلك الاستعمار .

وكان الرد على ذلك الاستعمار الأحمق رداً بطولياً بحق ، ففى مساء ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، ومن ميدان المنشية بالاسكندرية ، وقف قائد الثورة البطل يتحدث إلى « الاخوة المواطنين » ويرد على خيانة الغرب لعهوده ويعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس .

وقد أوضحت المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية مبررات ذلك التأميم وحق مصر فى ممارسة هذا الإجراء الذى مارسته من قبل الدول الأوربية كفرنسا وانجلترا .

كان الغضب فى قلوب الدول الاستعمارية يستشرى كل يوم حقداً وبغضاً للثورة ومبادئها فى احساس بالكبرياء الاستعمارى الجريح . وكان قرار التأميم عاملا جديدا زاد من نيران الغضب الكامن تأججا ثم فجره تفجيرا .

مس القرار الكبرياء الاستعمارى فى الصميم عند مابلور أمامه قوة الثورة القومية ، ثورة لا تأخذ بالمصالحة ولكن بمثالية تسعى إلى استكمال الوجود المصرى الحر الكريم ، فازداد الغرب شعوراً بتهديد مصالحه على يديها ، وأخذ يشعر بانهدار هيبته على يد الثورة وكأنما أصابه مس من الشيطان ؛ فمضى يتخذ سبيله إلى الحرب .

وكان لابد للاستعمار من تمهيد لذلك العمل ولكن فى اعداد قد يهيىء الجو لحل الموقف جزئيا .

وبدأت طلائع ذلك فأسرعت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ اجراءات اقتصادية ضد مصر : فجمدت بريطانيا أرصدة مصر الاسترلينية

وحذت فرنسا حذوها لجمدت جميع أرصدة مصر وأموالها لديها ، وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى لندن اجتمع وزراء خارجية هذه الدول للتشاور فيما يجب عمله من إجراءات لاحباط قرار التأميم ، وأصدر وزراء خارجية الدول الثلاث فى أغسطس عام ١٩٥٦ بيانا حملوا فيه على قيام دولة واحدة بالاستيلاء التعسفى على هيئة دولية ، وطالب البيان بعقد مؤتمر عاجل يجمع بين الدول الموقعة على اتفاقية القناة والدول الأخرى التى لها مصلحة حيوية فى استخدام القناة ، وذلك من أجل إيجاد تدابير فعالة لإدارة القناة تحت اشراف جهاز دولى ، ولقد تضمن هذا البيان إجراءات تهـديدية عسكرية للضغط على مصر ، وقامت انجلترا ومعها فرنسا بتحركات وتدابير برية وبحرية وجوية ردت عليها مصر بإنشاء جيش التحرير الوطنى فى ١٩ أغسطس عام ١٩٥٦ وتوزيع السلاح على المتطوعين فأقبل هؤلاء على حمل السلاح فى حماس استعداداً للقتال .

ومع شعور الغرب بخطورة الموقف أخذ ينقسم على نفسه ، ومع الانقسام بين صفوف الشعب البريطانى حول استخدام القوة والتدخل العسكرى ، لم يلبث أن تجلى الموقف إزاء هذه المسألة بانقسام آخر بين بريطانيا وأمريكا منذ أن صرح ايزنهاور بأن بلاده لاتقر حليفتها بريطانيا فى استخدام العنف ضد مصر ، وتفضل أن تحل مسألة القناة بالطرق السلمية ، كما اعترضت بعض دول الكومنولث البريطانى كالهند وسيلان على السياسة الاستعمارية العنيفة كما أن الاتحاد السوفيتى وأندونيسيا وغيرهما أقروا حق مصر الشرعى فى تأميم القناة ، وكذلك أعلنت الدول العربية وقوفها بجانب مصر ، ومع هذا مضى ايدن فى سياسته الطائشة فى تعبئة قوى بريطانيا العسكرية .

وبين ألوان هذا التهديد اجتمع مؤتمر لندن فى الفترة من ١٧ — ٢٣ أغسطس عام ١٩٥٦ لبحث مسألة القناة وقد تمخض المؤتمر عن انقسام فى الرأى ، فرأت ١٨ دولة (من بين ٢٢ دولة وافقت على حضور المؤتمر) تكوين لجنة دولية لإدارة القناة ، فعارضت فى ذلك كل من الهند وأوندنيسيا وسيلان والاتحاد السوفيتى

حيث أيدت كلها بحق مصر فى التأميم والاشراف على قناتها كدولة ذات سيادة ، وأخيراً قررت الثمانية عشرة دولة أن توفد لجنة خماسية لعرض مقترحاتها على مصر ولكن ما كادت هذه اللجنة تصل مصر ، حتى اشتدت مظاهرات العدوان المسلح ضدها من الدولتين الاستعماريتين : فرنسا وانجلترا .

نزلت فرقة من جنود المظلات الفرنسيين فى ٢٩ أغسطس فى قبرص وتحركت وحدات فرنسية بحرية إلى شرق البحر الأبيض وتجمعت قوات بحرية وبرية وجوية فى بريطانيا ، ثم فرنسية بالقرب من قـــبرص ومالطة كل ذلك للضغط السياسى غير المباشر على مصر ، ولكن ذلك لم يكن له أثر فقد زادت الثورة إصراراً على موقفها التحرزى وعندما اتجهت بريطانيا وفرنسا إلى رسم خطة غزو مصر ، لم تكن تلك من أجل القناة ، بل كانت من أجل القضاء على المبادىء الثورية التحررية التى تنبعث من مصر الثائرة.

لقد أصبح تأميم القناة فى أعماقه فى عين الاستعمار البريطانى أمراً خطيراً لأنه يهدده فى منطقة تعتبر حساسة لديه ، وينزل من هيبة الامبراطورية البريطانية ويهدد أصدقاء بريطانيا وبترول الشرق العربى .

وقد تجلى ذلك فى أحد خطابات إيدن السرية لايزنهاور أول أكتوبر عام ١٩٥٦ إذ أوضح إيدن كل هذه المعانى فقال : « إذا لم نستطع إسقاط عبد الناصر فلسوف ينتهى مركز بريطانيا الخاص فى المنطقة ، وتصبح قواعدها كلها تحت رحمة الغوغاء ويختفى أصدقاؤها واحداً بعد واحد ثم يمتد النهب العربى إلى موارد البترول ذاتها وحينئذ تنتهى بريطانيا ويتحطم التحالف الغـــربى العظيم من أساسه » .

ولقد التقت رغبة ايدن ووزير خارجيته سلوين لويد مع رغبة جى موليه وزير خارجية فرنسا فى القضاء على حركة الثوره العربية ، وقد كانت فرنسا تعتقد إذ ذاك أنها لا تستطيع اخماد ثورة الجزائر بغير اخماد ثورة مصر ، وفى لقاء مع سلوين لويد فى بداية عام ١٩٥٦ قال كريستيان بينو رئيس وزراء فرنسا بصراحة : « ان فرنسا مصممة على اسقاط النظام الحالى فى مصر ، لأنه غير قابل

التفاهم . وإننا الآن ندرس خطة تستطيع إسرائيل بمقتضاها أن تهاجم مصر وتغزوها ، ان الإسرائيليين لديهم هذا الاستعداد ، وهم يرون مصر تتسلح ، ولا يمكن أن يقبلوا الانتظار حتى تتم مصر استعداداتها وتنقض عليهم »

وهكذا صممت فرنسا على غزو مصر بمعاونة اسرائيل فقدمت لاسرائيل أسلحة من غير حساب كما تعهدت لاسرائيل بالآتى :

١ — تقوم فرنسا مباشرة بحماية المدن الاسرائيلية والساحل الاسرائيلى من هجمات الطيران المصرى والبحرية المصرية .

٢ — تقوم فرنسا بالمعاونة التكتيكية بالطيران فوق ميدان القتال فى سيناء لمساعدة القوات البرية الاسرائيلية ولمنع هجمات الطيران المصرى عليها .

٣ — تقوم فرنسا بعملية ضرب الأهداف الاستراتيجية فى قلب مصر ذاتها على المرافق والمطارات وغيرها .

ثم تحولت هذه المؤامرة الثنائية إلى مؤامرة ثلاثية بدخول بريطانيا طرفا ثالثاً ، ثم رسمت خطة العدوان على مصر على الوجه الآتى :

١ — تعرض بريطانيا وفرنسا مسألة القناة على مجلس الأمن لبحث الموقف الذى ترتب على انهاء النظام الدولى لإدارة القناة وذلك حتى تتم التعبئة العسكرية اللازمة لضرب مصر فعرضت أزمة القناة فعلا على مجلس الأمن فى سبتمبر عام ١٩٥٦ ، وفى ١٣ اكتوبر وافقت أغلبية أعضاء مجلس الأمن على أن تدور مفاوضات مباشرة بين بريطانيا ومصر وفرنسا لحل مشكلة القناة بالطرق السلمية .

٢ — محاولة تعطيل الملاحة فى القناة باستدعاء المرشدين الأجانب حتى تجد بريطانيا وفرنسا ذريعة للهجوم العسكرى على مصر وقد باء ذلك بالفشل .

٣ — تقوم اسرائيل بهجوم مفاجىء على شبه جزيرة سيناء فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ إبان انشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة وفى الوقت الذى يكون فيه الاتحاد السوفيتى منشغلا فى ثورة المجر، فتسرع بريطانيا وفرنسا بغزو القناة بحجة التدخل لوقف الحرب بين الطرفين .

وقد ثبت ذلك التواطؤ بين الدول الثلاث ، أو تلك المؤامرة الثلاثية التى مهدت

العدوان الثلاثى فى ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ بعد أن قام ثمة اجتماع بين سلويد لويد ودافيد بن جوريون وكريستيان بينو وقد أصر بن جوريون فى هذا الاجتماع على أن يوقع الثلاثة بريطانيا وفرنسا واسرائيل اتفاقا يرسم دور كل منها فى خطة الهجوم على مصر وقد حرر هذا الاتفاق فعلا من نسخة واحدة مبالغة فى السرية ، وقد احتفظ بهذه الاتفاقية بن جوريون ، وقد كانت اسرائيل هى الطرف الذى أقر عليها حتى تطمئن وتبدأ الهجوم على مصر فى الموعد المحدد .

وقد هاجمت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية فى ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ فأسرعت بريطانيا وفرنسا بالاشتراك فى العمليات الحربية بعد أن قدمتا انذارا إلى مصر بوقف الأعمال الحربية فى مدة ١٢ ساعة ، والانسحاب مسافة عشرة أميال غربى قناة السويس والتسليم باحتلال بور سعيد والاسماعيلية والعريش بحجة الفصل بين المتقاتلين ، وحماية القناة غير أن حكومة الثورة فوتت على الاستعمار أغراضه فقررت الانسحاب من شبه جزيرة سيناء والاحتفاظ بسلامة القوات المصرية وحشدها مع الشعب .

وفشل العدوان الثلاثى على مصر ، بفضل صمود المقاومة المصرية وتضامن الشعب مع الجيش فى مواجهة العدوان أولا ، ثم من مساندة الأمة العربية ودول آسيا والشعوب المحبة للسلام ، والرأى العام المعادى للاستعمار ، وكان انذار الاتحاد السوفيتى للدولتين الاستعماريتين المعتديتين باستخدام الصواريخ الموجهة ضدها من أكبر العوامل التى أكدت ذلك الفشل وعجلت به ، وقد أنذر الاتحاد السوفيتى أيضاً اسرائيل بإعادة النظر فى موقفه من وجودها .

وأخذت قوى العدوان فى التراجع ثم تجلى الموقف فى قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال والانسحاب من الأراضى المصرية ، ودخلت الأمم المتحدة فى المنطقة للاشراف على عمليات الانسحاب وللاستقرار على خطوط الهدنة بين اسرائيل والبلاد العربية وأسرعت القوات البريطانية والفرنسية فى الانسحاب ثم تلتها القوات الاسرائيلية .

وفشل العدوان الثلاثى وسقطت معه سياسة الاستعمار التقليدية إزاء مصر

وخرجت منه مصر الثورة تستكمل وجودها الحر بشتى الوسائل فى الداخل والخارج .

وألغت مصر التزاماتها المقررة بمقتضى اتفاقية الجلاء . وتم ذلك بمقتضى القرار الجمهورى بقانون رقم ١ لسنة ١٩٥٧ الصادر فى أول يناير عام ١٩٥٧ ، وقد نص ذلك على اعتبار اتفاق أكتوبر عام ١٩٥٤ كأنه لم يكن ، ابتداء من ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ فقطع ذلك آخر خيط يربط مصر ببريطانيا .

واتجهت مصر المنتصرة ، تقضى على الاستعمار الاقتصادى فى سيطرته على الاقتصاد المصرى ، وبفضل قوانين التمصير والتأميم اختصت مصر بأرباح الشركات الأجنبية السابقة لكى تعاونها على رخاء البلاد .

ولقد كان انتصار مصر انتصاراً عربياً وأفريقياً بل انتصاراً للشعوب المناضلة ضد الاستعمار من أجل القومية والحرية .

انتصرت مصر فمضت وهى تستكمل وجودها فى الداخل تؤيد حركات التحرر عموما وتتزعم النضال العربى وتشد أزره ، وترى فى معاونة النضال الأفريقى الهادف إلى تحرير القارة جزءاً من أهدافها فى نضالها من أجل التحرر ، فأخذت تمد يدها للمناضلين فى القارة بشتى الوسائل ، وقد جاء انتصارها على الاستعمار ترشيداً عملياً لما يجب أن يكون عليه النضال ضد الاستعمار ، فقد عبأت بانتصارها الشعور المعادى له ، وأنزلت من هيبته فلم يعد رهيبا كما كان ، ومن ثم كان انتصاراً عربيا أفريقيا من أجل الوجود الحر الكريم .

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية فى مصر

وعدوان ٥ يونيو ١٩٦٧

منذ أن تحالفت الأطماع الاستعمارية الصهيونية فتبلورت ، فى إقامة إسرائيل ، كان الغرب الاستعمارى يعمل جاداً لتمكين هذه الدولة المصطنعة من القوة والوجود لتصبح أقدر على تحقيق مطالبه فى تحقيق أحلامها على حساب العرب .

وكان طبيعياً لكى تبقى وتحقق أهدافها كما أرادها الاستعمار وهو يلفظ أنفاسه أن يمكنها من القدرة فى الوقت الذى يمكن العرب من التفكك والضعف بشتى الوسائل .

ومنذ طلائع النضال الثورى أحس الاستعمار وإسرائيل بالخطر الدائم ، ومضت طلائع النضال الثورى تجدد من التضامن العربى ، وتعيد بناء المجتمع بما يجعل من القوة نزعة ثورية ، ثم كان العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ فى جوهره هادفا إلى القضاء على ذلك النضال فى مهده ويسند أطماعه فى الوطن العربى ويصون وجود اسرائيل كضمان لهذه الأطماع ، فلما فشل وانحسر النفوذ البريطانى عن المنطقة العربية تقدم النفوذ الأمريكى لملء الفراغ وحمل الرسالة ، فدأب على القضاء على النضال الثورى بمختلف الوسائل ، فلما تجدد النضال الثورى وتعزز صاعدا من الوطن العربى أحست السيطرة الأمريكية بذلك الخطر على مسيرة القضاء على مصير اسرائيل ؛ عندئذ وضعت خطة لعدوان ثلاثى جديد يأخذ مخططا جديدا فى أساليبه مستترا وراء إسرائيل للقضاء على النضال الثورى ، وذلك منذ أن عادت القوى الثورية إلى سوريا لتعزيز وحدته فى كيان النضال الثورى بعد أن امتد إلى العراق والجزائر .

كان يهم قوى الصهيونية والاستعمار أن يقضى على ذلك النضال ، وذلك بأن

تفكك هذه القوى الثورية حتى لا تتجمع فتعود سوريا إلى ما كانت عليه من قبل. كان من شأن هذه القوى اذن أن تمكن سيادة الرجعية من سوريا كى تضمن إسرائيل أمناً واستقراراً يخدم أغراضها فى خدمتها لأغراض الاستعمار وكان طبيعياً لدى هذا الاستعمار إذا ما سيطرت هذه القوى الثورية من جديد فى سوريا أن يثب فى وجهها ليعيد أمنه الذى لا يرى وجوده إلا فى ظل القضاء على هذه القوى الثورية فى تساندها فى وحدة مع مصر .

ومنذ أن عادت القوى الثورية العربية تسيطر على سوريا بعد أن طرحت بالعهد الرجعى فيها وأخذت تنشط ، بدأت الدسائس للقضاء عليها فأخذ الاستعمار يوجه إسرائيل للحيلولة دون تماسك القوى الثورية وأخذت إسرائيل تستجيب من خلال أطماعها لأغراض الاستعمار فى نشاط انتهى إلى اعلان عزمها على توجيه عدوان ضد هذه القوى الثورية مباشرة فى سوريا استناداً إلى الرجعية العربية ، وما أن أدركت سوريا الخطر حتى التقت مع مصر الثائرة فى معاهدة دفاع مشترك بينهما ، صيانة لوحدة المصير العربى .

ولقد اعتقدت الدوائر الصهيونية والاستعمارية ، رغم ذلك ، ملاءمة الوقت لتوجيه ذلك العدوان فالموقف الدولى فى رأيها يحول بين سوريا وبين القوى التقدمية فى الجمهورية العربية المتحدة وكذلك فان قوات الأخيرة منشغلة فى حرب اليمن ، ومن ثم لاح لهذه الدوائر أن الجمهورية العربية المتحدة أبعد من أن تهب لنجدة سوريا عند الهجوم المزعوم .

وكانت الخطة أن يوجه الهجوم الاسرائيلى على سوريا ، فيمضى الزحف حتى قرب دمشق على نحو لا ينسحب فيه العدو إلا بثمن اقتطاع أجزاء من الوطن السورى ذات مواقع استراتيجية هامة ثم احتلالها والمطالبة بوضع نظام للبوليس الدولى ، الذى يشابه ما تم وضعه فى الجنوب بينها وبين مصر ، وبهذا وذاك تحقق الخطة أغراضها وتمكن العناصر الرجعية من السيادة والتهوين من النضال الثورى العربى التحررى ، وضمان أمن إسرائيل من الشمال ومن الجنوب فتتمكن بالتالى من تحقيق أغراضها فى تحقيقها لأغراض الاستعمار البغيض .

ومما دفع اسرائيل لهذا الموقف أيضا فشل السياسة الأمريكية والانجليزية في ضرب الثورة اليمنية وفشل السياسة البريطانية في الجنوب المحتل وازدياد المقاومة الشعبية المسلحة بها ثم مساندة القوى الرجعية في ثورتها المضادة والمحافظة على بقاء إسرائيل قاعدة استعمارية .

الصمود الوطني ورفض الهزيمة :

ومع المعركة وقف الشعب في مصر موقفاً بطولياً موحداً خلف قواته المسلحة، وقد جمعته المحنة وزادته قوة وصموداً فلما حدثت الهزيمة العسكرية ، هب يومى ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧ ليعلن رفض الاستسلام ورفض الهزيمة وأصر على أن يعتبر الهزيمة العسكرية في ٥ يونيو ١٩٦٧ هزيمة في معركة واحدة من معارك نضاله الطويل في مواجهة إسرائيل والاستعمار .

ولقد أثبتت جماهير شعبنا وعياً وصلابة ومقدرة على الحركة تفوق كل تصور ، حين خرجت هذه الجماهير لتعلن رفضها للهزيمة ، واستعدادها للنضال والتضحية من أجل أن تبقى الثورة وتبقى الاشتراكية .

وصمد الشعب وتجلت وحدته حين استعاد بناء جيشه وراء زعيم ثورته جمال عبد الناصر واستعد للنضال والصمود من أجل إعادة الحق العربي .

الفصل الرابع

ثورة ٢٣ يوليو

ومتطلبات الوحدة الوطنية

أدركت الثورة منذ قيامها أن التعبئة الوطنية لكل فئات الشعب هى الوسيلة الوحيدة لدفع التطور فى جميع مجالاته بسرعة وكفاية . . ولذلك اتخذت الثورة عدة إجراءات الغرض منها حماية الوحدة الوطنية وتعبئتها لمجابهة أعداء الثورة فى الداخل وفى الخارج . . وتحقيق أهداف الثورة .

١ ـ إلغاء الاحزاب والتنظيمات السياسية

واستكمالا لإصلاحات الثورة الهادفة لتصفية السيطرة الداخلية ، كما تمثلت على يد الرأسماليين والملاك الزراعيين .. اتجهت الثورة إلى إصلاح الأحزاب . وكان معظم الاحزاب والتنظيمات السياسية إذ ذاك فى حقيقتها ومبادئها تمثل المصالح الخاصة بكبار الملاك وكبار الرأسماليين ، فلما رفضت تلك الاحزاب السير والإصلاح . لم تجد الثورة بدأمن حل هذه الاحزاب كلها وإبعاد جميع السياسيين والنواب الذين تعاونوا مع السراى والاستعمار للقضاء على سيطرتهم السياسية .

ولقد بدأت الثورة منذ قيامها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى دعوة الأحزاب أولا لتطهير نفسها وتحديد برامجها وأهدافها تمهيداً لإعادة الحياة الدستورية الكاملة فى مصر ، ثم صدر فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ قانون تنظيم الاحزاب ، فألزم كل حزب أوجمعية أوجماعة منظمة بضرورة الحصول على ترخيص من وزير الداخليةوبيان السياسة وأسماء الأعضاء والموارد ، ثم إيداع الأموال فى المصارف فبلغ عدد الاحزاب التى طلبت التسجيل ١٦ حزباً ، ولقد خطت الثورة بعد ذلك خطوة أخرى فى سبيل إصلاح الحكم فأصدرت فى ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ قراراً بإلغاء دستور عام ١٩٢٣ لعدم صلاحيته للتطوير الجديد .

وقد تبع إلغاء الدستور تشكيل لجنة لوضع مشروع دستور جديد يناسب العهد الثوري ، لكنها لم تحقق ما كانت ترجوه البلاد منها ، فقبل أن تقدم اقتراحاتها كانت الثورة قد حلت الاحزاب لجمودها والتنظيمات السياسية بعقليتها الرجعية عن قبول الإصلاح فقد أصدرت قيادة الثورة في ١٦ يناير عام ١٩٥٣ قراراً بحل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لمصلحة الشعب وحظرت تكوين أحزاب سياسية جديدة (١).

وجدير بالذكر أن حل الاحزاب السياسية في مصر تؤكده عديد من الحقائق منها :

١ — ان الاحزاب السياسية في مصر كانت تمثل المصالح المختلفة لطبقتي الملاك الزراعيين المستغلين والرأسماليين ، وكان هدفها الوحيد هو الدفاع عن هذه المصالح وتنميتها ، وبمعنى آخر فإن هذه الاحزاب كانت تجسد المصالح الطبقية لفئة النصف في المائة ، وكانت بالتالي بعيدة كل البعد عن اتجاه الجماهير ولم تكن تعبر إلا عن إرادة الإقطاعيين والرأسماليين ، وكان طبيعياً أن تكون سلطة الحكم كما قال الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه أمام مجلس الأمة في ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ قد استقرت بصفة دائمة بين ست عشرة أسرة مصرية من كبار ملاك الأراضي .

٢ — إن الاحزاب السياسية في مصر ظلت من غير نظرية سياسية وظلت بعيدة عن ممارسة الأساليب التنظيمية الحزبية ، ذلك أنها في الواقع لم تكن تستطيع أن تسمح بتنمية الوعي الاجتماعي للجماهير أو تتيح لها الفرصة للمشاركة الجادة في العمل السياسي الحقيقي ، مما أتيح للاقطاع والرأسمالية السيطرة على المجتمع والحكم (٢) وظل الارتجال والتهريج السياسي والغوغائية طابع العمل الحزبي .

من هذا يتبين أنه حتى بالمعنى الحزبي الصرف فقد فشلت الاحزاب المصرية

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تاريخنا القومي في سبع سنوات مكتبة النهضة المصرية ص ٥٤

(٢) جاء بالميثاق في هذا الصدد (ولقد ظلت الطبقة السياسية الحاكمة تحول على حيث سلسلة من الظروف الموضوعية القصد منها منع قيام أية حركة شعبية ذات مستوى جدي).

فى إيجاد الشكل التنظيمى العلمى للحزب ، وفى إيجاد تقاليد حزبية راسخة يمكن فى إطارها ممارسة العمل السياسى ومشاركة الأعضاء الحزبيين فى رسم وتوجيه سياسة الحزب .

٣ — هذا إلى جانب إن صلة الجماهير بالحزب سواء كانت من بين أعضائه الرسميين أو من المشايعين له ، لم تكن تتعدى التجمهر فى السرادقات والمواكب أو الإدلاء بالأصوات فى صناديق الانتخاب مرة كل عدة سنوات .

٤ — كما أن الاحزاب المصرية فشلت فى إيجاد التنظيم الحزبى الذى يتيح لأعضائها ممارسة العمل السياسى ، شأن كل الأحزاب على اختلاف مبادئها وأشكالها التنظيمية ، وبالتالى فشلت فى إيجاد أى أساس صالح لبناء تنظيمات سياسية ، ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ان هذه التنظيمات الحزبية كانت انعكاسا للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمع ما قبل الثورة (مباشرة) وهى تعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة وقتئذ (١).

٥ — أن الوعى بضرورة التغير فى مصر سبق الوعى التنظيمى بمراحل طويلة بتأثير الرواسب العميقة التى تخلفت بسبب السيطرة الطويلة للأحزاب المصرية ، وأن الجماهير لم تستطع أن تعى أن تحقق آمالها فى الحرية والعدل مرتبط بقدراتها على الانتظام فى تشكيل سياسى قادر على قيادة نضالها والتصدى للقوى المضادة ، وحتى البوادر الأولى التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد شكل تنظيمى للجهود الوطنية التى كانت قد بلغت ذروة الحماس فى أعوام ماقبل الثورة استطاعت الأحزاب أن تمزقها وتخربها من الداخل ، فالقوة المستنيرة لم يكن لها من الفعالية بحيث تستطيع التجمع داخل شكل تنظيمى يدافع عن مصالح الجماهير ، بل لم

---

(١) جاء فى هذا الصدد بالميثاق (أن النظام السياسى فى بلد من البلدان ليس إلا انعكاسا للمصالح المتحكمة فى الأوضاع الاقتصادية ولذلك فلقد كانت الأحزاب فى واقع الأمر انعكاسا للتطور الاجتماعى فى مصر وانعكاسا للتغيرات التى تحدث فى العلاقات الإجتماعية فى المجتمع المصرى تحت تأثير التغيرات الاقتصادية السريعة والمتلاحقة التى بدأت مصر تشهدها خلال الحرب العالمية الأولى)

يكن لها من القوة ما يمكنها من الحفاظ على المحاولات الأولى في هذا الاتجاه .

وهذه الحقائق في جملتها تفسر لنا لماذا اتجهت الثورة إلى تصفية الأحزاب تصفية نهائية وشاملة ، ولم تكتف بمجرد تصفية القيادات الحزبية الموجودة ، لقد كان أمام الثورة مهمة رئيسية وهي نسف الظروف الموضوعية السابقة التي أقامها حكم الطبقة المستغلة لكي تمنع قيام الحركة الشعبية المنظمة وإيجاد المناخ الصالح لقيام هذه الحركة .

قال الزعيم جمال عبد الناصر وهو يقدم في ٢ يوليو عام ١٩٦٢ إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية مشروع التنظيم السياسي :

(... وقد كانت هناك تنظيمات شعبية سبقت قيام الثورة، ولكن هذه التنظيمات ضاعت قيمتها بسببين رئيسيين هما :

(ا) أن معظم هذه التنظيمات خصوصاً تلك التي مارست الحكم منها ، قبل الثورة ، كانت تعمل لمصالح طبقية ، وكانت كلها تستند على تحالف الإقطاع ورأس المال المستغل ، ومن ثم فإن هذه التنظيمات لم تكن قائمة على أساس جماهيري ، وإن كان بعضها قد استطاع في سنوات النضال الوطني من أجل الاستقلال أن يحرك جموعاً من الجماهير إلا أنه لم يستطع مواصلة النضال إلى نهايته ، لارتباط مصالحه بطريق غير مباشر مع مصالح الاستعمار . . ومن ثم انتهى إلى مهادنته ، ومن ناحية أخرى ، لأن النضال الوطني من أجل التحرر الاجتماعي ، لاحت مقدماته حتى خلال معركة الاستقلال ، الأمر الذي جعل هذه التنظيمات السياسية تنقلب على قواعدها الجماهيرية ، وتحاول صرف أنظارها عن معركتها الحقيقية .

(ب) أنه كانت هناك قبل الثورة تنظيمات سياسية لا تعبر عن مصالح الطبقة الحاكمة ، لكن فعالية هذه التنظيمات كانت في معظم الأحيان محدودة أو سلبية بسبب تحفظ المصالح الطبقية الحاكمة عليها ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن هذه التنظيمات حركتها دوافع انفعالية عاطفية أو حركتها قوى بعيدة عن التربية القومية ولم يكن لديها على أي حال من التعمق ما يكفل لها مواجهة حتمية التغيير

الاجتماعى واتخـــاذ الواقع الوطنى بداية لها) .

ثانيا : التنظيمات السياسية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووحدة تحالف قوى الشعب العاملة .

حرصت حكومة الثورة منذ قيامها على تمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد وتمكينها من السيطرة على الاقتصاد الوطنى فى إطار من الوحدة الوطنية القادرة على مجابهة التحالف الاستعمارى الصهيونى الرجعى بالإضافة إلى تمكينها من مجابهة القوى الرجعية التى تجمعت لحماية الأوضاع الاجتماعية القديمة . . وتوفير متطلبات التحول الاشتراكى . حتى يصبح تحالف قوى الشعب العاملة هو قائد العمل الوطنى .

ولقد ظهرت عدة تنظيمات سياسية بدأت بهيئة التحرير ثم الاتحاد القومى . . وانتهت بالاتحاد الاشتراكى العربى الممثل من تحالف قوى الشعب العاملة .

وفى الحقيقة أن كل شكل من هذه الأشكال التنظيمية كان لابد وأن يظهر فى المرحلة التى ظهر فيها وكان لابد أن ينتهى حيث انتهى بغض النظر عن ثورية هذا الشكل أولا ثوريته وبغض النظر عن معيار الفشل أوالنجاح ، فالثورية ليست حالة دائمة وإنما هى مرتبطة بالمرحلة التى يمر بها المجتمع ، والاجراء أوالتنظيم الثورى فى مرحلة معينة إن لم يتطور ويتــكيف وفق مقتضيات ومتطلبات المرحلة التالية ، فقد ثوريته وأصبح إجراءا أوتنظيما رجعياً متخلفاً . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل التغير الاجتماعى التى شهدتها مصر بعد الثورة كانت تعكس بالضرورة شكلا معينا من أشكال التنظيم يعبر عن طبيعة المرحلة . ، بما فيها من علاقات اجتماعية . . وتناقضات . . وصراع طبقى وفــكرى . . وبكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات .

٢ ــ هيئة التحرير

بعد حل الأحزاب فى مصر فى ١٦ يناير عام ١٩٥٣ كانت الثورة تواجه الظروف والعوامل الآتية : ــ

(ا) الاحتلال الأجنبي المتربص الذى يهدد كل عمل ثورى يسعى لتغيير الواقع المتعفن المفروض على البلاد .

(ب) افتقار الثورة إلى نظرية سياسية متكاملة وإلى تنظيم سياسى يحول الجماهير الشعبية المتحمسة إلى قواعد منظمة تستطيع مساندة الثورة والإندفاع معها فى طريق التحرير .

(حـ) تيارات وطنية مختلفة من المثقفين تمزقهم الخلافات العسكرية

(د) مجموعة من الرأسماليين وكثير من ملاك الأراضى ممن لم ينطبق عليهم قانون الاصلاح الزراعى .

وفى ٢٣ يناير عام ١٩٥٣ أعلن ميثاق وأهداف وطريقة تنظيم هيئة التحرير كتنظيم جماهيرى يعبىء جميع طبقات الشعب وفئاته المختلفة على ما بينهم من تناقض لمواجهة متطلبات المرحلة الاولى فيما بعد الثورة .

وكان على هيئة التحرير أن تعبىء كل هذه القوى من أجل : -

(ا) مواجهة جيوش الاحتلال الرابضة على أرض القنال

(ب) مواجهة الاحزاب والجماعات الرجعية المنحلة .

(حـ) إيجاد الإطار الواحد الذى يمكن الثورة من حشد وتنظيم كافة القوى الوطنية لحماية البناء الثورى الوليد .

وكان شعار هذه المرحلة هو وحدة كافة الفئات الوطنية من أجل تحقيق الاستقلال . ومن هنا كان لا بد أن تدخل القوى المعادية للاستعمار فى هيئة التحرير رغم اختلاف آرائها حول مستقبل العلاقات الاجتماعية ، وحول اتجاه التطور الاجتماعى فى مصر بعد الاستقلال (١) .

---

(١) لم تكن هيئة التحرير أول شكل من أشكال التنظيمات السياسية يظهر فى ظل الثورة ، فلقد سبق هيئة التحرير شكل آخر من هذه التنظيمات هو تشكيل الضباط الأحرار وكان الجيش هو المجال الطبيعى لنمو هذا التشكيل .

أنظر مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجماهيرية — الدورة الثالثة لمعهد العالى للدراسات الاشتراكية ١٩٦٦/٦٥

ونستطيع القول أن هيئة التحرير قد أتاحت الفرصة لالتحام قوى الشعب بقيادة الثورة ، كما استطاعت أن توجد نوعا من التنظيم للقوى الشعبية ، وتعبئة هذه القوى فى اتجاه التوعية الوطنية وتفهم مشا كل المجتمع الجديد والاستعداد لخوض المعارك القادمة على الطريق .

والفقرة التالية من ميثاق هيئة التحرير توضح أهم أهداف هذا التنظيم فى المرحلة الأولى من الثورة :

« نحن أعضاء هيئة التحرير قد آلينا على أنفسنا أن نجلى الغاصب عن وادى النيل بلا قيد أو شرط . . وأن نكفل للسودان تقرير مصيره دون مؤثر خارجى .. وأن نقيم فى وطننا مجتمعا قويا ، أساسه الإيمان بالله وبالوطن، والثقة بالنفس وأن نكفل الحقوق والحريات للمواطن ، وأن نجعل نصب أعيننا وحدة الوطن المقدسة .. وتعبئته فى تنفيذ برامج التعمير والإنشاء ، وأن نعمل على ما من شأنه قيام مصر برسالتها العالمية . . دولة قوية تحمل مسئولية العدل والحرية . . وتعنى لخير الإنسان وتعاون الشعوب العربية . »

وهكذا تكونت هيئة التحرير . . وشعارها (الاتحاد والنظام والعمل) وكانت العضوية فى هيئة التحرير مفتوحة لكل مواطن .. ولكل عضو أن يمارس حقه داخل الجمعيات العمومية للقرية أو المركز أو المديرية والمحافظة .

ومن أعضاء مجالس إدارات الجمعيات العمومية تتكون الجمعية العمومية العامة.

ومن بين أعضاء الجمعية العمومية العامة ينتخب المجلس الأعلى الذى يدير أعمال الهيئة ويشرف على فروعها ونشاطها .. ويراقب تنفيذ رغبات أعضائها .

ولقد نص قانون الهيئة على أن يراعى عند تشكيل المجلس الأعلى أن يكون من ٤٠ عضوا يمثلون مختلف المديريات والمحافظات .. والباقون يمثلون مختلف الطوائف والمهن الأخرى .

ولقد تأسست هيئة التحرير كما قال الزعيم جمال عبد الناصر رغبة فى إيجاد تنظيم لقوى الشعب واعادة بناء مجتمعه على أسس جديدة قوامها الفرد .

ولقد أثبت الشعب خلال فترة الانتقال التي أعلنت في ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بعد حل جميع الأحزاب .. تفاعله مع الأهداف التي رسمتها الثورة .. وكان واضحاً أن الجماهير بدأت في النضوج الفكري .

وبدا إحساسها بالحاجة إلى علاج ثوري جديد . . يعزل الطبقات المسيطرة في الماضي ليبدأ إحساس جديد بالمستقبل .

وإزاء هذا كان لا بد من تنظيم قومي جديد يجمع الشعب بأكمله ويحمي مكاسب الثورة .. ويحمي الجماهير من أهداف الانتهازية .. ويمكن كل العناصر الوطنية في وجودها داخل إطار واحد حيث تتفاعل بما يقرب بينها ويحل التناقض الواقع بينها بطريقة سليمة، ويرفع من كفاءتها في مواجهة بداية المرحلة الجديدة في إرساء قواعد الاقتصاد المصري، وإيجاد نواة القطاع العام ليصبح نقطة البداية في الانطلاق نحو ملكية الشعب لوسائل الانتاج .

٣ — الاتحاد القومي .

في ٢٨ مايو عام ١٩٥٨ صدر قرار تشكيل الاتحاد القومي — العمل كما جاء في المادة الأولى من القرار — على تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وجاء الاتحاد القومي في مرحلة تدعيم الاستقلال الوطني في أعقاب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ وبعد تمصير الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أي جاء في المرحلة التي كانت المهمة الأساسية فيها هي التنمية الاقتصادية، وبنـــاء اقتصاد قومي قوي ، والبدء في الانتقال بالمجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم .

وكانت أهداف الاتحاد القومي (١) :

(ا) أن يكون التعبير السياسي عن الوحدة الوطنية التي تأكدت بدحر العدوان الثلاثي وأثبتت صلابتها .

(ب) دعم الثورة الوطنية وهي تتجه نحو التطوير الاجتماعي .

---

(١) المرجع السابق . محاضرات الدكتور محمد الحنيف ص ١١ .

(ج) مواجهة تحديات الإستعمار فى مصر والعالم العربى .
(د) إرساء دعائم الممارسة الديموقراطية القائمة على العدل الاجتماعى .
(هـ) حل التناقضات بين طبقات الشعب بطريقة سليمة .

وقال الزعيم جمال عبد الناصر فى هذا الصدد :

« يمكن أن يقال أن فكرة الاتحاد القومى كانت الوسيلة لتكتيل جهود الشعب والسير به فى الطريق المؤدى إلى تحقيق أهداف الثورة وتجنيبه ويلات الخلاف ، التى قاسينا منها ما قاسينا بعد اتحاد الشعب فى ثورة ١٩١٩ .

لقد كان الاتحاد القومى تنظيما يحقق على أكمل صورة ممكنة فى هذه المرحلة الديموقراطية الاشتراكية التعاونية .

ومن هذه النقطة كان ارتباط الاشتراكية بالديموقراطية التعاونية فى شكلها القائم على زيادة الانتاج وعدالة التوزيع .

وعلى هذه القاعدة صدر قانون الاتحاد القومى وتضمنت لائحته الأساسية :

« اشتراك جميع أبناء الشعب فى اختيار أعضاء الاتحاد .. والمشاركة الإيجابية فى عضوية اللجان العامة » .

ويبدأ تكوين هؤلاء المواطنين ، ويتدرج التمثيل والتشكيل فى عدة مستويات تبدأ من القرية بثلاثة أعضاء كحد أدنى ولا يزيد عن ثلاثين عضواً فى المناطق الكبيرة ينتخبهم المواطنون انتخاباً سرياً مباشراً .

ومن هذه اللجان تتكون اللجان التنفيذية فى القاعدة وهى القرية والمركز ثم اللجنة العامة .. البندر أو المركز .. ثم لجنة المديرية أو المحافظة .. ثم مؤتمر المديرية أو المحافظة ممثلا لجميع أعضاء اللجان التنفيذية داخل حدود المحافظة والمديرية ثم المؤتمر العام على مستوى الجمهورية .. ومنه تنبثق اللجنة العامة للمؤتمر .

ولكن اتضح خلال التجربة العملية لتشغيل الاتحاد القومى كتنظيم شعبي لحماية أهداف الثورة أن هناك عناصر مستغلة تسللت إلى صفوفه فى محاولة لتشكيل قاعدة رجعية داخل هذا التنظيم لحماية بعض التركيبات الإقتصادية والاجتماعية التى تخدم مصالحها المستقلة .

ومن جهة أخرى ذابت في الاتحاد القومي العناصر الثورية الواعية لقضية الثورة ولأهدافها ومبادئها . وظهر أيضاً افتقار الاتحاد القومي — في غياب دليل العمل والنظرية الثورية — إلى الوضوح الفكري بحيث يمكن القول بأن الاتحاد القومي أصبح يضم مجرد ممثلين عن الشعب بغض النظر عن وعيهم وإيمانهم بالثورة واستعدادهم للنضال من أجل أهدافها .

وفي تقييم الزعيم جمال عبد الناصر لهذه التنظيمات في خطابه أمام المؤتمر الوطني للقوى الشعبية (٢ يوليو ١٩٦٢) حدد ثلاثة أسباب لعجزها عن مواكبة التطور الجذري السريع في المجتمع : —

الأول : قوى الثورة في مواجهتها لحتمية التغيير الاجتماعي ، لم تكن قد استطاعت أن تحدد دليلا للعمل الثوري تلتقي عليه الجهود . ومن نتيجة ذلك أن التجمع الشعبي مع النوايا الطيبة التي توافرت له .. كان اقترابا غير منظم من مجموعة من الأماني العامة ليس لها منهاج تفصيلي تلتقي عنده جهود جماعية على أساس فكري واضح واحد لتصدر عنه إرادة شعبية عميقة ومؤثرة .

الثاني : أن الفكر الثوري في تلك الفترة وهو يتطلع إلى الوحدة الوطنية ويدرك ضرورتها الحيوية داخل الوطن وفي مواجهة الظروف المحيطة به وقع في الخطأ حين توهم أن الطبقة المحتكرة التي كان لا بد أن تسلبها الثورة امتيازاتها الاستغلالية ، يمكن أن تقبل الوحدة الوطنية مع قوى الشعب صاحبة المصلحة في الثورة .

ولقد كان من أثر ذلك أن محاولات التنظيم الشعبي التي جرت في ضباب هذا الوهم حدث في داخلها من عوامل الصدام بين القوى الثورية بالطبيعة والقوى المضادة للثورة بالطبيعة ما أصابها بالشلل وأقعدها عن الحركة ، بل وكاد أن ينحرف بها في بعض الأحيان عن الاتجاه الثوري الأصيل .

الثالث : أنه نتيجة لما سبق من غياب دليل العمل الثوري ومن خطأ جمع المصالح المتصارعة في وحدة وطنية موهومة ، ضاع عنصر الالتزام في التنظيمات الشعبية .

غير أننا إذا نظرنا إلى النواحى الإيجابية نجد الاتحاد القومى قد استطـ
أن يحقق نتائج إيجابية فى مجال تنظيم قوى الشعب ونشر مناخ اشتراكى عام ، وبـ
وضع اللمسات الأولى للممارسة الديمقراطية فى نطاق الجماهير .

ومن هنا فإن الاتحاد القومى كان يمثل جزءاً من مرحلة انتقال ، لها دوافعـ
وظروفها وتناقضاتها .

وعلى أية حال فلقد ظهر بعد التحولات الاشتراكية العميقة فى المجتمع بـ
يوليو عام ١٩٦١ وخاصة بعد أن حدثت نكسة الانفصال نتيجة وثبة الرجعـ
فى سوريا ، أن مرحلة التحول الاشتراكى بحاجة إلى تنظيم شعبى اشتراكى يكو
هو صاحب المصلحة الحقيقية فى حماية الثورة والسهر عليها والالتحام معها وبذ
كل طاقاته من أجل الاندفاع بها . فإذا كانت قوانين يوليو ١٩٦١ قد أسقطـ
تحالف الرجعية والرأسمالية . فإنها فى نفس الوقت قد عبرت عن نجاح تحالف قو
الشعب العاملة وأظهرت ضرورة تنظيم هذا التحالف ، وعلى هذا الضوء وبجانـ
استقراء الوقائع التاريخية . وانتقال الثورة إلى مرحلة الحياة الاشتراكيـ
الكاملة ، كان من الضرورى تنظيم الشعب من جديد بحيث تصبح القوى العامـ
فيه داخل إطار تنظيمى قادر على الحركة وقادر على مواجهة القوى الرجعية التـ
تحاول أن تتجمع لحماية الأوضاع والعلاقات الاجتماعية القديمة القائمة على الاستغلا
وتحاول أن تعوق إتمام التحول الاشتراكى .

وهكذا تم تنظيم الشعب للمرحلة الثالثة على طريق الثورة . . فى الاتحا
الاشتراكى العربى ليكون الإطار الذى يضم قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحـ
الحقيقية فى الاشتراكية ولينقلنا إلى مرحلة التحالف بين القوى الشعبية العاملة التـ
لا تسمح العلاقات فيما بينها بأى لون من ألوان الاستغلال .

٤ ـــ الاتحاد الاشتراكى العربى :

تكون الاتحاد الاشتراكى العربى فى ظل أوضاع اجتماعية جديدة شقت لـه
الطريق قيادتنا الثورية بضربات يوليو ١٩٦١ وأغسطس ١٩٦٣ ومارس ١٩٦٤
وهذه الأوضاع هى :

(ا) الاستقلال السياسى والاقتصادى .

(ب) عزل كبار ملاك الأرض وكبار الرأسماليين عن السلطة السياسية وتصفيتهم اقتصاديا .

(جـ) وصول قوى الشعب العاملة إلى السلطة السياسية والاقتصادية .

(د) تصفية الملكية الفردية كأساس للعلاقات الاجتماعية وقيام قطاع عام مسيطر على أهم وأغلبية وسائل الإنتاج وتملكه قوى الشعب وإلى جواره قطاع خاص خاضع لتوجيه الدولة والرقابة الشعبية .

(هـ) تسلح العمل الثورى ولأول مرة بدليل للعمل أقرته قوى الشعب هو الميثاق :

وهذه الأوضاع حتمت أن يكون تحالف الشعب هو تحالف خمس قوى اجتماعية دون غيرها : تحالف الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسماليين بوصفهم جميعاً هم وحدهم أصحاب المصلحة الحقيقية فى المضى بعملية تطوير المجتمع وتغييره اشتراكياً ، ومن هنا كان لا بد للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية أن يحدد من هم أعداء الشعب حتى يقطع عليهم حبل التحايل على الانضمام إلى التحالف .

من هذا فإن الاتحاد الاشتراكى يمتاز عن الشكلين السابقين للتحالف فى النواحى الأساسية التالية : -

(ا) وجود الميثاق كبرنامج ودليل عمل واضح ومقرر من مؤتمر للقوى الشعبية .

(ب) وجود خطة قومية شاملة للتنمية .

(جـ) تحديد قاطع لقوى الشعب بأنها هى فقط القوى التى تستهدف فعلا بناء مجتمع اشتراكى وبالتالى وضوح نقطة فى غاية الأهمية وهى أن هذا التحالف بهذا الوصف لابد وبالضرورة أن يكون قوة ضاربة ضد كل القوى المعادية للاشتراكية . فلم تعد الوحدة الوطنية هى وحدة كل المعادين للاستعمار ؛ بل أصبحت بالتحديد وحدة كل الراغبين فى الاشتراكية ضد غير الراغبين فيها .

ولقد شرح الزعيم جمال عبد الناصر فى جلسات المؤتمر الوطنى هذه النقطة

بقوله : « قبل ذلك قلنا الاتحاد عموماً ، أما الآن فإننا نتفق على أنه لابد أن تتفق عليه ، فأصبح الاشتراكى ، أى أن الرجعيين لا يدخلوه الاشتراكى . . هكذا بوضوح » .

(د) ونتيجة لوضوح مفهوم التحالف وضحت أيضا فكرة الصراع بين والتعاون بينها ، فهناك نوعان من التناقض . تناقض عدائى وكان لا الثورية أن تتدخل لحسمه ، وهو التناقض بين قوى الاشتراكية وقوى الاشتراكية ، وتناقض غير عدائى وهو مابين قوى الاشتراكية نفسها فرضتها طبيعة مرحلة التحول . فعند ما يتحدث الميثاق عن « الصراع والطبيعى بين الطبقات ووجوب حله سلمياً فى إطار الوحدة الوطنية واضحاً أية طبقات يعنى وأية وحدة وطنية يقصد .

(هـ) غير أن هناك إلى جانب هذا كله نقطة على أكبر جانب من الأهمية الاتحاد الاشتراكى دون غيره من الأشكال السابقة وهى أنه يحكم المي العمل الذى يلتزم به) تحالف يضمن فيه فريقان بالذات من القوى الخمس لها وهما الفلاحون والعمال كحد أدنى نصف عدد مقاعد لجان المنتخبين المستويات . . تحالف محوره الفلاحون والعمال .

ولكى نلقى ضوءاً على الاتحاد الاشتراكى العربى باعتباره التنظيم الشعب العاملة لنا أن نتساءل ماهو تعريف الاتحاد الاشتراكى العربى : مراحل تكوينه . . حتى وصل إلى المرحلة الحالية بعد تصفية مراكز كانت تعوق تأدية رسالته ؟

جدير بالذكر أن الاتحاد الاشتراكى العربى يعتبر التنظيم السياسى ا يمثل قوى الشعب الخمس العاملة وهى :

الفلاحون ـ العمال ـ المثقفون ـ والجنود والرأسمالية الوطنية داخل إ من أجل حمايتها من أى مؤامرة فى الداخل وفى الخارج ومن أجل تطو إلى صورة أفضل .

ويعتبر الاتحاد الاشتراكى الطليعة الاشتراكية لقوى الشعب ال

يعرف متطلبات الجماهير واحتياجاتها ومشاكلها وهو بمثابة الوعاء الذى تلتقى فيه آمال الجماهير .

مراحل التكوين التنظيمى للاتحاد الاشتراكى العربى :

اللجنة التحضيرية :

وفى ٤ نوفمبر عام ١٩٦١ أصدر الزعيم جمال عبد الناصر بياناً سياسياً حدد فيه خطوات تنظيم العمل الشعبى فى المرحلة الجديدة مرحلة التحول الاشتراكى .. وفى ١٨ نوفمبر أصدر قراراً بتشكيل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية من ٢٥٠ عضواً لتكون مهمتها دراسة الطريقة التى يمكن أن يتم بها اختيار ممثلين للقوى الشعبية فى مؤتمر وطنى بطريق الانتخاب .

وقد حددت اللجنة التحضيرية القوى الحقيقية الأصلية للشعب ضمن الفلاحين والعمال والرأسمالية الوطنية وأعضاء النقابات المهنية وهيئات التدريس بالجامعات والمعاهد والطلاب والقطاع النسائى .

المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية :

وفى ٢٧ يناير ١٩٦٢ اصدر الزعيم جمال عبد الناصر قرارا بدعوة الناخبين لاختيار اعضاء المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية وتمت الانتخابات فيما بين يومى ٥ ، ١٩ فبراير ، واصبح المؤتمر يضم ١٧٥٠ عضوا بينهم ١٥٠٠ أجرى انتخابهم، ٢٥٠ هم أعضاء اللجنة التحضيرية .

الميثاق الوطنى :

وقدم الزعيم جمال عبد الناصر فى ٢١ مايو عام ١٩٦٢ مشروع الميثاق إلى المؤتمر وتم اقراره فى ٣٠ يونيو عام ١٩٦٢ ليصبح النظرية الثورية لقوى الشعب العاملة التى لابد لها أن تجد تحالفها بعد أن تم اسقاط تحالف الرجعية والإقطاع والرأسمالية المستغلة .

مراحل تشكيل الاتحاد الاشتراكى :

فى ٢ يوليو ١٩٦٢ تقدم جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية

بمشروع التنظيم السياسى يتضمن الأسس التى يتعين أن يقوم عليها هذا التنظيم .

وفى ٣ يوليو أصدر المؤتمر قرارا بتفويض الزعيم جمال عبد الناصر فى تشكيل اللجنة التنفيذية العليا المؤقتة للاتحاد الاشتراكى العربى وتم ذلك فى ٦ نوفمبر ١٩٦٢ وضمت ١٨ عضوا بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .

وعقدت اللجنة التنفيذية العليا أول اجتماع لها فى نفس اليوم وقررت تشكيل الأمانة العامة المؤقتة من ١٢ عضوا.

وفى ١٨ ديسمبر ١٩٦٢ صدر النص الكامل للقانون الأساسى للاتحاد الاشتراكى العربى .

وبدأت انتخابات لجان الاتحاد الاشتراكى للوحدات الأساسية فى ١٢ مايو عام ١٩٦٣ ، وتم انتخاب الأمناء والأمناء المساعدين فى ١٠ يونيو ١٩٦٣ ، ثم شكلت اللجان المؤقتة للاتحاد الاشتراكى العربى بالمحافظات بقرار من اللجنة التنفيذية العليا بإعادة تشكيل الأمانة العامة بحيث تقسم إلى أمانات فرعية .

ودخلت منظمات الاتحاد الاشتراكى العربى فى مرحلة جديدة، بتشكيل المكاتب التنفيذية للمحافظات عام ١٩٦٥ ، واستدعت طبيعة المرحلة التفرغ الكامل للعمل السياسى . ومع بداية عام ١٩٦٦ بدأت تشكيلات المكاتب التنفيذية على مستوى الأقسام والمراكز. ومن ديسمبر عام ١٩٦٦ بدأت محافظة القاهرة تشكيل المكاتب التنفيذية على مستوى الوحدات على ضوء ما أسفرت عنه التجارب الناجحة فى تشكيلات الجماعة القيادية .

وفى ديسمبر عام ١٩٦٦ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعادة تشكيل اللجنة التنفيذية العليا وأصبحت تضم ٦ أعضاء بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .

وهكذا أصبح الاتحاد الاشتراكى العربى هو إطار هذا التحالف الشعبى الذى يعبر عن مرحلة البناء الاشتراكى الذى عبر الميثاق عن أسسه النظرية : فالاتحاد الاشتراكى أصبح التنظيم السياسى الذى يقود العمل الشعبى ويتفاعل مع هذا العمل ومع احتياجات الجماهير عن طريق منظماته فى المستويات المختلفة ، بحيث

يصبح السلطة العليا فوق جميع الأجهزة التنفيذية والأجهزة التشريعية .

إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي بالانتخاب :

بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ . . والوقفة التاريخية لجماهير الشعب في ٩ ، ١٠ يونيو بالاصرار على الصمود ورفض الهزيمة والاصرار على الاستمرار في المعركة حتى النصر . قدم الرئيس جمال عبد الناصر بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ كمنهج للتغيير والتصحيح وأجمعت عليه الارادة الشعبية في إستفتاء عام(١) كان من أهم النقاط التي تعرض لها بيان ٣٠ مارس هو أن يكون الانتخاب الحر هو الوسيلة الوحيدة لاعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي .

فلقد كان الاتحاد الاشتراكي العربي في بداية تشكيله يقوم على التعيين (٢).

ولقد أبرزت التجربة العملية للاتحاد الاشتراكي وخاصة بعض المراكز القيادية ، أن التعيين لا يمكن أن يكون هو الوسيلة المثلى ، فلم يكن يصل إلى المراكز القيادية في كثير من الحـــالات إلا من تدفع بهم وتقدمهم مراكز القوى المتصارعة .

ولقد ترتب على هذا أن كثيرا من ذوى الكفاءة السياسية العالية والإخلاص الوطنى لم يتمكنوا من أخذ فرصتهم في العمل السياسى وذلك لابتعادهم عن مراكز القوى .

ولقد كان من مساوىء التعيين كطريقة للوصول إلى المراكز القيادية أن كثيرا من الموجودين في مراكز القوى كانوا يشعرون بالولاء إلى من أوجدهم في مراكز السلطة ، ولقد استتبع ذلك عدم فاعلية المراقبة وهى العمل الأساسى للأجهزة الشعبية .

---

(١) وضح الزعيم جمال عبد الناصر : أن بيان ٣٠ مارس هو في الواقع من وضع ومن صنع جماهير الشعب : (البيان تركيز وخلاصة الحوار الذى دار في وطننا منذ يومى ٩ ، ١٠ يونيو إلى ٣٠ مارس . كل ما صنعه البيان هو تركيز لكل ما هو إيجابي في هذا الحوار وكل ما هو مخلص وكل ما هو أصيل) .

(٢) كان هناك انتخاب في حدود بسيطة لا يحقق الأسلوب الديمقراطي الصحيح .

ولقد أدى ذلك إلى أن ارتفعت أصوات تنادى بضرورة أن يكون الانتخاب هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه المراكز القيادية داخل الاتحاد الاشتراكي .. ولقد استجاب إلى ذلك الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه الصادر في ٣٠ مارس ١٩٦٨ والذي يعتبر وثيقة هامة في حياتنا السياسية .

ولقد كان من أهم ماجاء في بيان ٣٠ مارس في هذا الخصوص :

« إن علينا أن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكى عن طريق الانتخاب من القاعدة إلى القمة » .

وحدثت الانتخابات من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكى العربى ، فلقد شملت الانتخابات كافة تشكيلات الاتحاد الاشتراكى العربى المختلفة من اللجان التأسيسية فى القرية إلى اللجنة التنفيذية العليا . إلا أن مراكز القوى استطاعت بأساليبها الخادعة وبعناصرها المشبوهة أن تغير نتيجة الانتخابات لصالحها . . ولقد أوضح السيد الرئيس أنور السادات هذه الحقيقة فى خطابه أمام مجلس الشعب يوم ٢٠ مايو ١٩٧١ حيث قال : (لما حصلت الانتخابات من القاعدة للقمة حصل فيها أخطاء كلنا عارفينها . . دونها الرئيس جمال عبد الناصر عنده وقرر أنه لابد من تصحيحها ، بس لأن المعركة والبناء العسكرى وحرب الاستنزاف داخلين علينا وكنا فى ٦٩ قال بتيجى مرحلتها ، إنما لابد من تصحيح كل هذا » .

حركة مايو ١٩٧١ وإعادة بناء الاتحاد الاشتراكى العربى :

وبقيام حركة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ بقيادة الرئيس أنور السادات أمكن تصحيح مسار الثورة باستبعاد مراكز القوى وبتأكيد سيادة القانون وبالعمل على أن يكون للمؤسسات الدستورية والسياسية الكلمة الفصل فى تقرير مجريات المجتمع ومواصلة مسيرة الثورة قدما إلى الأمام فى طريق التحرر الوطنى والتحول الاجتماعى .

وفى خطاب الرئيس أنور السادات أمام مجلس الشعب قرر سيادته إعادة بناء الاتحاد الاشتراكى من القاعدة إلى القمة بانتخاب حر .

ولقد أعيد بناء الاتحاد الاشتراكى العربى من القاعدة إلى القمة لأول مرة فى

تاريخه عن طريق انتخابات حرة بعيدة كل البعد عن أى تدخل من جانب السلطة وهو ما يحق لنا جميعاً على حد تعبير السيد الرئيس أنور السادات أن نفخر به (١)؟

إن هذا فى حد ذاته خطوة بالغة الأهمية ، إذ هيأت للجماهير فرصة اختيار قيادتها بنفسها ، غير أن هذه الخطوة على أهميتها لا تكفى وحدها ضماناً لأن يكون الاتحاد الاشتراكى التنظيم الذى نريده ، التنظيم الذى يقود نضال تحالف الشعب فى المعركة المصيرية ضد العدو ومن أجل البناء .

إن الضمان الحقيقى هو أن يرتبط العمل السياسى ارتباطاً كاملا بالعمل على تنفيذ الخطة والتزام كل وحدة أساسية ، وكل مستوى من مستويات التنظيم بتحقيق أهداف محددة فى فترات زمنية محددة ، ويجب أن يكون هذا هو أساس تقييم الأفراد واللجان والمستويات ، الأمر الذى يفتح طريقاً طبيعياً وثورياً لبروز العناصر القيادية على أساس من الاستحقاق والجدارة وثقة الجماهير . بهذا الأسلوب العملى السياسى وبالسلوك الاشتراكى الصحيح يصبح التنظيم بحق تنظيم الجماهير الخادم لها لا المتسلط عليها .

ان العمل السياسى كما قال الرئيس أنور السادات ليس شعارات ترفع فى تشنج ، وليس إصلاحات وتعبيرات تردد عن ظهر قلب دون فهم أو وعى ، وليس حشداً للناس فى اجتماعات يتبارى فيها الخطباء بالكلمات ثم ينفض الناس فلا هم تكلموا ولا هم استمعوا إلى من تكلم .

إن العمل السياسى عمل ، ولكل عمل برنامج ، ولكل برنامج أهداف ووسائل ، والأهداف لابد أن تكون أهداف الجماهير ، والجماهير هم وسائل تنفيذها ، فإن لم نتكلم لغتهم وإن لم نعرف أهدافهم وإن لم نحس آمالهم وآلامهم كنا كالخشب المسندة ، ولن نعرف ولن نحس إلا إذا عشنا بينهم وآمنا بقدراتهم .

أسلوب العمل السياسى للاتحاد الاشتراكى العربى :

حدد الرئيس أنور السادات الأسس التالية لتحقيق أسلوب العمل السياسى المطلوب :

---

(١) من برنامج العمل الوطنى المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومى العام الثانى فى دور انعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .

١ ـــ الوضوح الفكرى الكامل لطبيعة المرحلة التى تمر بها وما تفرض من مهام وواجبات ، ومايسودها بحكم طبيعتها من عوامل مساعدة ومضادة . وكيفية التصرف إزاءها . حتى يكون الخط السياسى استراتيجياً وتكتيكياً ، واضحاً وضوحاً كاملا أمام المستويات القاعدية والقيادية على حد سواء .

٢ ـــ إقامة البناء الداخلى للتنظيم بحيث يخدم الخط السياسى ويضمن الوحدة التنظيمية والتسلسل الطبيعى للمستويات القيادية والاتصال الدائم والفورى بين المستويات المختلفة ، وبين التنظيم والجماهير وتكوين مكاتب فنية متخصصة فى مختلف أوجه النشاط تمد الأجهزة السياسية بالمعلومات والدراسات اللازمة التى تعاون على اتخاذ القرارات .

٣ ـــ سيادة مبدأ الديموقراطية فى الحياة الداخلية للتنظيم السياسى ، بحيث يكون أسلوب الحياة والعلاقات داخل التنظيم هو الذى يحدد بالتبعية أسلوب تعامله وعلاقاته بالجماهير ، والديموقراطية تعنى حرية الرأى والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف وإيجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعنى حق النقد وممارسة النقد الذاتى ، والديموقراطية هى الضمان الوحيد ضد ظهور مراكز القوى وضد الشللية وضد الولاء لفرد أو لمجموعة من الأفراد .

٤ ـــ وضع نظام ثورى للرقابة والمحاسبة يحدد الحقوق والواجبات لكل عضو وكل مستوى ، ويحدد طرق الثواب والجزاء ويتيح الفرص كاملة للدفاع عن النفس بحيث لا يؤخذ العضو بالشبهات والشائعات أو بمدى قربه من هذا المسئول أو بعده عن ذاك .

٥ ـــ وضع خطة لتثقيف الأعضاء وتربيتهم سياسيا وتنظيميا وفكريا وخلقيا . فالأساس الفلسفى للتثقيف هو الانتماء الكامل للجماهير والتوحد معها الأمر الذى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا ارتبط التثقيف بالواقع وبالمشاكل البعيدة والمشاكل اليومية . وبالظروف التى يعيشها الناس ويتحركون فى ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

٦ — قيام تنظيم طليعى — كانص الميثاق - داخل الاتحاد الاشتراكى يجمع العناصر القيادية التى ظهرت أثناء العمل بين الجماهير من أجل تنفيذ مهام البرنامج فى اخلاص وإتقان وإنكار للذات وبغير تطلع إلى جزاء أو جاه أو منصب، فتثق به الجماهير، وتلتف من حوله ويجب أن يكون جهازا علنيا .

المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكى العربى :

وقد حددها الرئيس أنور السادات فى برنامج العمل الوطنى الذى قدمه إلى المؤتمر القومى العام الثانى فى دورة انعقاده الأول فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ بمهمتين محددتين هما : محو الأمية وتنظيم الأسرة لما لهما من أهمية بالغة وأثر مباشر على تطوير اقتصادنا القومى بالإضافة إلى أنهما لايمكن أن تتولاهما أجهزة الدولة وحدها، ولا يمكن أيضا أن تتركهما للجهود الفردى الجماهير .

وإلى جانب هاتين المهمتين حدد الرئيس انور السادات ثلاث مهام أساسية أخرى للاتحاد الاشتراكى العربى وهذه المهام هى : —

أولا : التوعية بخصائص المرحلة الحالية.

فالمرحلة الحالية من مراحل نضالنا تتطلب من كل مواطن أن يكون على إدراك تام من هو العدو ومن هو الصديق ، هذا إلى جانب اليقظة والنضال ضد المخططات الصهيونية الإمبريالية فى الخارج والقوى الداخلية المعادية للتقدم والاشتراكية وأن تفضح على الفور ماتبثه من سموم بيننا وأن نحمى بجبات عيوننا وحدتنا الوطنية .

ثانياً : التوعية بالتنمية والمشاركة فيها :

فنجاح التنمية رهن بإيمان الجماهير بها وحماسهم لها والإيمان والحماسة لاطريق لها سوى الفهم العلمى لمهام الاقتصاد ، والوعى بأعباء المرحلة. وقضايا التنمية لابد أن تحتل مكان الصدارة من اهتمام الاتحاد الاشتراكى والحكومة على حد سواء فإذا كان التنظيم السياسى هو المدرسة النظرية التى يتعلم فيها الشعب السياسة الاشتراكية فإن القطاع العام هو الميدان الذى يضع فيه النظرية موضع التطبيق.

ثالثاً : بناء الإنسان الجديد :

إن بناء الدولة لا يمكن أن ينجح بدون الإنسان الجديد ، الأمر الذى يـ إلى عمل تربوى مستمر من قبل الاتحاد الاشتراكى بكافة مستوياته وتنظ المعاونة ، وإنها لمهمة صعبة تتطلب عدة سنوات من العمل الجاد المثابر ، إلا مهمة نبيلة تستحق أن تكرس لها الجهود .

إن تكوين الانسان الجديد لا يمكن أن يتم بمجرد الوعظ والإرشاد وبـ إذا كان الوعظ بعيداً عما يغطيه وإنما يتم من خلال القدوة ومن خلال التمـ بقيمنا الروحية النبيلة ومن خلال الصراع الدائم ضد القيم البالية التى فرضتها حياتنا العلاقات الاقطاعية والرأسمالية ومن خلال العمل من أجل حل مشا الجماهير والاشتراك فى تنفيذ أهداف الخطة .

إن الاستعمار علماً منه بما للقيم الثورية من أثر ، يشن ضدنا وضد قيمنا حـ فكرية يستخدم فيها أحدث الوسائل ، وإن علينا أن نواجه هذه الحرب .

إن تقديس العمل واحترامه لا بد أن يكون القيمة الأولى فى حياتنا ولـ لنا أسوة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول لبناته (لا يأتينى النا بأعمالهم وتأتونى بانسابكن) إن أشرف نسب لا يغنى عن العمل .

إن القيمة الثانية هى حب الوطن ، بأرضه ونيله ، وبشعبه وما بناه ، بحاضـ وماضيه ومستقبله .

إننا يجب أن نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب ضد السلبية والتملق والتشهير بالناس والادعاء عليهم بما لم يقولوه أو يفعلوه .

إننا يجب ان نربى فى أنفسنا حب الناس والثقة بهم ، والإيثار والتشدد النفس والوقوف مع الحق . وحسن الاستماع إلى الغير ، والثقة بالنفس بغير غرور وتحمل المسئولية .

إن للأدب والفن ووسائل الاعلام دورها الكبير فى هذه القضية ، قضـ تكوين الانسان الجديد فى مواجهة حرب الدعاية التى تشنها ضدنا قو الامبريالية والصهيونية .

الاهتمام بالتنظيمات المعاونة للاتحاد الاشتراكي :

كما تضمن بيان الرئيس أنور السادات ضرورة إعطاء التنظيمات التابعة :
التنظيم الشبابي ـ التنظيم النسائي ـ النقابات العمالية ـ لجان المعركة : أهمية خاصة لما لهذه التنظيمات من أهمية في تدعيم قدرة وفعاليـة الاتحاد الاشتراكي العربي .

وقد عهد السيد الرئيس أنور السادات إلى السكرتير الأول للجنة المركزية بمهمة أساسية تستهدف « تدعيم قدرة الاتحاد الاشتراكي وزيادة فاعليته وانفتاحه على الجماهير » وحدد سيادته لهذه المهمة خطوطاً أربعة رئيسية هي : (١)

١ ـ حشد طاقة كافة جماهير الشعب عن طريق وضعها في الصورة دائماً .

٢ ـ إدارة الحوار الديموقراطي بين قوى الشعب العاملة ، لكي تتحقق مشاركتها الايجابية في النضال الشامل لأمتنا .

٣ ـ فتح أبواب الاتحاد الاشتراكي ليكون مجالا للتفاعلات الصحية بين كل القوى الشعبية ، ولتكون كل خطوة للأمام متصلة بعملية ديمقراطية سليمة .

٤ ـ إعداد الجماهير نفسياً وفكرياً وعملياً لأعباء مسئولياتها ، وعلى أن يكون واضحاً أن الناس يتقبلون مسئولياتهم إذا حملوا أماناتها وإذا أمسكوا بأيديهم حقوقهم بما في ذلك حقهم في توجيه السلطة الوطنية التي لم تقم إلا لتعبر عن إرادتهم .

وقد عرض السيد الرئيس تفاصيل هذه المهمة ودواعيها على المؤتمر القومي العام الثاني في جلسته الافتتاحية يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ .

وقد سبق أن أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية في البيان الذي ألقاه في تلك الجلسة تصوره الذي استخلصه من الاستطلاع الواضح لرأي ممثلي قوى الشعب العاملة في الاجتماعات العديدة التي عقدت داخل التنظيم وخارجه مع النقابات

---

(١) راجع تقرير الأمانة العامة الذي أقرته اللجنة المركزية بشأن تطور أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي ـ اللجنة المركزية يوليو ١٩٧٢ .

العمالية والمهنية والطلبة والشباب وأساتذة ورجال الفكر والصحافة ، وجرى من خلالها حوار عميق حول التنظيم السياسي وسبل تطويره ومشكلاته ووسائل علاجها .

وانتهى من ذلك كله إلى أن الأوعية التنظيمية أصبحت تضيق — بعد مرور عشرة أعوام على قيام الاتحاد الاشتراكي ، وإزاء المتطلبات الخطيرة لمعركة التحرير — عن استيعاب وتعبئة كل القوى الجديدة والشابة والصاعدة ، فضلا عن طاقات أخرى وطنية ومناضلة ، وذلك إما لسلبيات ذاتية وإما نتيجة للسببين مجتمعين ، الأمر الذي يقتضي مزيداً من الانفتاح على الجماهير وفتح أبواب التنظيم أمام قوى الشعب العاملة ليستوثق الجميع أن تنظيمهم هو أداتهم الشرعية للتعبير عن الرأي .

كما عرض تصوره لوسائل تحقيق هذا التطوير التي تتمثل في :

١ — تحديد وتوضيح المنهج السياسي الفكري والتنظيمي للاتحاد الاشتراكي ودوره وتطبيق هذا المنهج على واقع الاتحاد .

٢ — رصد هذا في وثيقة تنظيمية تكون دليلا سياسيا فكريا وتنظيميا للاتحاد.

٣ — تعديل قانون الاتحاد الاشتراكي تعديلا يحقق هذا التطور ، ويعبر عما انتهت إليه الدراسات والاقتراحات والتوصيات .

وانتهى من هذا التصور بأجزائه الثلاثة إلى تشكيل « لجنة عمل » ولجان تسع متفرعة عنها تضم أصحاب الرأي والخبرة من أعضاء المؤتمر القومي واللجنة المركزية والأعضاء العاملين بالاتحاد الاشتراكي العربي ، تكون مهمتها ترجمة هذا التصور وصياغته ، بعد الدراسة والمناقشة الواسعة إلى مجموعة اقتراحات ومشروعات محددة تطرح بعد ذلك على القواعد الجماهيرية ، ثم تعرض على اللجنة المركزية لدراستها وإقرارها .

وقد وافق المؤتمر القومي العام بجلسته المنعقدة في ١٨ فبراير سنة ١٩٧٢ على هذا التصور وعهد إلى السكرتير الأول للجنة المركزية بتشكيل هذه اللجنة .

وقد روعى فى تشكيل اللجنة واللجان الفرعية أن تكون انعكاساً لمختلف الاهتمامات العامة فى المجتمع ، فشمل التشكيل مسئولين متفرغين للعمل السياسى داخل التنظيم وآخرين يتولون بجانب مسئولياتهم فى التنظيم السياسى مسئولياتهم فى الجهازين التنفيذى والتشريعى ، كما شمل عددا من المتخصصين فى مجال الاقتصاد والفكر السياسى والقانونى والسياسة الداخلية والخارجية والدين فضلا عن العاملين فى مجالات الفلاحين والعمال والرأسمالية الوطنية والشباب والجامعات ، وتوسيعا لقاعدة المناقشة والحوار ، فقد شكلت لجان استشارية تمثل مختلف قوى الشعب العاملة تعاون لجنة العمل فى مهمتها .

وقد أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية للجنة العمل منذ اجتماعها الأول اموراً ثلاثة رئيسية حددت طبيعة دورها وحدود مهمتها .

١ — أنها لجنة فنية مهمتها الإعداد والدراسة ، وأن عملها سيطرح على تنظيمات الاتحاد الاشتراكى فى مستوياتها ثم يرفع بعد ذلك إلى اللجنة المركزية وبذلك تكون لجنة خبرة ومشورة تسهم بفكرها فى دعم حركة التنظيم ونشاطه وسلطته واختصاصه فى مجالات عمله ،

٢ — إنها أخذا بما جاء فى بيان السيد رئيس الجمهورية أمام مجلس الأمة فى ١٩٧١/٥/٢٠ تتحرك فى إطار الأحكام والمبادىء الرئيسية لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كما عبرت عنها الوثائق الرئيسية للثورة وهى ميثاق العمل الوطنى وبيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ وبرنامج العمل الوطنى والدستور .

٣ — أن مهمتها الرئيسية هى المساهمة فى إنجاز أمرين رئيسيين :

الأول : وضع تنظيم سياسى فكرى وتنظيمى لأعضاء التنظيم على ضوء الميثاق ووثائق الثورة .

الثانى : التقدم بمشروع لتعديل القانون الحالى للاتحاد الاشتراكى .

وقد وافق المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى دورته الثانية فى المدة بين ٢٣ يوليو إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ على إحالة مشروع دليل العمل السياسى الفكرى والتنظيمى وكذا مشروع تعديل النظام الأساسى للاتحاد الاشتراكى العربى

الذي تم إعدادهما بناء على توصية المؤتمر القومي العام في دورته الخاصة في ١٨ فبراير ١٩٧٢ إلى تنظيمات الاتحاد ومؤتمرات المحافظات على أن يكون لها حق اقتراح التعديلات التي تراها عليهما ثم يجرى عرضهما بعد ذلك على اللجنة المركزية لاقرارهما في صورتهما النهائية .

ويمكن تحديد خطوط الإصلاح والتطوير الرئيسية التي أمكن استخلاصها من تقرير أعمال لجنة العمل واللجان الفرعية الاستشارية ولجان اللجنة المركزية في خمسة موضوعات رئيسية هي(١) :

١ ــ أهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني القومي .

٢ ــ موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه .

٣ ــ تحديد الخط الفكري للتنظيم .

٤ ــ المبادىء التنظيمية .

٥ ــ إعادة النظر في بناء الاتحاد الاشتراكي وأساليب عمله .

أولا: فيما يختص بأهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني والقومي:

وحول هذا الموضوع ورد بالتقرير أن المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا اليوم ، تحتم إصرار جماهير الشعب ــ أكثر من أي وقت مضى ــ على الوحدة الوطنية باعتبارها الطاقة الخلاقة التي تدفع العمل الوطني وتحكمه ، وتضمن ألا يذهب سدى أو يتفتت في متاهات الصراع أو التناحر والتفرقة ، وعلى أن الترجمة الحقة لهذه الوحدة الوطنية هي الصيغة التي قام عليها تنظيمنا السياسي وحرصت عليها الجماهير ورفضت ما عداها ، وهي صيغة تحالف قوى الشعب العاملة على أن يكون تحالفا حقيقيا وواقعيا بين القوى الاجتماعية وليس تحالفا شكليا بين أفراد ينحرفون بالسلطة أو يقيمون مراكز قوى تبطش بالشعب أو تتخذ من العمل السياسي وسيلة لتحقيق مآرب ومصالح ذاتية .

(١) انظر تقرير الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي الذي أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي يوليو ١٩٧٢ .

ولذلك يجب إدراك الأمور التالية داخل تحرك إطار العمل السياسي فكراً وتنظيماً وعملا :

الأول : تعاظم التحدي الذي يواجه الشعب العربي في مصر نتيجة لتوثيق التحالف ما بين الاستعمار والصهيونية . وهو التحالف الذي استطاع عام ١٩٦٧ أن يصل إلى احتلال جزء من أراضينا مما يوجب علينا أن نحول جزءا هائلا من طاقاتنا الوطنية ومن مواردنا لتحرير الأرض وإزالة آثار العدوان .

الثاني : ضرورة استيعاب التغير المتواصل في الظروف العالمية التي تحيط بالنضال الوطني في هذه المرحلة من نضالنا الخارجي والداخلي على السواء وهو تغير يشبه الثورة في العلاقات السياسية والدولية وفي ميزان القوى والمصالح بين أطراف هذه العلاقات ، وفي العلاقات الاقتصادية وموازينها بين الدول المتقدمة والدول النامية . وفي مجال التطورات الاجتماعية والثقافية والعلمية العميقة التي تشكل بعدا أساسيا بالغ التأثير في مسيرة النضال الوطني والقومي وأساليبه ووسائل حركته .

الثالث : وقفة مع النفس بعد عشرين عاما من بدء الثورة لمراجعة أساليب العمل مراجعة تستهدف تخليصها من الشوائب وجعلها أكثر قدرة على خدمة الأهداف الرئيسية للنضال الوطني ببعديه السياسي والاجتماعي .وعلى مستوياته الوطنية والقومية والدولية وهي الوقفة التي عبرت تعبيراً مباشراً عن نفسها بحركة التصحيح الثورية في مايو الماضي .

على أنه بالموافقة على هذه الأمور ، فإن الأمر يقتضي وضع برنامج مفصل يحدد الخطوات التي يجب اتخاذها لكي يوجه الاتحاد الاشتراكي العربي . في مسيرته بفاعلية — كل هذه الظروف على ضوء المبادىء التي قررتها ثورة ٢٣ يوليو وميثاق العمل الوطني وقررها الدستور وأقرها الشعب في الاستفتاء ، وهي تحرير الأرض والاشتراكية والوحدة العربية .

بمعنى أنه ينبغي على الاتحاد الاشتراكي العربي أن يحدد مدلول هذه المبادىء باستمرار على ضوء الظروف المتغيرة ، ثم وضع البرنامج السياسي لترسيخها ووضعها موضع التنفيذ باستمرار .

وينبغى أيضاً أن يكون هذا البرنامج بخطواته التنفيذية فى متناول كل فئات الشعب على جميع المستويات الثقافية .

والهدف من كل هذا هو أن يكون الاتحاد الاشتراكى العربى هو الموجه السياسى للشعب فى كل الظروف .

ثانياً : فيما يختص بموقف التنظيم من الجماهير .

وحول قضية موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه ، ذكر التقرير أن هذه القضية تتلخص فى أن الجماهير لأسباب عديدة لا تحس إحساساً كافيا بأن لها دوراً فعالا فى الحياة العامة تستطيع أن تمارسه من خلال التنظيم ، وقد كشفت الدراسات حول هذه القضية من أن الاصلاح لابد أن يسير — فى وقت واحد — فى خطوط ثلاثة رئيسية :

الخط الأول : نقل مراكز الثقل الجماهيرى الحقيقية من خارج التنظيم إلى داخله ،عن طريق الربط بين التنظيم والمؤسسات الشعبية والنقابات والاتحادات العمالية والمهنية والشبابية والطلابية .

وقد طرحت لتحقيق هذا الربط فكرتان :

الأولى — تهدف إلى الربط العضوى بين هذه النقابات وبين اللجنة المركزية بأن تنتخب النقابات والاتحادات أعضاء يمثلونها فى اللجنة المركزية .

الثانية — وتهدف إلى تكوين « لجان رأى متخصصة » تنبع من قطاعات الإبداع المادى والفكرى فى الحياة اليومية ، تكون بمثابة نوافذ مفتوحة للتنظيم على مختلف الأنشطة الجماهيرية واتجاهاتها ، وصور التقاء وتفاعل بينها وبين المؤسسات النقابية والمهنية ذات التاثير فى مجالاتها ، ويمكن أن تتكون لجان الرأى هذه ، فى مجالات التعاونيات الزراعية والنقابات ، واتحادات الكتاب والأدباء والفنانين واتحادات وجمعيات العلماء ، واتحادات الطلبة والجمعيات النسائية والغرف التجارية والصناعية .

وينعقد كل ستة شهور مؤتمر لكل لجان الرأى برئاسة السكرتير الأول للجنة

المركـــزية لتبادل الرأى فى الأمور ، تأكيدا لوضوح الرؤية السياسية لدى كافة الأطراف .

وأخيراً فإن الاتحاد الاشتراكى باعتباره تنظيما سياسياً فإنه لايتدخل فى إدارة شئون تلك النقابات والمؤسسات ، وإن كان يحرص على سلامة السلوك ووضوح الرؤية .

الخط الثانى : وضع صيغة مناسبة للممارسة الديموقراطية داخل التنظيم ، عن طريق الانفتاح للافكار والمصالح المختلفة لتعبر عن نفسها داخل إطاره ،ولتأمين هذا التعبير وضمان استمراره .. وذلك بتدعيم المناخ العام للحرية وسيادة القانون فى الحياة السياسية كلها ، وداخل التنظيم بصفة خاصة .

كذلك يتحقق الانفتاح على الجماهير بالحرص على عقد مؤتمرات التنظيم على مستوى المحافظات والمراكز والأقسام والوحدات الأساسية فى مواعيد منتظمة وبجداول محددة ، وبحيث ينتهى عملها باصدار توصيات وقرارات محددة .

وبهذا تتاح لقاعدة عريضة من الجماهير فرصة التعبير المنظم والمشاركة المستمرة فى القضايا العامة واليومية .

الخط الثالث : تحديد العلاقة بين التنظيم السياسى ووسائل الإعلام المختلفة وعلى رأس تلك الوسائل الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، هذه الوسائل هى أداة التعبير عن الخط السياسى والفكر الاشتراكى ، وهى أداة توعية جماهير الشعب العاملة وتعبئتها . وتحديد العلاقة المذكورة تحديداً حاسما أو تهيئة الوسيلة لذلك إنما يضمن سير الأمور فى الطريق المرسوم وعلى ألا يحد ذلك من حرية وسائل الإعلام فى التعبير وفى المناقشة المشروعة فيما بينها .

الخط الرابع : ضبط علاقة الاتحاد الاشتراكى بسائر الأجهزة فى الدولة ، وخصوصا السلطة التنفيذية والسلطة التشريعة ، بحيث يؤدى هذا الضبط فى النهاية إلى تأكيد سلطة الجماهير مما يكفل للشعب السيادة التى قررها الدستور .

وفى مقام هذا الضبط اقترح :

١ ـ اتباع التقليد الذى أرساه السيد رئيس الجمهورية بتسمية رئيس

الوزراء في اللجنة المركزية قبل تعيينه .

٢ — أن تختص اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي بمناقشة الخطوط الأساسية للخطة القومية للتنمية ، والخطوط العامة للسياسة الداخلية والخارجية، على ضوء المبادىء الواردة في وثائق الثورة .

٣ — إيجاد نوع من الربط بين مستويات التنظيم المختلفة والمستويات المقابلة لها في الجهاز التنفيذي ، وذلك ابتداء من الوحدة الأساسية .

وتحقيقاً لذلك اقترح تشكيل لجنة بالقرية تسمى « لجنة العمل الوطني » تتكون من الأعضاء العشرة للجنة الوحدة الأساسية ، وينضم إليهم ممثل عن الجمعية التعاونية الزراعية وممثل عن مجلس القرية ، وناظر المدرسة وطبيب الوحدة الصحية ورئيس اللجنة النقابية وخطيب المسجد والمشرف الزراعي وممثل عن الشباب وآخر عن المرأة ، على أن يكون رئيسها هو أمين لجنة الاتحاد الاشتراكي المنتخب بالقرية ولا يكون لممثلي الجهاز التنفيذي حق التصويت على القرارات في هذه اللجنة .

ويجرى على المستويات الأعلى ربط مماثل بين لجان الاتحـــاد الاشتراكي والأجهزة التنفيذية لاقتراح أنسب الحلول .

٤ — وفي مجال الصلة بالسلطة التشريعية : فإن مجلس الشعب هو مرآة الديمقراطية التي تمارسها جماهير الشعب ومناقشته العلنية المفتوحة تثرى العمل السياسي الذي يقوده الاتحاد الاشتراكي وتدعم حركته .

ومن ثم فإنه ينبغي دعم الدور الذي كفله الدستور لمجلس الشعب ، على أن يكون دور الاتحاد الاشتراكي هو التوجيه إلى الخطوط السياسية الرئيسية في إطار الالتزام بمواثيق الثورة .

ويتحقق ذلك عن طريق الهيئة البرلمانية التي ينبغي دعمها بضم الأمانة العامة وأمناء المحافظات إليها . . كما ينبغي أن يوفر لأعضائها مقر في الاتحاد الاشتراكي وأن تتوثق الصلة بينهم وبين الأمين الأول وأعضاء الأمانة العامة ، وأن يزودوا بكافة الوثائق والبيانات التي توزع على أعضاء اللجنة المركزية وأمناء الاتحاد الاشتراكي بالمحافظات .

كما يكون من اختصاص الهيئة البرلمانية مناقشة المسائل الهامة المتصلة بالتشريع . والتداول فى المسائل التى تهم أعضاء مجلس الشعب كانتخاب رئيس المجلس ووكيلين ورؤساء اللجان وغير ذلك من الموضوعات ذات الأهمية ، وينبغى إنشاء مكتب للهيئة البرلمانيـــة .ولشئون المجالس الشعبية يتبع الأمين الأول .

ومن ناحية أخرى يلزم تدعيم التعاون والإرتباط التنظيمى بين المجموعات الإقليمية وأمناء المحافظات فى ضوء مسئولية أمناء المحافظات عن قيادة العمل السياسى فى محافظتهم ومشاركة عضو مجلس الشعب فى العمل السياسى على مستوى المحافظة ،

ثالثاً — فيما يختص بتحديد الخط الفكرى للتنظيم :

وحول تحديد الخط الفكرى للتنظيم ذكر التقرير :

أن وثائق الثورة قد حددت بشكل واضح أن الحرية والاشتراكية والوحدة هى المبادىء التى تشكل فكر الثورة والتزامها وحركتها ، ومع أن هذه المبادىء واضحة فى ضمير شعبنا ولها جذورها الأصيلة من فكره الذاتى وخصائصه المتميزة إلا أن الممارسة اليومية للعمل السياسى عبر فترة طويلة قد كشفت عن بعض المحاولات لتفسير هذه المبادىء تفسيرات لا تلتزم الواقع المصرى والعربى الأصيل وإنما تحاول الاستناد فى مضمونها إلى عقائديات ومذهبيات وافدة ومطروحة على الساحة العالمية ربما كانت صالحة فى بعض المجتمعات ولكنها عندنا لا تتلاقى مع المقومات الذاتية لشعبنا وبالتالى فإن استيراد مضامين من هذا النوع لا تكون عامل توضيح وتحديد لرؤيتنا ولخطنا ونقل هذه المضامين من الخارج يؤدى إلى التشتيت أو إضعاف الحركة أو فى النهاية يؤدى إلى لبس بين الهدف والفكر .

كذلك فإن التحديد القاطع لما تضمنته وثائق الثورة حول قضايا الفكر الاساسية يحسم كثيراً من التفريعات النظرية أو الجدلية ويكثف جهد الجماهير على

طريق العمل الذى يجب أن ينطلق إليه ويقوده أعضاء التنظيم .

إن مثل هذا التحديد ــ كما دلت التجربة ــ شرط أساسى لقوة الحركة واندفاعها ولحماس أعضاء التنظيم وارتباطهم به ، ومن هنا كان من الضرورى أن يعرض دليل العمل السياسى لهذا الإطار الفكرى، إلى جوار ما يتعرض له من قواعد العمل التنظيمى وأساليبه .

وفى سبيل ذلك عهدت اللجنة إلى بعض أعضائها بمهمة إعداد مشروع لدليل العمل السياسى الفكرى التنظيمى، ومشروع للنظام الأساسى « وهو التعبير الذى أطلقه الدستور على قانون الاتحاد الاشتراكى » كما عهدت إليهم إعداد بيان بالقوانين المنفذة للدستور فى مجال حماية الحقوق والحريات .

رابعاً : فيما يختص بالمبادىء التنظيمية :

وعن المبادىء الأساسية ، أشار التقرير إلى أن التنظيم السياسى فى حاجة ماسة إلى استقرار عدد من مبادىء الحركة التنظيمية داخل مستوياته المختلفة ، ذلك لأن الاتحاد الاشتراكى كتنظيم سياسى لتحالف قوى الشعب العاملة ، يحتاج إلى القدر الضرورى من الانضباط التنظيمى ودقة الحركة الداخلية ، حتى يستطيع أن يؤدى دوره السياسى فى استيعاب حركة الجماهير وتنظيم تعبيرها عن آرائها ، ومن هنا كان من الضرورى أن يقدم دليل العمل لأعضاء التنظيم تحديداً واضحاً لأهم أصول العمل التنظيمى ومبادئه، يرجعون إليه فى ممارستهم اليومية ، على أن تتلقى قيادات التنظيم ، فى المستويات المختلفة بعد ذلك ، قدراً أكبر من التعرف الدقيق على هذه الأصول والمبادىء عن طريق دراسات ودورات تدريبية أكثر عمقاً

خامساً : فيما يختص بإعادة بناء التنظيم :

وفى مجال إعادة النظر فى بناء الاتحاد الاشتراكى وأساليب عمله تحددت عدة خطوط رئيسية هى :

١ ـ صيغة التحالف :

أجمعت الآراء على أهمية الحفاظ الكامل على صيغة التحالف باعتبارها أنسب الصيغ للعمل السياسي التنظيمي ، وذلك انطلاقاً من معنى الوحدة الوطنية التي لا يجوز النيل منها أو المساس بها خلال المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو ، وتأكيداً لمبدأ إمكان حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلمياً داخل إطار التنظيم السياسي ــ بالوسائل السلمية الديموقراطية .

٢ ــ حق العضوية :

اتفقت الآراء بشأن عضوية الاتحاد الاشتراكي والحقوق المترتبة عليها ومنحها وسحبها ، على مبدأين أساسيين :

أ ــ أن تكون العضوية اختيارية ... بحيث لا ينضم للتنظيم إلا الراغبون حقيقة في المشاركة السياسية الإيجابية ، فلا يرغم أحد على عضويته في الاتحاد دون اقتناع أو لمجرد الحصول على منصب في إحدى المنظمات الجماهيرية .

(ب) توفير الضمانات الكافية لمنح العضوية وسحبها ، وأن تكون تلك الضمانات سياسية وعامة ، فلا يتوقف منح العضوية أو سحبها على رأى فرد أو أفراد داخل التنظيم أو في قياداته .

٣ ــ الوحدة الأساسية :

اتفق على أهمية تدعيم وتنشيط الوحدة الأساسية للتنظيم باعتبارها القاعدة الرئيسية والحركة التي تربط بين قيادة التنظيم والجماهير واتفق على أهمية التدعيم المادي والفني للوحدة الأساسية وتدريب الأعضاء ثقافياً وتنظيمياً وتفرغ بعضهم للعمل السياسي .

٤ ــ اللوائح الداخلية :

رؤى وضع نظام عمل ثابت لمستويات التنظيم المختلفة وخصوصاً في المستويات العليا ــ المؤتمر القومي واللجنة المركزية ــ بأن يكون لكل منهما لائحة عمل داخلية تنظم أسلوب عملها وما يقتضيه العمل من تشكيل لجان دائمة أو فرعية

ووسائل الاتصـــال بالأجهزة المختلفة فى الدولة .

٥ ـ الكفاءة الفنية :

اتفق على أهمية رفع الكفاءة الفنية للتنظيم عن طريق تزويده بعنصر الخبرة الضرورى ، خصوصاً فى مستوياته العليا والمركزية ، بتدعيم الأجهزة الإدارية والمعاونة بالمتخصصين فى الشئون الفكرية والتنظيمية والسياسية ، إيمانا بأن قدرة التنظيم على التعبير عن آراء الجماهير وتوجيه دفة الحكم كله فى اتجاه مصالح تلك الجماهير رهن بتوافر الرؤية العلمية الدقيقة داخل التنظيم لكل ملابسات العمل. الظروف الموضوعية المتغيرة التى تحيط بحركة الجماهير فى نضالها اليومى .

٦ ـ تكوين مؤتمر الأمناء (أو مؤتمر الكوادر)

فى مجال ضمان انفتاح التنظيم المتجدد والمستمر على حركة الجماهير ، قدمت عدة اقتراحات بإنشاء أوعية تنظيمية جديدة تكفل هذا الانفتاح وتحققه أهمها اقتراح بعقد مؤتمر دورى بكل ثلاثة أشهر لضم أمناء المحافظات والمراكز والبنادر يرأسه السكرتير الأول للجنة المركزية ويحضره أعضاء الأمانة العامة ، لمناقشة المشاكل والقضايا العملية للنشاط السياسى التى يواجهها التنظيم فى المواقع المختلفه ، ولتبادل الخبرات بالنسبة لاحتياجات ومطالب الجماهير .

٧ ـ الشئون السياسية :

نظرا للأهمية الخاصة لأمانة الشئون السياسية ، فإن زيادة قدرتها فى المجالين الداخلى والخارجى تعتبر مدخلا أساسياً لرفع كفاءة التنظيم السياسى كله ، وذلك بإعادة تكوين مكاتبها وشعبها المختلفه وفى هذا المجال اقترح أن تشكل الأمانة من أربعة مكاتب أساسية :

(ا) مكتب الشئون الداخلية : ويضم شعبتين ، تختص الأولى بإعداد الخطوط السياسية التى يجب أن تتخذ من قيادة الاتحاد الاشتراكى وتختص الثانية بمتابعة قرارات المؤتمر القومى .

(ب) مكتب العلاقات الخارجية : ويختص بمتابعة تطورات ومواقف واتجاهات التنظيمات السياسية فى بلاد العالم ، وتوضيح الخط السياسى للاتحاد الاشتراكى لهذه التنظيمات السياسية .

وينقسم هـذا المكتب إلى أربع شعب [شعبة الدول العربية . شعبة الدول الاشتراكية ـــ وشعبة لدول غرب أوربا وأمريكا واليابان ـــ وشعبة لدول العالم الثالث] .

(جـ) مكتب الخبراء المركزى: ويقوم بإعداد الدراسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى يتطلبها العمل السياسى ويتكون من ثلاث شعب : [شعبة لمتابعة الأحداث السياسية اليومية . وشعبة لقياس الرأى العام واتجاهاته وشعبة للنشرات المركزية] .

(د) مكتب الاتصال: وتـكون مهمته الاتصال بالأمانات النوعية واللجان الرئيسية للجنة المركزية ، وكذلك بالمستويات التنظيمية المختلفة

وتشكل أمانة الشئون السياسية مجلساً مشتركاً لهـــذه المكاتب من المسئولين عنها .

٨ ـــ نشاط التنظيم فى الخارج :

اتفق على أهمية توسيع نطاق علاقة الاتحاد الاشتراكى بالتنظيمات والقوى السياسية فى الخارج ، وعدم قصر هذه العلاقات على منطقة دون منطقة أخرى فى العالم العربى الاسلامى ، وبلدان العالم الاشتراكى ، وأحزاب المعسكر الغربى وأحزاب العالم الثالث .

وأستقر الرأى على ضرورة إنشاء لجنة خاصة تعنى بقطاع المغتربين من الشعب المصرى المنتشرين ما بين أقصى غرب الولايات المتحدة إلى أقصى الشرق فى جزر المحيط الهادى .

٩ ـــ التنظيم الشبابى :

اتفقت الآراء على أهمية وجود تنظيم قوى للشباب ، وأهمية تحقيق التوازن بين ضرورة إرتباط هذا التنظيم بالتنظيم الأم ، وضرورة تمتعه بقـــدر من الاستقلال وحرية الحركة وطرحت لذلك فـكرتان مختلفتان :

الأولى : تقضى بإقامة تنظيم شبابى متكامل المستويات ابتـداء من الوحدة الأساسية إلى اللجنة المركزية ، على أن يكون ارتباطه بالتنظيم الأم من خلال وجود ممثلين له فى اللجنة المركزية .

والثانية : تقضى بعدم تشكيل لجنة مركزية للشباب ، اكتفاء بتمثيل عدد من قياداته فى اللجنة المركزية للتنظيم الأم .

واتفقت الآراء على ضرورة تجنب الازدواج فى تحديد الهيئات المشرفة على الشباب ، وأهمية التنسيق الكامل بين منظمة الشباب والأجهزة التنفيذية المختلفة التى يتصل نشاطها ببعض قطاعات الشباب.

١٠ — التنظيم النسائى :

وفيما يتعلق بالتنظيم النسائى فقد اتفق على ما يأتى :

(ا) تأييد قيام التنظيم النسائى والعمل على دعمه واستمرار نموه .

(ب) وجوب توفير إمكانية الحركة الذاتية للتنظيم النسائى على أن يعمل فى تآزر وترابط وتعاون مع التنظيم السياسى الأم .

(جـ) أن يكون للتنظيم النسائى قيـــاداته المعبرة عن فروع القطاع النسائى المختلفة .

(د) العمل على تمثيل العنصر النسائى فى الشعب والمكاتب المنبثقة عن الأمانات الفرعية المختلفة .

الباب الرابع

حماية الوحدة الوطنية المصرية

في هذه المرحلة التي يثبت فيها الشعب المصرى أصالته وصموده ضد الاستعمار والعدو الصهيونى وعملائه ... تحاول أجهزة الحرب النفسية المعاديه تركيز هجماتها ضد وحدتنا الوطنية .. مستخدمة سلاحين خطرين هما : إثارة الفتنة الطائفية بين المصريين من المسلمين والمسيحيين ، وحرب الإشاعات . بهدف تفكيك الشعب المصرى إلى شيع متحفزة يشغلها التناحر الداخلى عن معركة التحرير الوطنى ، ولاظهار المصريين أمام الرأى العام العالمى فى صورة الأمة المتخلفة

ولكن الشعب المصرى كان على وعى كامل وإدراك تام بحقيقة هذه المحاولات وسرعان ما التفت الجماهير حول بعضها ممثلة فى ممثليها أعضاء المؤتمر القومى وزعماء الطوائف وقادة الرأى ، تؤكد على ضرورة الوحدة كأساس لدعم الجبهة الداخلية فى مواجهة التحديات. فشعبنا يؤمن دائما بأن سلامة الوحدة الوطنية أمانة فى عنق كل مصرى وكل مصرية ، وأن مصر وشعبها لم ينجز مجداً إلا فى إطار الوحدة الوطنية .

وهكذا باءت محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية ، فكما قال الرئيس أنور السادات « إن أرض هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وأن شعبه واحد » فالوحدة الوطنية حقيقة قائمة ومستمرة .

وجدير بالذكر أن أى ادعاء يشكك فى الوحدة الوطنية المقدسة من شأنه أن يضعف الوحدة الوطنية ذاتها ويهدد قدرة الشعب على خوض المعارك المرتقبة تحريراً الأرض ودفاعا عن الحريه وتأمينا التقدم ،

ولذلك فإن حماية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها .. وصيانتها من حملات التشكيك والتضليل والدعايات الكاذبة يعتبر أمرا ضروريا تحتمه طبيعة معركتنا ضد العدو الصهيونى ومن يسانده خاصة وأنه بفضل الوحدة الوطنية يمكن الحفاظ

على المنجزات الثورية وتحقيق المزيد منها ، بالإضافة إلى أنها تكفل حشد القوى الوطنية فى هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

ولهذه الأسباب جعل الرئيس أنور السادات موضوع الوحدة الوطنية الهدف الرئيسى للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى الذى عقد أخيراً فى الفترة من ٢٤ يوليو إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ ، ومن أجل صيانة الوحدة الوطنة ، دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية .

الفصل الأول

الحرب النفسية

ودورها فى زعزعة الوحدة الوطنية

تمارس الحرب النفسية ضد المدنيين والعسكريين فى أوقات السلم والحرب على السواء ، ولكنها تصبح أشد نشاطاً وأقوى خطراً قبيل الحروب وأثناءها .

ولقد حظيت الحرب النفسية فى السنوات الأخيرة بأهمية بالغة ومتزايدة من جانب الدول الكبرى وخاصة بين معسكرات الرأسمالية والاشتراكية فى العالم ، فالحرب النفسية لم تعد مجرد حرب شكلية على هامش الحياة ، بل هى فى الحقيقة والواقع صارت حرب حياة أو موت (١) وخاصة بعد أن أصبحت شعوب العالم تنظر إلى الحرب الدموية سواء كانت بأسلحة تقليدية أو غير تقليديه على أنها أكبر حماقة ترتكب ونوعا من الجنون لا يغتفر ، وأنه من العبث أن يرى الإنسان بنفسه ودنياه إلى الدمار والفناء بيديه لقاء فكرة عارضة ، أو اختلاف على مساحة من الأرض ، أو تشاحن على نصيب من الثروة ، أو تشبث بنفوذ واستعلاء .

أهمية الحرب النفسية فى العصر الحالى :

إن دور أهمية الحرب النفسية قد زادت بسبب التغيرات الكبيرة التى طرأت على المعدات والأسلحة والفن القتالى ، فقد وضعت الأنواع الجبارة من الأسلحة اعتبارات ومبادىء جديدة لسلوك ونفسية المقاتل فى الظروف القتالية ، ولقد أكد كثير من علماء النفس الحربيين فى الغرب فكرة مؤداها أن الوحدات القتالية تحت تأثير الصدمة ستصبح عاجزة ليس بسبب الخسائر الفادحة فى الأرواح

---

(١) المجلة العسكرية القوات المسلحة العدد ١٤٩ مارس ١٩٧٠

والمعدات وإنما بسبب تأثير الصدمة النفسية وعندئذ يفقد الجنود تحت تأثير الفزع القدرة على التفكير والتصرف الذاتى فيتجاهلون مطلقاً أوامر القادة وبالتالى لن ينفذوها .

وعلى ذلك فإن معظم النجاح فى الأعمال الحربية يعتمد اعتماداً أساسياً على العوامل النفسية ، فقد يصيب الموت غالبية جنود العدو ، وقد يحل الدمار بممتلكاته وموارده ، ومع ذلك فإننا نرى البقية الباقية من قواته العسكرية وأفراده المدنيين يستميتون فى الدفاع والمقاومة ، ويأبون الخضوع أو الاستسلام ، لأنهم يعلمون أن الغاية التى يسعى إليها العدو ، هى إخضاع قواتهم العسكرية . وأفراد الشعب المدنيين ، لإرادته وسلطانه لاستغلال مواردهم وجهودهم لمصلحته الخاصة .

فالقوات الروسية التى دافعت عن استالنجراد ، وقاومت الهجوم الألمانى الوحشى ، ووقفت فى وجه معدات التدمير الألمانية ، من مدافع حصار ، وقذائف طائرات لمدة ثلاثة أشهر ، لم ترضخ أو تستسلم ، بل قاومت إلى أن تحقق لها النصر على القوات الألمانية ، فى الوقت الذى تمكنت فيه هذه القوات من التغلب على مدن روسية أخرى أكثر عدة وعدداً ومناعة وتحصينا ، لجميع قذائف الطائرات ونيران المدفعية ، والهجمات المتوالية التى وجهت إلى استالنجراد . فشلت ولم تحقق هدفها لأنها لم تحطم روح القتال والثقة بالنصر لدى المدافعين (١) .

ونفس الشىء عندما وقع عدوان ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، حيث فوجئت جماهير شعبنا بلطمة الهزيمة السريعة، ولكن سرعان ما استعادت توازنها مدركة بوعيها وأصالتها أن العدو لن يستطيع بحال من الأحوال أن يخضع إرادته ..

فكانت الوقفة التاريخية لجماهير شعبنا العاملة فى ٩ ، ١٠ يونيو التى فرضت بها إرادتنا بشكل قاطع بالنسبة لكل القضايا التى تتعلق بكيانها ومستقبلها :

— إصرار على الصمود ورفض الهزيمة .

— إصرار على الاستمرار فى المعركة حتى النصر .

---

(١) علم النفس العسكرى وفن القيادة . القاهرة ١٩٤٩ ص ١٥١ .

— استمرار على التمسك بالثورة وبقيادتها من أجل استمرار التحول الاشتراكي نحو مجتمع أكثر تقدما :

مفهوم الحرب النفسية :

وضعت عدة تعريفات لمفهوم الحرب النفسية لا تخرج عن كونها : الحرب التي تعتمد على نقل أفكار ومعلومات معينة إلى العدو من شأنها أن تضعف روحه المعنوية وتهبط إصراره على مواصلة القتال وتجعله يعتقد أن من الأفضل أن ينهي الحرب على أية صورة .

فالحرب النفسية إذن هي حرب تستهدف الروح والعقل ، وسلاحها الفكر . توجه إلى المواطنين والحلفاء من جهة وإلى الأعداء وشبه الأعداء المحايدين من جهة أخرى ، وميادينها ليست أرض المعارك والمحاربين فحسب وإنما يتعدى أمرها إلى شعوب هؤلاء المحاربين وشعوب غير المحاربين ، ولا تحكمها قوانين أو عادات أو تقاليد أو عرف .

وتستخدم الحرب النفسية في تأثيرها المستمر على العدو كل وسائل الاتصال والإعلام لإشاعة القلق والاضطرابات في صفوفه وإضعاف تماسكه ، وتحطيم روحه المعنوية .

ويعني المفهوم العسكري للحرب النفسية أننا نتجه مباشرة إلى معنويات العدو ، أي إلى إرادته وعزمه على مواصلة القتال ، فإذا استطعنا أن نهبط بمعنوياته تمكنا من أن نغلب إرادتنا عليه بعد أن نضعف إرادته وعزمه على مواصلة القتال .. ولهذا تعتبر الحرب النفسية جزءا مكملا للعمليات الحربية (١) .

وتدار عمليات الحرب النفسية في تنسيق محكم مع الخطط العسكرية الموضوعة في مختلف مستويات القيادة . (٢)

نظرية الحرب النفسية :

تقوم نظرية الحرب النفسية على أن الانسان هو محور المعركة أو القتال وأن الأسلحة والمعدات سواء كانت برية أو جوية هي وسائله المعاونة على التفوق أو النصر .

---

(١) راجع جولدن السكبورت وليو وبستمان : سيكولوجية الاشاعة ترجمة صلاح مخيمر ومراجعة سيد مرسي ص ٤ .

(٢) راجع اللواء عبد الرحيم عجاج : دور الحرب النفسية في المعركة — ص ١٠ .

فلا قيمة للتفوق المادى مهما كانت أشكاله ودرجاته إذا لم يصاحبه تفوق معنوى.

وعلى قدر مايتمتع الفرد أو العنصر البشرى بقدرة ذهنية وحسية تتوقف نتائج الصراع الذى يخوضه بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة .

وحين نقول الفرد ، فلا ينبغى أن تنصرف الأذهان تلقائيا إلى المقاتل فى المعركة فحسب ، سواء كان جنديا أم قائداً ، وإنما كل فرد فى المجهود الحربى سواء كان مزارعا أم عالما أم مفكراً أم طبيبا وما إليهم من أبناء الشعب المحارب بأسره من رجال ونساء .

وميزة الحرب النفسيه أنها أقوى مفعولاً وأسرع تأثيراً من الحرب الدموية وأيسر استخداما ، وفوق كل هذا أنها لاتكبد مثلما تكبد الحرب الدموية من جهود طائلة ونفقات باهظة وخسائر فادحة فى كيان الدول وحضارتها .

أهداف الحرب النفسية :

١ ــ التأثير على الكفاءة القتالية للعدو باستغلال أوجه الضعف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية الموجودة لديه . هذا بالاضافة إلى بث اليأس من النصر فى نفوس القوات المحاربة .

٢ ــ التأثير على الآراء والانفعالات والاتجاهات والسلوك بالنسبة للعدو ومما يساعد على هزيمته فى المستقبل .

٣ ــ وتسعى عمليات الحرب النفسية إلى التحكم فى معتقدات وأفعال العدو باستخدام وسائل الاتصال المختلفة لكى :

(ا) تحرض على التمارض والهروب والفتنة والتسليم بين وحدات العدو .
(ب) فقد ثقة العدو فى قادته وتسليحه ومعداته .
(جـ) تثير الشك حول أحقية أهداف حرب العدو .
(د) تزعزع إيمان العدو فى النصر النهائى .
(هـ) تنمى المقاومة لمذاهب وعقائد حكومة العدو ،
(و) تزعزع الثقة بين حكومة العدو وشعبه .

(ز) تخلق الانشقاق فى جماعات وطوائف معينة بين شعب العدو .

(ح) تشجع الحركات المقاومة داخل مناطق العدو .

(ط) تمنع تعاون الجماعات الأجنبية مع العدو فى المناطق التى تحتلها قواته .

(س) تعمل على توطيد أواصر الصداقة والتعاون بين المتحالفين .

(ك) تحول دون مساعدة الجماعات المحايدة للعدو اقتصاديا وسياسياً .

وسائل الحرب النفسية :

ومن وسائل الحرب النفسية (١) :

١ — حرب الدعاية

٢ — حرب الاشاعة .

٣ — الحرب الاقتصادية .

٤ — القتال الفعلى .

أهداف إسرائيل فى حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية :

أشار السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب يوم ١٩٧٢/١٢/٢٩ أن حرب العدو النفسية علينا لم تهدأ لحظة لأن العدو كان يعرف أن النصر والهزيمة يبدآن من داخل أى مجتمع .

ويمكن حصر أهداف إسرائيل فى حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية فيما يلى :

١ — التشكيك فى القيادة السياسية وقدرتها على قيادة الشعب المصرى .

٢ — التشكيك فى الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا وعدم قدرتها على الاستمرار ، كذا التشكيك فى الدعوة لقومية المعركة .

---

(١) راجع العقيد جمال السيد — أضواء على الحرب النفسية : المكتبة الثقافية العدد (٢٨٣) ص ١٠٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٢ .

٣ — إيهامنا — وهو أخطر النقط — بأننا كشعب عاجز عن تحقيق الكفاءة القتالية المطلوبة — وغير قادر على استعادة أرضنا المقدسة.

٤ — العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة والشعب وزعزعة التلاحم الموجود بين الشعب وقواته المسلحة.

٥ — العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة وقيادتها السياسية.

٦ — التشكيك بالوحدة الوطنية بين المسلمين فى هذا الوطن وبين الأقباط فيه.

مظاهر الحرب النفسية التى نتعرض لها حاليا من جانب الاستعمار وإسرائيل:

نظراً لما يتصف به الشعب المصرى من تماسك وحرص على وحدته الوطنية، كانت مدعاة للتعبير عن أقوى دعامة قام عليها إتحاد أبناء مصر على اختلاف دياناتهم فى الشدة والرخاء والحرب، واستطاع بها صيانة أعظم حضارة عرفتها الانسانية فى كل تاريخها الطويل، وحقق بها شعبنا إنجازات ضخمة فى كل نواحى الحضارة والرق، وكافة فروع المعرفة الإنسانية الظاهرة والخفية. فلقد ركز الاستعمار والصهيونية كافة وسائل وأساليب الحرب النفسية لمحاولة النيل من هذه الوحدة الوطنية التى تعبر عن تماسك الجبهة الداخلية.

وقد ركز الاستعمار والصهيونية على أسلوبين خطرين هما:

حرب الاشاعات، وإثارة الفتنة بين الأقباط والمسلمين، وكانت نتيجة ذلك أن تعرضنا أو أوشكنا أن نتعرض لعدد من المخاطر من ذلك (١):

١ — مخاطر تهدد وحدة قوى الشعب العاملة بهدف إذكاء حدة الصراع بين قوى التحالف بدلا من تهدئتها كإثارة المنازعات بين الرأسمالية الوطنية مثلا وبين العمال والمثقفين.

٢ — مخاطر تريد أن تصرفنا عن النضال المشترك ضد العدو باذكاء خلافات

١) راجع ما جاء بمقال الدكتور جمال العطيفى بجريدة الأهرام بتاريخ ٢١/٨/١٩٧٢.

أيدولوجية ، فمثلا قد يثار أن كثيرين ممن يبلشون عملهم السياسي اليوم تحت راية الاتحاد الاشترا كي كانوا ينتمون قبل عام ١٩٥٢ إلى أحزاب وتنظيمات قديمة حلت وانتهى أمرها أو استنفذت غرضها ، بل إن بعضهم كان ينتمي إلى تنظيمات كانت تباشر نشاطها خفية قبل عام ١٩٦١ .. وحلت نفسها أو انتهى نشاطها سواء ما كان منها تنظيميا فى أقصى اليسار أو تنظيميا فى أقصى اليمين .

٣ — مخاطر كادت أن تهدد المجتمع نتيجة ممارسة الديمقراطية الحقيقية، وفتح باب المناقشات خاصة أمام الشباب فى جميع المجالات من قضايا التنمية إلى قضايا المعركة وما قد ينجم من آثار تصرف البعض عن المعركة نتيجة هذا الانفتاح ، وما يترتب على ذلك من نتائج .. خاصة وقد استغل أعداء المجتمع هذا الانفتاح ذخيرة يمكن أن تنفعهم فى الحرب النفسية كاستغلال فئة ضئيلة من الطلبة ذوى الميول الهدامة ودعوتهم للتظاهر والاعتصـــام والانتقال بنشاطهم إلى خارج الجامعات بقصد إثارة فئات الشعب المختلفة مثلما حدث يومى ١ ، ٢ يناير سنة ١٩٧٣ .

٤ — مخاطر تهدد وحدة الشعب بإثارة نعرات طائفية واختلاق أسباب لإثارة الحقد بين الطوائف ، وبماذا نفسر مثلا أن تقريرا أعد فى عام ١٩٧٠ عن حالة فردية جرت فى مدينة الإسكندرية ، ويعاد طبعه فى عام ١٩٧٢ فى نشرات توزع بالبريد لاثارة مشكلة غير قائمة ؟ وإذا بنا بين يوم وليلة نكاد نفقد رءوسنا .. ونوشك أن نتعرض لفتنة كان من الممكن أن يستفحل أمرها ، مثل الأحداث المؤسفة التى وقعت فى الخانكة فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ والتى عبر عنها الأمين الأول للجنة المركزية بأنها « لاتنبىء عن وجود الحزازات والأحقاد بين المسلم والمسيحى ، بل إنها فقط تكشف عن وجود عناصر ليست على مستوى المسئولية القومية، وغير واعية للهدف الوطنى الأسمى. عناصر أساءت التصرف على أساس أوهام قامت فى أذهانها أو لأسباب لاتتصل بالصالح العام أو بالغيرة على الدين من قريب أو بعيد » .

١٨١-٣

أسباب قيام الاستعمار والعدو الصهيوني بشن هذه المخاطر التي تتعرض لها الوحدة الوطنية :

جدير بالذكر أن المخطط الذي أعده أعداؤنا لتفتيت الجبهة الداخلية عن طريق بث التفرقة والانقسام بين شعب مصر مستغلا الدين لتحقيق هذا المخطط إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى ما يأتي : —

١ — أن العدو قد أصبح يؤرقه صمود هذا الشعب بعد المحنة التي تعرض لها في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأنه يرى أن هـــذا الصمود يجب أن يتحطم بوسيلة أو بأخرى لأن استمرار هذا الصمود بداية الطريق لتحقيق النصر .

٢ — أن العدو لم يعد أمامه إلا استخدام هذا الأسلوب خاصة وأنه قد استنفد كل حيله في المعركة .. وكل أساليبه في الصراع من أسلحة عسكرية وسياسية واقتصاديـــة .

ولذلك لجأ العدو الصهيوني إلى استخدام أساليب الحرب النفسية علينا لعلمه أن النصر والهزيمة يبدآن من داخل أي مجتمع .

وعلى الرغم من أن محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية قد باءت بالفشل إلا أن العدوان لم ييأس مادام لم يحقق أيا من أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها . ولعل أهم شيء تتحطم عليه أطماع العدو وأساليب حربه النفسية هو الوعي الكامل بهذه الاساليب . والعمل على كشفها في عقر دارها هذا إلى جانب الصمود والتأكيد على ضرورة الوحدة الوطنية كأساس لدعم الجبهة الداخلية في مواجهة التحديات .

الفصل الثاني

مهام وواجبات الشعب

في دعم الوحدة الوطنية

أهمية الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية :

إذا كان مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة يجسم الوحدة الوطنية المقدسة ، ويعبر عن إجماع الجماهير بمختلف قواها العاملة على الحركة الدائبة من أجل تحقيق الآمال والمصالح القومية ، فإن كل ادعاء يشكك في هذا المبدأ ـ من شأنه في النهاية ـ أن يضعف الوحدة الوطنية ذاتها ، ويهدد قدرة الشعب على خوض المعارك المرتقبة ، تحريرا لأرضه ، ودفاعا عن حرية إرادته وتأمينا لتقدمه .

ولذلك فإن من أخص واجباتنا في هذه المرحلة ، الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية . إدراكا منا أنه بفضل الوحدة الوطنية أمكن تحقيق المنجزات الثورية لشعبنا .. إدراكا وثقة أنها ليست فقط ضرورة الحفاظ على تلك المنجزات ولتحقيق المزيد منها ، وإنما هي ضمان رئيسي كفلته جماهيرنا في مواثيقها الثورية تحقيقا للتغيير الاجتماعي ، على أساس حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلميا بالوسائل الديموقراطية .

إدراكا أن الحرص عليها لايعني أنها تمسقيا أو مصطنعا للمصالح المختلفة لقوى الشعب العاملة ، أو اتخاذها ذريعة لحجب الديموقراطية .. ولكن إدراكا أنها ضرورة حياة لهذا الشعب ، تجنبه الفرقة ، وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

ادراكا لذلك كله .. علينا جميعا .. ووحدتنا الوطنية قد وجدناها في الماضي ضرورة عقل ومنطق ، أن نستمسك بها اليوم قوية منيعة ، وهي لحاضرنا ومستقبلنا حياة وبقاء .

مهام وواجبات الشعب فى دعم الوحدة الوطنية :

علينا جميعاً ونحن نتحرك بعزمات لاتكل محصنة بأمل واع عرق ، وبعد أن كسرت جماهير شعبنا بحركة التصحيح المجيدة الأغلال والقيود التى أطبقتها مراكز القوى المندثرة على الطاقات الخلاقة لهذا الشعب العظيم فى فكرته وحريته ، علينا وقد وعينا درس النكسة عظات وعبرا ، أن نتحرك فى النور بهدى من عقيدتنا باذلين كل ماوسعته قدرتنا وطاقاتنا لدعم العمل الوطنى ولتوحيد الجبهة الداخلية لجماهير شعبنا وراء قواته المسلحة الباسلة الرابضة على خطوط المواجهة ، المتأهبة لخوض معركة الشرف والمصير . . علينا أن نعمل من أجل مصر . . أمتنا الخالدة خلود الحياة لكى نستحق الحيـــاة ، وحتى نكون ، وإلا لما استحققنا أن نكون ، .

ونجمل فيما يلى مهام واجبات الشعب فى دعم الوحدة الوطنية :

أولا : الحفاظ الدائم على دولة الشعب . . دولة المؤسسات :

جدير بالذكر أنه بعد أن تم إعادة بناء الاتحاد الاشتراكى بالانتخاب الحر من القاعدة إلى القمة . كذا إقامة المؤسسات الدستورية والنقابية على أساس من الانتخاب الحر بعد تنقية مجتمعنا من مراكز القوى حتى أصبح الشعب بحق هو صاحب السلطة والسيادة والارادة ، صاحب الفضل الأول والأخير ، صاحب المصلحة فى الثورة الاشتراكية . دولة المؤسسات الشعبية والدستورية دولة الشعب كله ، الشعب فيها أسرة واحدة دولة لا تورث ولا تورث ، ولا تكون حكراً أو احتكاراً لشخص أو فئة .. لا مكان فيها لسلطان الفرد أو طغيانه .

دولة تتخذ من مؤسساتها سياجا ، ومن سيادة القانون درعا تصد مراكز القوى وتمنع ظهورها ، وقاية للشعب من تسلطها وحماية له من تجبرها :

إن دولة الشعب دولة المؤسسات ، انفتح لها الطريق ورسم لها الإطار وما أن أزيحت مراكز القوى عن مواقعها حتى صدر دستورها الدائم ، وقوانينه

المشكلة . حماية الحريات القائمة ، إلغاء موانع التقاضي تجديداً للفصل بين الطريق التأديبي ، تنظيما لمباشرة الحقوق السياسية ، تدعيما لمجلس الشعب وتأكيداً لسلطاته .

علينا أن نتم البناء بوعي وثقة ، ونعمل في النور ، متخذين من تنظيمنا السياسي منبراً حرا مفتوحا ، يعبر بحرية وصدق عن آراء أعضاء قوى التحالف . فيكون لدولة المؤسسات كيانها الكامل ، ولا تقوم فيها لمراكز القوى قائمة .

ثانياً : تعميق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة :

إن مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة وقد جسده هذا الشعب تنظيما في الاتحاد الاشتراكي العربي - استقر بديلا للنظام الحزبي . تعبيراً عن ظروفه الموضوعية والتاريخية التي تشهد بتضامن هذه القوى وتلاحمها في سبيل خدمة الأماني القومية ، دون أن تستأثر إحداها عن الأخرى بشرف تحقيق هذه الأماني .

ولزاما علينا أن نعمق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتعبير عن الوحدة الوطنية في أذهان الجماهير . حتى يظل تحالفا حقيقيا وواقعيا بين سائر القوى العاملة ، وليس تحالفا شكليا بين أفراد أو جماعات يتخذون منه وسيلة قمع أو طريقا لتحقيق مآرب ومصالح غير مشروعة .

ثالثاً : التوعية باستراتيجية إسرائيل ومخططات الولايات المتحدة الأمريكية

إن مرحلة المواجهة الشاملة بأبعادها واحتمالاتها ، وما تتطلبه من أصحاب المصلحة الحقيقية - بصفة خاصة - من جهد وتضحية . لمن الأهمية بمكان أن يكون لدينا جميعا خط فكري عام باستراتيجية إسرائيل ووضوح الرؤية بمخطط الولايات المتحدة الأمريكية ، بما يستخدمونه من أسلحة الدعايات الصهيونية المسمومة ضدنا والطرق التي يوجهون بها الحرب النفسية عن طريق إذاعتهم وصحفهم .

وهذا من الضرورات التي يجب أن نكون يقظين دائما بها ونحن نمضي في تحركنا الفعال نحو أهدافنا ، وأن لا نغمض أعيننا على المؤامرات التي تحيكها ضدنا القوى المعادية . وبالذات الحرب النفسية المكثفة التي تشنها الولايات المتحدة

الأمريكية واسرائيل للنيل من تماسكنا ، وخلق البلبلة فى نفوسنا وزعزعة الثقة فى أنفسنا . وبث عوامل الفرقة والانشقاق بيننا والتشكيك فى قدراتنا . فالجبهة الداخلية فى مقدمة الأهداف التى يحاول العدو أن يسدد لها الضربات والمكائد طالما الصراع بيننا وبينه قائم . ولهذا أصبحت وحدة الجبهة الداخلية ضرورة إستراتيجية .

والجبهة الداخلية هى درع الأمة فى الحرب المحتومة بيننا وبين إسرائيل وتمزق الجبهة الداخلية هدف أساسى من أهداف إسرائيل وأمريكا ، بل وهدف استراتيجى لمخطط إسرائيل فى حربها معنا . وتمزق الجبهة الداخلية هو انتصار لاسرائيل ، ولأعوان إسرائيل .

رابعا : زيادة الانتاج

وإذا كان العدو قد فشل فى زعزعة الجبهة العسكرية ، أو فى محاولة التأثير عليها . فإن العدو الآن يركز كل ثقله ويكثف نشاطه على جبهتنا الداخلية للنيل من صلابتها . والنيل من تماسكها لأنها فى الواقع الجبهة الأساسية التى تتلاحم وتخدم جبهة القتال مباشرة وتمد خطوطها بالعتاد والسلاح والرجال وكافة مستلزمات القتال .

كما أنه يتوقف عليها بناء قاعدتنا الاقتصادية فى الداخل وهى سند المعركة ، وخلق مقومات للصمود الاقتصادى وبناء القوة الذاتية . ومن هنا كانت أهمية وضرورة اتخاذ قرار وضع الجبهة الداخلية فى موقف يجعلها قادرة على تحمل كل ما هو مقبل من مخاطر المعركة فى العمق .

ومعركتنا مع العدو وانتصارنا عليه لن يكون برفقة السلاح فقط لحماية الجبهة الداخلية ، وزيادة الانتاج فى المصانع هو خط الدفاع الأول لتأمين متطلبات المعركة وتأمين متطلبات المجهود الحربى . وكل زيادة فى الإنتاج هى عمل على طريق المعركة . وتحسين الإنتاج يتضمن توفير متطلبات القوات المسلحة للمعركة وتوفير احتياجات الجماهير وحل مشاكلهم مع حسن وكفاءة اداء الخدمات لها باخلاص وصدق وأمانة . هو إعداد للمعركة والتسليح بالوعى

والمعرفة والعلم يوصلنا إلى الارتقاء بمستوى الانتاج » كما وكيفاً » .

وكل هذه الأمور والضرورات حماية للقوى البشرية، وزيادة صلابة المواطن وقدرته على الصمود . وكلها أعمال ضرورية وحيوية لوضع الجبهة الداخلية على مستوى المواجهة الشاملة .

خامسا : التصدى لأساليب الحرب النفسية التى يشنها العدو على جبهتنا الداخلية

جدير بالذكر أن الحرب النفسية التى توجهها ضدنا أمريكا وإسرائيل لا تقل ضراوتها وشراستها من أخطار الحرب التى نستعد لخوضها . وتوجــه الحرب النفسية بأساليب مختلفة . بهدف نشر سمومها فى الجبهة الداخلية . بما يستخدم فيها ضدنا من أساليب الوقيعة ووسائل الخديعة والتشكيك فى القدرات والكفاءات وعزل القاعدة الشعبية عن القيادة السياسية وخلق جسر من عدم الثقة .

ويتوقف على قدرة كل فرد فينا فى العصف بكل محاولات التشكيك واسلحة الحرب النفسية . نجاحنا فى معركة التحدى التى تواجهنا . فالمواطن اليقظ الحذر الواعى هو درع للجيش على جبهة القتال . وهذا ضمان أكيد للنصر . فالحرب النفسية موجهة أساسا إلى إرادتنا وإلى أعصابنا ومبادئنا . ويجب أن نكون على حذر كامل .

والتحدى لأساليب الحرب النفسية واجب وطنى . وهذا يتطلب منا الوعى الكامل واتخاذ كافة الاجراءات لمقاومة دعاية العدو ولتكن استراتيجيتنا فى المرحله المقبلة كما حددها الرئيس انور السادات استراتيجية طويلة النفس . إستراتيجية الصبر والصمت .

فالحرب النفسية ضدنـا لن تتوقف وسوف تتخذ أسـاليب وأشكالا مختلفة وأهدافـا متنوعة . فليـكن أبلغ رد على ذلك هو التزام الصمت الكامل بالنسبة لتحركنا النشيط على طريق المعركة ، وما نتخذه من خطوات مقبلة لخدمة تحقيق أهداف الانتصار . والتذرع بالصبر الواثق من نفسه لزيادة استعداد واستكمال جميع أسلحتنـا ، وبنـاء قدرتنـا على الانتصـار حتى تحـين لحظة تنفيذ قرار التحرير والنصر .

الوحدة الوطنية وإزالة آثار العدوان :

نظرا لأن المعركة التي نخوضها مع العدو الاسرائيلي ومن يسانده معركة مصير . . ومعركة ملحة لأن العدو في داخل أراضينا فهي تتطلب منا أن نخوضها مؤمنين بحتميتها ، مضحين في سبيلها بكل شيء : بالعرق والدم ، وبالمال والبنين ، بالوقت والجهد المضني . . واثقين من رعاية الله لكل ذي حق مشروع ، غير باغ ولا عاد .

ومعركة المصير تتطلب منا :ـ

١ ــ التمسك بالوحدة الوطنية إدراكا أنها ضرورة حياة لهذا الشعب تجنبه الفرقة وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو. كما أن الوحدة الوطنية على حد تعبير الرئيس محمد أنور السادات، تمثل واقعا فعليا في العلاقات القائمة بين الجمعيات الإسلامية والمسيحية، وهي سمة أصيلة من سمات مجتمعنا المصري وهي التي استطاعت أن تقضي على الفتن التي كان الاستعمار يثيرها من وقت لآخر أملا في تفتيت وحدتنا ولكن فشل وسيظل يفشل في ذلك كل مرة وسيظل يفشل دائما بفضل تماسكنا ووحدتنا » (١) .

٢ ــ التوعية بالمرحلة الراهنة باعتبارها نقطة ارتكاز في الانطلاقه الجديدة للعمل السياسي وحتى تكون جماهير شعبنا على وعي كامل لواقع حاضرنا وظروف المرحلة التي نمر بها وخصائصها حتى تجيء حركة نضالنا الوطني ــ دائما ــ متفاعلة مع ذلك الواقع ، وهــــذه الظروف والخصائص ، مهتدية بكل الأبعاد والمتطلبات .

٣ ــ بذل مزيد من الجهد في العمل والتفاني في الانتاج حرصا على زيادة وتنمية الاقتصاد القومي ــ مع الالتزام بسلوك المعركة سواء في الانتاج أو في الاستهلاك لتحقيق مبدأ اقتصاديات الحرب .

٤ ــ الاشتراك في التدريب على أعمال الدفاع الشعبي والدفاع المدني وكذا

---

١ ــ من رسالة الرئيس محمد أنور السادات التي وجهها بمناسبة الاحتفال بيوم الاجتماعي في ١٩٧٢/١١/٣٠ .

بفرق الاسعاف والانقاذ وفرق الاطفاء والاماكن المساهمة في المعركة ولتدعيم جبهة الدفاع الداخلية

٥ — عدم الالتفات إلى الشائعات المغرضة أو الاذاعات المسمومة والقضاء على حملات التشكيك وأساليب العدو في الحرب النفسية .

٦ — التصميم التام على التصدى للعدو وطرده من أراضينا واحباط خططه في التوسع أو اعاقة عملية التنمية والانتاج .

٧ — العمل الايجابى في جميع المجالات . وتطهير أنفسنا من اللامبالاة والسلبية وأن نتعود العمل بروح الفريق وأن تموت في ذواتنا النزعة الفردية .

٨ — تثبيت يقيننا ودعم إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبقضائه وقدره وثقتنا في نصر الله .

الوحدة الوطنية والقومية العربية دعامتا التحرير الرئيسية :

وإذا كانت أحداث صيف ١٩٦٧ قد أدت إلى هزيمة عسكرية بدلاً من النصر الذى كان من المرجو تحقيقه ، فإن الهزيمة لم تؤد كما سبق القول إلى استسلام الشعوب العربية بل على العكس من ذلك لقد عادت القضية القومية والوطنية لتصبح هى القضية الأولى التى تواجه الشعوب العربية ، لقد أدت الهزيمة إلى احتلال الأراضى العربية سواء فى ذلك أراضى الدول العربية المتحررة فى مصر وسوريا أو الضفة الغربية الأردن واشتدت صلافة العدو الاسرائيلى واتخذ موقفا صريحا يعلن فيه ضرورة فرض الصلح على العرب وضرورة قبولهم بوجود إسرائيل دولة ذات سيطره فى المنطقة ، وفى هذه الظروف فإن الواجب الأساسى الملقى على حركة الثورة العربية هو تحرير الأرض المحتلة وتحقيق السيادة الوطنية والقومية على أراضى الوطن العربى .

إن تحقيق ذلك يتطلب العمل من أجل :

(ا) حشد كل القوى العربية الممكنة أولا لتحقيق صمود الشعب العربى وثانيا لإتمام الاستعدادات اللازمة لمواجهة العدو وحصره ..

(ب) التركيز على العدو الرئيسى الذى يحتل الأرض العربية وعدم الانزلاق

فى أى معارك جانبية سواء فى إطار العالم العربى أو خارج هذا الاطار .

(ج) الاستفادة من أى تناقض مهما بلغت بساطته بين مصالح القوى المضادة للثورة العربية ومحاولة استخدام هذا التناقض لصالح الثورة العربية .

(د) التحالف الوثيق والفعال مع كل القوى المؤيدة لأهداف النضال العربى مع العمل على توضيح الأهداف العربية لها وتنسيق العمل معها فى كل المجالات .

(هـ) العمل على توضيح حقيقة النضال العربى لكل القوى العالمية المضادة للاستعمار وإعادة كسب الرأى العام العالمى الذى استطاع العدو تضليله .

إن تطبيق هذه المبادىء العامة فى العالم العربى كانت تعنى :

(ا) السعى إلى تصفية كل النزاعات العربية ومحاولة توجيه كل القوى العربية لمواجهة العدو الاسرائيلى .

(ب) السعى لالزام كل حكومة عربية بما يمكن أن تلتزم به من عمل لصالح المواجهة مع اسرائيل . ومن أجل العمل المشترك فى كل المجالات ، ويتوقف النجاح فى هذا السعى بطبيعة الحال على مدى قوة حركة الشعب العربى فى كل بلد على حدة ومدى تأثر الحكومات العربية باتجاهات شعوبها .

(حـ) تجنب الانزلاق فى خلافات عربية جديدة ، حتى لمواجهة هجوم بعض القوى الرجعية العربية أو رد افتراءاتها باعتبار هذه السياسة هى الكفيلة بكشف محاولات القوى المضادة لحرف مسار العمل الوطنى والقومى وتوجيهه إلى دروب جانبية .

وفى دعوة الرئيس معمر القذافى إلى قومية المعركة ما يؤكد المشاركة الفعالة لالتزام عدد من بعض الدول العربية بدعم الدول التى تواجه عبء المعركة فعلا مما أتاح لها إمكانية الصمود الاقتصادى ومكنها بالتالى من العمل المستمر لإعادة بناء القوة العسكرية .

وخلاصة القول أن العمل من أجل مزيد من الجهد العربى المشترك يعنى أن الواجب الأول اليوم هو تحرير الأرض المحتلة وكما قال الرئيس أنور السادات : « علينا جميعا أن نؤكد للاعداء جميعا : أن الوطنية المصرية والقومية العربية وحدهما فى الميدان إذا اقتضى الأمر » .

الفصل الثالث

المؤسسات السياسية والجماهيرية

وحماية الوحدة الوطنية

إن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن وواجب المؤسسات الدستورية والسياسية ، وأن هذه الحماية عمل سياسي بالدرجة الأولى .

ولهذا كان دستورنا الجديد أول دستور مصرى ينص صراحة على الوحدة الوطنية وواجب حمايتها (١) ، كما تناول قانون حماية الوحدة الوطنية الذى انعقد مجلس الشعب لمناقشته فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ فى المادة الأولى منه أن «حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها » .

هذا إلى جانب مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتعبير عن الوحدة الوطنية جاءت محددة لدور الاتحاد الاشتراكى العربى ومقررة « أن التنظيم السياسى الذى يمثل بتنظيماته القائمة على أساس مبدأ الديموقراطية ، تحالف قوى الشعب العاملة من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية » وهو أداة هذا التحالف فى تعميق قيم الديموقراطية والاشتراكية وفى متابعة العمل الوطنى فى مختلف مجالاته ، ودفع هذا العمل الوطنى إلى أهدافه المرسومة ، ويؤكد الاتحاد الاشتراكى العربى سلطة تحالف قوى الشعب العاملة عن طريق العمل السياسى الذى تباشره تنظيماته وسط الجماهير وفى مختلف الأجهزة التى تضطلع بمسئوليات العمل الوطنى .

ونتناول فيما يلى دور القيادة السياسية فى إبراز أهمية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها — كذا دور المؤسسات الدستورية والسياسية لصيانتها .

---

(١) أنظر دستور جمهورية مصر العربية ١٩٧١ .

الزعيم جمال عبد الناصر والوحدة الوطنية :

لم تكن هناك قضية أكثر أهمية لدى عبد الناصر فى تاريخه الكفاحى الطويل قدر قضية الوحدة الوطنية . فهى فى فكره الأساس الذى يمكن أن يستند إليه نجاح شعبنا فى الوصول إلى أهدافه ، وهى وحدها المانع دون تدخل القوى الخارجية واستغلالها لطبيعة فترة الثورة ، فترة المعاناة من أجل القضاء على القديم البالى وخلق الجديد القادر على النمو والتقدم والاستمرار ، ومن هنا كان حرص عبد الناصر الدائم على تحقيق هذه الوحدة ، إبتداء من يوم إعلان ثورة ١٩٥٢ حتى يوم أن توارى عنا ، وهو يحاول المحافظة على وحدة الأمة العربية فى مواجهة الخطر الدائم الذى يتهددها والنزيف الدموى الذى يستنزف قواها .

ولم تكن فكرة الوحدة الوطنية لدى عبد الناصر فكرة مجردة ولا هى قضية منفصلة عن طبيعة المعركة التى يجتازها فالوحدة الوطنية التى كانت دائما هى وحدة هذه القوى الاجتماعية والفئات والطبقات صاحبة المصلحة فى تحقيق الهدف الذى تتجه المعركة فى المرحلة المعينة إلى تحقيقه .

ويوضح عبد الناصر هذه الفكرة بمالا يحتمل مجالا لجدل عند تناوله القضية من هو الشعب ، وما هى القوى التى يجب أن يتم تحقيق الوحدة الوطنية بينها فى خطابه إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر القومى للقوى الشعبية ، مشيرا إلى أن فى مرحلة الكفاح ضد الاستعمار — فإن الشعب هو كل من يقف ضد الاستعمار من أجل الاستقلال ومن أجل الحرية « الشعب هو كل واحد وقف من أجل تحقيق المبدأ الأول للثورة » أما فى مرحلة البناء الاشتراكى « فالشعب يشمل جميع الطبقات التى تساند البناء الاشتراكى وتساهم فيه »، وأثر عدوان إسرائيل واحتلالها لجزء من الأرض العربية تعود مرة أخرى قضية الوحدة الوطنية إلى البروز بين كل القوى التى تقف فى وجه العدوان الإستعمارى وتعمل على دحره ، ولكن تجميع هذه القوى فى المجتمع الاشتراكى يتم كما يوضح بيان ٣٠ مارس بواسطة تحالف قوى الشعب العاملة التى تتولى السلطة وتحتفظ بها وتحافظ على مكاسبها ، وتقوى بالديموقراطية وبالتطور العلمى مجتمعها ،

وتتضح أهمية الوحدة الوطنية من أقوال الزعيم جمال عبد الناصر (١)

« إنه يمكن فى إطار الوحدة الوطنية أن تتفاعل الطبقات بما يقرب بينها ، وأن يقل التناقض بطريقة سليمة لامصادرة فيها ولاسفك دماء ، وأن يتم الاتجاه إلى الاستقرار الوطنى القائم على العدل الاجتماعى بوحى من الوعى المدرك لمعنى التعاون ومعنى التكافل الاجتماعى ، ومعنى المحبة بين الناس ، وفى داخل هذا الإطار يمكن أن تصبح الديموقراطية معنى كما هى شعار ، ويمكن أن تصبح الاشتراكية حقيقة كما هى أمل ويمكن أن يصبح التعاون واقعاً كما هو هدف ».

كما تتضح السياسة التى يحرص عليها الزعيم جمال عبد الناصر فى تدعيم الوحدة الوطنية من خطابه الذى ألقاه فى مناسبة الاحتفال بإرساء الحجر الأساسى للكاتدرائية المرقسية فى ٢٢ يوليو ١٩٦٥ إذ يقول :

« وكنا نعتقد دائماً أن السبيل الوحيد لتأمين الوحدة الوطنية هو المساواة وتكافؤ الفرص . . لافرق بين مواطن ومواطن فى المدارس . . الدخول بالمجموع . . مفيش تمييز بين مسلم ومسيحى ، اللى بيجيب النمر بيدخل . . يدخلوا (٣٠) مسيحيين ، (٥٠) مسيحيين مش موضوعنا أبداً بيدخلوا كلهم مسلمين ، بيدخلوا كلهم مسيحيين مش موضوعنا أبداً . . التعيينات فى الحكومة وفى القضاء بالأقدمية ، اللى بيجيب نمرة أحسن بيروح القضاء . . فى كل الوظائف تسير على هذا المنوال فى الترقى ، جميع الترقيات فى الدولة بالأقدمية لغاية الدرجة الأولى . . كل واحد بيأخد دوره . . مافيش فرصة حتى للمتعصبين إنهم يتلاعبوا . . لكن لابد أن نجد أمامنا مشاكل وعقبات .

.. هذه المشاكل والعقبات فى فئة المتعصبين ، سواء كانوا مسيحيين أو كانوا مسلمين .. بيخلقوا مشاكل وكلنا بنعرف الخناقات اللى بتحصل فى بعض القرى .. ولكن الحمد لله هذه الحوادث حوادث قليلة جداً . . ونرجو ألا ينعكس صدى هذه الحوادث القليلة علينا ونأخذها كشكل عام ، إحنا علينا واجب .. إذا وجدنا

---

(١) من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر فى جلسة افتتاح المؤتمر الأول للاتحاد القومى فى الفترة من ٩ إلى ١٦ يوليو ١٩٦٠.

المتعصبين مسلمين وشاذين . . المسيحيون ما يشذوش . . وإذا وجدنا المسيحيين متعصبين وشاذين . . فإن المسلمين مايشذوش . . وأنا بأعتبر دى قضية وطنية ، وقضية بناء المجتمع .. العقلاء يستطيعون أن يحلوا هذه المشا كل الصغيرة اللى بتظهر كل عدة أشهر فى مكان نام أو قرية صغيرة أو أى مكان من الأمكنة . نحن نفخر والحمد لله بأن بلدنا ليست فيها طائفية أو تعصب أو انقسام . اللى بتكلم عليه حوادث فردية صغيرة ، ولكن زى مانقول : إحنا عايزين الكمال ، وعلشان كده أنا بتكلم عليه بوضوح وبصراحة . عايزين الكمال ، وعاوزين الوحدة الوطنية اللى بنيت بالدم سنة ١٩١٩ وقبل سنة ١٩١٩ . تتدعم وتقوى ، عاوزين كل واحـــد فى بلدنا يثق بنفسه ويثق أن البلد بلده ، بلد المسلم وبلد المسيحى ١٠٠٪ كل واحد فينا ، وكل واحد منا له الفرصة المتساوية المتكافئة . الدولة لاتنظر إلى الدين ، والمجتمع لاينظر إلى الدين ، ولا ينظر إلى الأب ، ولا ينظر إلى الأصل ولكن ينظر إلى العمل وإلى الجهد وإلى الإنتاج وإلى الأخلاق ، وبهذا نبنى فعلا المجتمع الذى نادت به الأديان السماوية التى نص الميثاق على احترامها » .

الرئيس محمد أنور السادات والوحدة الوطنية :

عند ما تعرضت الوحدة الوطنية لحملات التشكيك من جانب أعدائنا للوقيعة بين المسلمين والأقباط . أعلن الرئيس محمد أنور السادات أمام اللجنة المركزية تخصيص الدورة الثانية لانعقاد المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى الفترة من ٢٤ يوليو منذ ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ لموضوع الوحدة الوطنية .

ولقد كشف السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه للمؤتمر ، حملات التشكيك التى يقوم بها أعداؤنا بغرض زعزعة الوحدة الوطنية ، كما أكد سيادته على أهمية الوحدة الوطنية باعتبارها « دعامة التحرير الرئيسية » حيث قال :

« الوحدة الوطنية الآن وأكثر من أى وقت مضى تصبح الجبهة الداخلية هى دعامة التحرر الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تصبح أداة التحرر الرئيسى »

« إن الوطنية المصرية ، والقومية العربية وحدهما في الميدان إذا إقتضى الأمر . . إن ذلك يفرض علينا منهاجا منظما للعمل .. الوطنية المصرية وصيانتها بالوحدة الوطنية »[1].

كما يؤكد سيادته على أن «الوحدة الوطنية تزداد عمقاً بالحوار ولا تضيق به ، وعلينا أن نعرف أن التحول الاشتراكي يزداد رسوخاً بالانفتاح على الدنيا ، وليس بالانغلاق على النفس ، وسيادة القانون ، وليس بقيود على الحرية»[2] .

ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية . كما طلب من مجلس الشعب في ١٣ / ١١ / ١٩٧٢ تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في بعض المحاولات التي جرت أخيراً لافتعال فتنة طائفية « في الخانكة » بهدف توجيه ضربة إلى الوحدة الوطنية المصرية .

ومن أجل حماية الوحدة الوطنية كذلك عكف سيادته على دراسة تقرير لجنة مجلس الشعب لوضع الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على الوحدة الوطنية ، بحكم المسئولية الدستورية والسياسية ومقتضيات المصلحة الوطنية العليا ، ثم كانت زيارة الرئيس محمد أنور السادات يوم ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٢ إلى الأزهر الشريف والبطريركية القبطية . ثم كان خطابه التاريخي أمام مجلس الشعب في ١٩٧٢/١٢/٢٨ معلناً « الثقة الكاملة من حسن وعي وتقدير الجميع للظروف التي تمارس فيها مصالحنا ، وفي الضرورة القصوى والحيوية لوحدة الأمة . . فلا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها » . فقواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جبهة داخلية متماسكة وصلبة تؤمن بهدفها . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف . . إن الوحدة الوطنية

---

(١) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في الدورة الثانية للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي من ٢٤ — ٢٦ / ٧ / ١٩٧٢ .

(٢) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في المؤتمر القومي العام الثاني الدوره الخاصة فبراير سنة ١٩٧٣ .

هى الدعامة الوحيدة للجبهة الداخلية المتماسكة والصلبة . . وهنا وبدءاً من الآن أرفع صوتى لأقول بوضوح أننى لن أسكت . . ولن تسمحوا . . وان يسمح شعبنا بنغمة طائفية من أى شخص ومن أى مصدر ولأى سبب ، ثم إننى أيضاً لن أسكت . . ولن تسمحوا ، ولن يسمح شعبنا باستقطاب يمزق قوى الوطن — خصوصاً بين الشباب — بدعاوى اليسار المغامر أو اليمين الرجعى » .

الدستور الدائم والوحـــدة الوطنية :

جدير بالذكر أن الدستور المصرى لم — يعرف منذ أول دستور حديث لمصر صدر عام ١٩٢٣ حتى دستورنا الحالى — كلمتى مسلم وقبطى . ولا يعرف إلا كلمة مصرى .

ويعتبر الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية ، أول دستور مصرى ينص صراحة على الوحدة الوطنية ، وواجب حمايتها ، فجاء فى المادة الثالثة منه (١) « أن السيادة للشعب وحده — وهو مصدر السلطات ، ويحمى الشعب هذه السيادة ، ويصون الوحدة الوطنية ، وتكون ممارسة الشعب للسيادة عن طريق الاستفتاء الشعبى ، وعن طريق ممثلين على الوجه المبين فى الدستور » .

توصيات المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى عن الوحدة الوطنية :

وقد شملت توصيات المؤتمر القومى العـام للاتحاد الاشتراكى العربى الفترة من ٢٣ يوليو ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ الوحدة الوطنية وفيما يلى ماجاء بتوصيات المؤتمر فى هذا الصدد :

« يرى المؤتمر أنه إذا كانت الوحدة الوطنية فيما مضى من مراحل كفاحنا أمراً ضروريا ولازماً فإنها خلال هذه المرحلة الجديدة قد صارت ضرورة وجود وحياة والتفريط فيها أو التهاون فى تدعيمها مغامرة بمصير العمل الوطنى كله » .

(١) انظر دستور جمهورية مصر العربية الدائم الصادر عام ١٩٧١ .

ويؤكد المؤتمر على أن مصر كانت دائما وطنا للمصريين جميعاً ، أن أرض هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وإن شعبه شعب واحد .

ويؤكد المؤتمر إيمانه بأن تحالف قوى الشعب العاملة هـــو الصيغة الملائمة لضمان الوحدة الوطنية ودعمها ومن ثم فإن الاتحاد الاشتراكي بقواعده ومختلف مستوياته التنظيمية يقع عليه واجب الانفتاح والتفاعل الدائم مع الجماهير معبراً عن آمالها وحاجتها ووحدتها .

ويقدر المؤتمر أهمية تحقيق وحدة العمل بين مؤسسات الدولة المختلفة دون تضارب حتى تتجه الجهود إلى القضايا الكبرى المصرية التي يواجهها هذا الشعب وفي إطار الالتزام الكامل بالمبادىء الأساسية التي أعلنتها حركة التصحيح في مايو سنة ١٩٧١ من تأكيد لحرية الفرد وتدعيم للممارسة الديموقراطية من خلال المؤسسات وتحقيق لسيادة القانون ، فإن المؤتمر مراعاة منه للمرحلة الدقيقة التي يجتازها نضالنا يوصى كافة الأجهزة الشعبية والتنفيذية والتشريعية أن تبذل كل جهدها من أجل دعم وصيانة الوحدة الوطنيه والحيلولة دون المساس بها كما يضع كل ما ورد في أعمال هذا المؤتمر حول أهمية تلك الوحدة بأبعادها المختلفة تحت نظر مجلس الشعب حتى يستخلص منه ما يلزم لحماية وحـــدة الشعب المصرى وتماسك صفوفه تصدياً لكل من يفرق وحدته أو يبث الفرقة والانقسام بين أبنائه .

مجلس الشعب وقانون حماية الوحدة الوطنية :

وتلبية لنداء السيد رئيس الجمهورية لدعوة مجلس الشعب لدورة طارئة لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية ـ اجتمع المجلس في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ وبعد مناقشة المشروع من أعضاء المجلس والموافقة عليه ـ صدر القانون رقم

٣٤ لسنة ١٩٧٢ فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢ بشأن حماية الوحدة الوطنية وفيما يلى نصوص مواد هذا القانون :

المادة الأولى :

حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن، وعلى جميع مؤسسات الدولة والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها ، ويقصد بالوحدة الوطنية فى تطبيق أحكام هذا القانون الوحدة القائمة على احترام نظام الدولة كما حددها الدستور على وجه الخصوص :

(ا) تحالف قوى الشعب العاملة .
(ب) تكافؤ الفرص والمساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات العامة .
(جـ) حرية العقيدة وحرية الرأى بما لايمس حريات الآخرين أو المقومات الأساسية للمجتمع .
(د) سيادة القانون .

وتقوم الوحدة الوطنية على أساس إعطاء الأولوية دائما لأهداف النضال الوطنى التحررى وعلى أفضلية المصالح القومية الشاملة على المصالح الخاصة لكل قوة أو طائفة أو فئة اجتماعية .

المادة الثانية :

الاتحاد الاشتراكى العربى هو التنظيم السياسى الوحيد المعبر عن تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو يكفل أوسع مدى للمنافسة الحرة داخل تشكيلاته ، والتنظيمات الجماهيرية المرتبطة .

ولا يجوز إنشاء تنظيمات سياسية خارج الاتحاد الاشتراكى العربى أومنظمات جماهيرية أخرى . خارج المنظمات الجماهيرية التى تشكل طبقا للقانون » .

المادة الثالثة :

يعاقب بالحبس كل من أنشأ أو نظم أوأ دارجمعية أو هيئة أو منظمة أو جماعة على خلاف حكم المادة السابقة .

ويعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة كل من انضم إلى إحدى هذه الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات أو اشترك فيها . .

ويعفى من العقوبة كل من بادر بإبلاغ السلطات المختصة عن وجود جمعيات أو هيئات أو منظمات أو جماعات منشأة على خلاف ما تقدم ، إذا تم الإبلاغ قبل التحقيق ، ويجوز للمحكمة الإعفاء من العقوبة إذا تم الإبلاغ بعد بدء التحقيق ومكن من الكشف عن مرتكبي الجريمة الآخرين .

وتقضى المحكمة فى جميع الأحوال عند الحكم بالإدانة بحل الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات المذكورة وإغلاق أمكنتها ومصادرة الأموال والأمتعة والأدوات والأوراق الخاصة بها أو المعدة لاستعمالها .

المادة الرابعة :

يعاقب بالحبس كل من عرض الوحـــدة الوطنية للخطر بأن لجأ إلى العنف أو التهديد أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة لمناهضة السياسة العامة المعلنة للدولة أو التأثير على مؤسساتها السياسية والدستورية فى اتخاذ قرار بشأنها » .

المادة الخامسة :

« يعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسين جنيهاً ولا تجاوز مائتى جنيه كل من أذاع عمداً أخباراً أو بيانات أو إشاعات كاذبة معرضة ، وكان من شأن ذلك الاضرار بالوحدة الوطنية بين قوى تحالف الشعب أو بين طوائفه .

وتكون العقوبة السجن وغرامة لا تقل عن مائة جنيه ، ولا تجاوز خمسمائة جنيه إذا وقعت الجريمة فى زمن الحرب .

فإذا اتخذت هذه الإذاعة صورة دعاية مثيرة موجهة للعسكريين فى زمن الحرب كانت العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة .

المادة السادسة :

يعاقب بالحبس كل من حرض بإحدى وسائل العلانية المنصوص عليها فى المادة ١٧ عقوبات على بغض فئة من فئات قوى التحالف أو طائفة من الناس

أو على الازدراء بها أو إثارة الفتنة بينها ، إذا كان من شأن هـذا التحريض الاضرار بالوحدة الوطنية .

المادة السابعة :

تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن إذا ارتكبت الجرائم المبينة بالمواد ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من هذا القانون بناء على تخابر مع دولة أجنبية .

تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة إذا ارتكبت بناء على تخابر مع دولة معادية .

المادة الثامنة :

لا تخل أحكام هذا القانون بأية عقوبة أشد . منصوص عليها فى قانون العقوبات أو أى قانون آخر .

المادة التاسعة :

لا ترفع الدعوى الجنائية فى الجرائم المنصوص عليها فى هذا القانون إلا بناء على طلب كتابى من وزير العدل .

ويجوز للنيابة العامة إحالة الجرائم المنصوص عليها فى هذا القانون إلى محاكم أمن الدولة المختصة .

المادة العاشرة ،

ينشر هذا القانون فى الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره فى ١٩٧٢/٩/١٢ ويبصم هذا القانون بخاتم الدولة ، وينفذ كقانون من قوانينها » .

الوحدة الوطنية والهيئات الدينية :

وبمجرد أن تعرضت جمهورية مصر العربية لحملات التشكيك من جانب الدوائر الاستعمارية والصهيونية ضد الجبهة الداخلية ، حيث ضبطت الرقابة على البريد الوارد من الخارج عددا من الخطابات الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية والمرسلة إلى عدد من الموظفين تهدف إلى إثارة الفرقة بين طوائف الأمة ، وقد سلمت

نسخ من هذه الخطابات التي تتضمن المنشورات إلى كل من فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقداسة البابا شنوده فاستنكروا ماجاء بها وفيما يلي بيان فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقداسة البابا شنوده (١) :

بيان شيخ الأزهر :

« فى ذكرى مرور عشرين عاما على ثورتنا المجيدة ، عشرين عاما مضت على قيام ثورتنا المباركة التى أرست قواعد الحرية والعدالة الاجتماعية ، وكفلت الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن مصرى ، وحررت البلاد من الاستعمار ، فأمنت الخائف وبعثت الأمل وأحيت الرجاء ، ويسعدنى ويسرنى بهذه المناسبة الكريمة أن أهنىء الشعب المصرى جميعه بزعامة رئيسه المحبوب من كل قلب، الممدوح بكل لسان ، رمز حريته ومعقد آماله ، وجامع وحدته محمد أنور السادات المؤمن الرشيد .

وأرجو الله تعالى مخلصا أن يقوى روح الوحدة بين أفراد شعبنا الحر الأصيل فى جميع عناصره .

أيها الشعب المصرى : أرجو ألا يشغلنا شاغل عن معركة المصير وأن تتنبه إلى مايريده أعداؤنا من الإيقاع بين عنصرى الأمة ، من إشاعات كاذبة تثير الفرقة بين عنصريها . والتاريخ يحدثنا أن اشتداد الأزمة يجمع دائما بين المسلمين والمسيحيين ، كما حدث فى ثورة ١٩١٩ ومعركة ١٩٥٦ ولم لا ، والكل يعيش فى وطن واحد آمالهم واحدة وآلامهم واحدة وعدوهم واحد ، وصديقهم واحد وكلهم أمام الدولة سواء فى الحقـــوق والواجبات .

وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ، والله ناصرنا وموفقنا وهو نعم المولى ونعم النصير » .

بيان البابا شنوده :

وقد أصدر البابا شنوده البيان التالى :

(١) نشر البيان بجريدة الأخبار يوم ١٩٧٢/٧/٢٥ .

« فى العيد العشرين لثورتنا المجيدة يسرنى أن أهنئكم يامواطنى الأحباء لهذا العيد المشترك بين أعياد مصرنا المحبوبة . مصر التى نحب كل ذرة من تراب أرضها والتى قال عنها الله فى التوراة : بارك شعب مصر . مصر التى وطئت أرضها أقدام الأنبياء والقديسين . فعاش فيها يوسف الصديق غالبية حياته ومات فى أرضها المباركة كما عاش فيها موسى النبى أكثر من ٤٠ سنة من عمره وزارها أيضاً ابراهيم أبو الأنبياء وزارتها كذلك العذراء مريم تحمل على كتفيها السيد المسيح وهو طفل هاربة به من سيف اليهود .

نعم إن مصر المحبوبة هذه التى تخضبت أرضها بدماء شهدائنا . ارتوت من دموع وعرق القديسين ، مصر هذه كلما شعرنا بضغط الأعداء عليها تتألف قلوبنا جميعاً حولها متحدين فى الدفاع عنها شاعرين أن كل انقسام بهذا الوطن هو خيانة لبلادنا التى تنتظر منا التضافر والتآخى وأن نكون قلباً واحداً وروحاً واحدة وفكراً واحـــداً نحمى أرضنا وأولادنا وبلادنا وثورتنا وما كسبناه من جهاد طويل .

لذلك بكل فرح واطمئنان وبكل ثقة وتقدير قابلنا الاهتمام الكبير الذى أظهره رئيسنا المحبوب للوحدة الوطنية .

إن الوحدة الوطنية فى مصر وبخاصة بين عنصرى الأمة من مسلمين ومسيحيين هى ضرورة من ضروريات الوطن ونتيجة طبيعية لروح التدين الذى تتصف به مصر . وكل الحركات الوطنية فى تاريخنا كانت تقضى على روح التعصب الذى يظهر أحياناً من غير المتدينين ، وهنا ينبغى أن نفرق تفريقاً كبيراً بين التمسك بالدين والتعصب الدينى .

إنه التمسك بالدين فضيلة والغيرة الدينية فضيلة ، ولكن التعصب الدينى شر عظيم : إنه من الرذائل التى تحاول أن تلبس ثوب الفضيلة ، سينكشف أمرها . ذلك أن التعصب الدينى يخلو من المحبة والمحبة هى عماد الدين وهى الفضيلة الأولى .

ولقد قال الكتاب المقدس « الله محبة » والشخص المتدين حقاً هو الذى يحب جميع الناس مهما اختلفوا عنه ديناً أو مذهباً . والتعصب الدينى يتصف بالعنف والعنف

متعصر . أما الرجل المتدين فإنه يعامل الناس جميعا بسماحة ولين ولطف تجعل الآخرين يحبون دينه الذى يغرس فيه . فضائل المحبة نحوهم .

ولقد عاش المصريون مسلمين ومسيحيين من ١٣ قرنا من الزمان فى وحدة وطنية يتخلف بينهم طوال تلك القرون . وكل الانقسامات التى كانت تحدث بينهم أحيانا كانت كالفقاقيع البسيطة التى ما أن تظهر حتى تختفى ويبقى الحب فى العمق .

انى سأحاول أن أضرب أمثلة من السماحة الدينية فى تاريخ الإسلام وتاريخ مصر أذكر أولا تلك الحادثة التاريخية التى تروى عن عمر بن الخطاب عندما فتح المسلمون بيت المقدس ووصل عمر إلى هناك رأى كنيسة للمسيحيين ودعاه أسقفها أن يدخلها ويصلى فتفكر عمر بعقله الكبير واعتذر عن ذلك قائلا للأسقف فى مودة :أخشى إن سجدت فى هذه الكنيسة أن يأتى المسلمون ويأخذوها منك قائلين هنا سجد عمر . وهكذا ضرب هذا الخليفة العادل مثلا من أمثلة السماحة الدينية يدرسه المسلمون جيلا بعد جيل وتركت تلك الحادثة أثرا عميقاً فى نفس الأسقف فأحب عمر .

مثل آخر هو عمرو بن العاص الذى عندما فتح مصر وكانت وقت ذاك تحت حكم الرومان - استدعى البابا بنيامين الذى اضطهده الروم وأعاد إليه جميع الكنائس التى كانو قد اغتصبوها منه بل أكثر من ذلك منحه عشرة آلاف دينار ليبنى بها كنيسة فى الاسكندرية وأحب عمر والبابا بنيامين وعامل المسيحيين برفق ذاكرا عبارة خالدة وردت فى الحديث تقول (استوصوا بالقبط خيرا) .

ونحن نذكر أيضا أنه خلال العصر الفاطمى كان الخلفاء الفاطميون وبخاصة فى النصف الأول من جيلهم يعينون وزراءهم من بين المسيحيين ثقة منهم بهم واخلاصا من أولئك وكانت بعض أعياد الأقباط لها صفة وطنية عامة .

وما أكثر الأمثلة فى التاريخ عن الصداقات العميقة التى كانت تربط بين ولاة المسلمين وبطارقة الأقباط . كل ذلك كان ينسج خيوطا ثابتة فى الوحدة بين المسلمين والمسيحيين .

وفى تاريخنا الحديث لا ننسى العبارات الجميلة التى نظمتها خطبة الزعيم جمال عبد الناصر الذى ضرب على يد التعصب عمليا حينما أرسى بيده الكريمة الحجر الأساسى للكتدرائية المرقسية الكبرى وتبرع لبنائها بمبلغ كبير .

والذى يدير عقرب الساعة بضع سنوات خلت حينما جرف السيل مدينة قنا نجد أن المطران القبطى فتح أبواب المطرانية لإيواء الكل مسلمين ومسيحيين طوال فترة السيل .

إننى كلما استعرضت تاريخنا أثق أن وحدتنا الوطنية أعمق بكثير من أن تهزها حركات لا شك أن العدو يديرها من الخارج ويفرح ان أتت بثمرة وحاشا لنا أن نمكنه من ذلك .

فلنكن جميعا يدا واحدة تعمل من أجل مصر وقلبا واحدا ينبض بحب مصر ولنطلب من أجل قادة بلادنا أن يلهمهم الرب القوة والحكمة ولنطلب أيضا من أجل قواتنا المسلحة أن ينصرها الله من عنده ولكم جميعا خالص محبتنا . المحبة الراسخة القوية التى دعانا إليها الإله الواحد الذى نعبده جميعا .

الوحدة الوطنية والنقابات المهنية :

وعندما جرى أخيرا افتعال فتنة طائفية فى مقر جمعية أصدقاء الكتاب المقدس بالخانكة - حيث احترق فيه سقف غرفة فى مقر الجمعية بغرض إثارة الأقباط والمسلمين بغية النيل من الوحدة الوطنية . كان اهتمام القيادة السياسية واهتمام المؤسسات الدستورية والسياسية والنقابات المهنية بوأد هذه الفتنة فى مهدها حتى تسود المحبة بين كل عناصر هذه الأمة وحتى لا تلهينا مثل تلك المحاولات عن الكفاح والنضال .

فلقد طلب السيد الرئيس أنور السادات إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق فى ذلك . لتقصى الحقيقة ولكى تضع أمام الشعب الرأى المحايد النزيه الذى على أساسه تتخذ القيادة الوطنية قرارها .

كما استنكر الكتاب والصحفيون المصريون محاولات تفتيت الوحدة الوطنية المصرية عن طريق إثارة الفتنة الطائفة .

وفقاً على نص البيان الذى أذيع من نقابة الصحفيين فى هذا الصدد بتاريخ ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢ :

١ - إننا نستنكر هذه المحاولات بوصفها تخريبا لأقوى دعامة قام عليها المجتمع المصرى عبر العصور والحضارات الا وهي اتحاد أبناء مصر على اختلاف ديانتهم فى أزمنة الشدة والرخاء وفى أزمنة الحرب والسلام وفى كل زمان كان فيه لمصر كيان . فى ظل أسمى مبـــدأ قدسه المصريون وهو أن الدين لله والوطن للجميع .

٢ - ندين محاولات إثارة الفتنة الطائفية بوصفها من أعمال الخيانة الوطنية ومن وحى تخطيطها لنسف كيان مصر القومى . ولشل قدرات مصر على مواجهة العدو الإسرائيلى والامبريالية العالمية . ولتفكيك الشعب المصرى إلى شيع متحفزة يشغلها التناحر الداخلى عن معركة التحرير الوطنى ولإظهار المصريين أمام الرأى العام العالمى فى صورة الأمة المتخلفة .

٣ - نعلن قلقنا العميق لوجود بعض مظاهر التعصب الدينى فى الفترة الأخيرة وهى مظاهر ينفيها المجتمع كله ونعدها استكمالا لظاهرة تخريب ثروتنا القومية بسلسلة الحرائق المتوالية التى بدأت بحرائق الأوبرا وقصر الجوهرة وامتدت إلى بعض المؤسسات والشركات العامة .

ونذكر المواطنين أن حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ قد سبقه حريق كنيسة السويس حين بلغ الكفاح الوطنى أقصى مد له ضد الاحتلال البريطانى بقصد إجهاض الحركة الوطنية . كما نذكركم بأن إثارة الفتنة الطائفية كانت دائما السلاح التقليدى الذى يلجأ إليه الاستعمار لضرب الحركات الوطنية .

وقد كان الأزهر الشريف والكنيسة المصرية طليعة الكفاح الوطنى التى احبطت مخططات الاستعمار لإثارة الفتنة الطائفية أيام مؤتمر أسيوط عام ١٩١١ ومؤتمر القاهرة عام ١٩١٢ وإبان ثورة ١٩١٩ .

٤ - ونحن نؤكد أن رسالة الإسلام والمسيحية رسالتا تسامح ومحبة وسلام وأنهما يدينان التعصب الدينى المقيت .

ونحن نناشد الأجهزة الدينية والاعلامية والثقافية والتربوية أن تنتبه إلى أهمية

الوحدة الوطنية وبالتأكيد على قيم التسامح والمحبة الراسخة فى ضمير الشعب المصرى -

٥ - نناشد أجهزة السلطة والتنظيم السياسى والهيئات الشعبية والجماهيرية مزيدا من اليقظة والحزم فى مواجهة عملاء الإستعمار والصهيونية الذين يذكون نار الفتنة الطائفية لتفتيت وحدتنا الطائفية لتخريب معركة المصير . ونهيب برجال الدين قبل أى فئة أخرى أن يبثوا روح التسامح والمحبة فى قلوب الجماهير التى تعتمد عليهم فى شئونها الروحية .

٦ - إن الكتاب والصحفيين لعلى ثقة من أن الشعب المصرى العظيم الذى أثبت على امتداد تاريخه المجيد وبقوة حضارته العريقة صلابة تمسكه وسلامة نظرته وعمق إدراكه للأمور فتنبه إلى مخطط الاستعمار والصهيونية لإثارة الفتنة الطائفية فى مصر .

إن رصاص العدو الاسرائيلى ورصاص المستعمرين لا يفرق بين صدر مسلم وصدر مسيحى من أبناء مصر وإنما يستهدف قلب مصر كلها .

٧ - إننا نعلن أن قضيتنا الأساسية هى قضية التحرير الوطنى وأن كل الجهود يجب أن توجه لهذه القضية وحدها .

عاشت مصر وحدة حرة قوية : وعاشت الشعب المصرى العظيم موحد الفكر والعقل والضمير .

كما أدان أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة محاولات الاستعمار والصهيونية فى إثارة الفتنة بين عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين وأكدوا فى بيانهم إلى الشعب أن الوحدة الوطنية حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر ويحرص عليها ، وأن الأديان كلها تدعو إلى التآخى والتسامح .

وفيما يلى نص البيان الذى أذيع من جامعة القاهرة بهذا الصدد بتاريخ ١٦ نوفبر سنة ١٩٧٢ :

اجتمع ممثلوا هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وهم الحريصون على الوحدة الوطنية لعنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين ليتدارسوا المحاولات التى يقوم بها الاستعمار والصهيونية وعملاؤها فى هذه الظروف الدقيقة بغية النيل من هذه الوحدة -

وبعد استعراض المحاولات المذكورة رأى أعضاء هيئة التدريس أن يسجلوا الحقائق التالية :

أن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة يعبرون عن ارتياحهم العميق لأن كل محاولات الدس والوقيعة التي حدثت لتفتيت الوحدة الوطنية قد باءت بالفشل ونجحت هذه الوحدة الوطنية بفضل يقظة الشعب مسلمين ومسيحيين وحرصه على مصلحة الوطن العليا .

— إن الوحدة الوطنية فى مصر حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر العريق ويحرص عليها وإنها صمدت عبر العصور الطويلة على الرغم من المحاولات التى قام بها أعداؤها النيل منها ، فكانت الصخرة الصلدة التى تحطمت عليها آمال الاستعمار ومؤامراته ، وليست أحداث ثورة ١٩١٩ ببعيدة عن الأذهان حينما ضرب الشعب المصرى ، المسلمون والمسيحيون ، مثلا رائعا فى الحفاظ على وحدته الوطنية ، وحينما اتخذ شعاره من الهلال والصليب ، لقد عاش الشعب المصرى تاريخه الطويل بعنصريه : المسلمين والمسيحيين ، متآخيا متحابا ، متحداً متماسكا ، يضع مصلحة الوطن العليا فوق كل اعتبار .

— إن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة . وهم على وعى بمصدر هذه المحاولات التخريبية ، يدينون كل محاولة داعية إلى الفتنة ويجدون فيها وقوعاً فى شرك الاستعمار والصهيونيـة وخيانة للوطن يجب التيقظ لها ومقابلتها بكل حزم .

— إن الأيام التى يمر بها الوطن أيام دقيقة وحاسمة تجعلنا أحوج ما نكون إلى التماسك والوحدة لمواجهة عدو لا يفرق عدوانه بين مسلم ومسيحى ولا تفرق قنابله بين مسلم ومسيحى وهو ما يحتم علينا ألا يكون هناك فرق فى مواجهته بين مسلم ومسيحى .

— إن الأديان السماوية كلها تدعو إلى التآخى والتسامح ، إلى التعاون والتماسك . والذين يستجيبون لدواعى الفرقة والفتنة يخرجون على تعاليمها السمحة وينكرون لقيمها .

لنقف وقفة الجماعة ولتكن يد الله مع الجماعة وليكن الدين لله والوطن للجميع » .

الطلاب ودورهم فى تعزيز الوحدة الوطنية :

نظراً لأن الطلاب فى مصر هم طليعة جيل الثورة ، الذين يتحملون مسئولية مواصلة مسيرتها ، أيا كانت الصعاب والمشاق التى تعترض طريق اطراد تقدمها .

فإن عليهم أن يدركوا أنهم ليسوا قوة مستقلة عن قوى الشعب بل هم أبناء قوى الشعب العاملة ، يجسدون فى حركتهم تطلعاتها ووحدتها ، وينبغى أن يكونوا حراساً عليها ، ذلك أنه لا بديل اليوم للوحدة الوطنية غير تفريق الصفوف والضياع . وليس من سبيل لدعم هذه الوحدة وتعزيزها إلا بتحقيق المزج الضرورى بين معنى الحرية ومعنى النظام ، ذلك أن الانفصال بينهما هو الخطوة الأولى على طريق الفوضى وبالتالى العقم والجمود .

ولذلك فإن الطلاب ووطنيتهم فوق كل الشبهات ، يجب أن ينتبهوا لكل مخطط مدسوس على صفوفهم حتى لا يسجل التاريخ أن فئة من الشباب قد أساءت عن غير قصد لأمتها ، أو أن فئة قليلة منهم قد مارست إرهاباً فكرياً لخدمة مخططات خارجية .

فقضية تحرير الأرض العربية المحتلة على حد تعبير السيد الرئيس محمد أنور السادات : هى التزامنا الأساسى ، وعلينا وفى سبيلها .. يجب أن تتجه كل الأعمال بل كل النوايا .

لا طريق غير استرداد الحق بالقوة . . . إن قواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدى دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جبهة داخلية متماسكة وصلبة تؤمن بهدفها . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف .

خاتمـــة

تمتعت مصر طوال تاريخها الطويل - رغم الوسائل والمحاولات التى استهدفت المساس بالوحدة الوطنية - بوحدة وطنية كبرى كانت هى روح صمودها من أجل الحق ومنبع إثارتها عبر التاريخ .

ولعل ذلك يرجع كما سبق أن رأينا لتميزها بطابع قومى يتسم بسمات فريدة ، تعطيها القدرة على الصمود : من الصبر والعطاء الكريم والطاعة وحب الجماعة والأسرة والاعتدال والتوازن - طابع تنفرد بسماته عن باقى الشعوب وتقف به قوية فى معترك الحياة ، وهى تتأصل حقائق التقدم واسترداد الحق المغتصب .

إن مصدر القوة فى مصر اليوم وهى تواجه معركة المصير مع العدو الاسرائيلى وكل عنصر من عناصر قوتها معرض للهجوم . هو الوحدة الوطنية النابعة من طابعها القومى الأصيل . فهى إذا بقيت متماسكة وبقى نسيجها الوطنى ومقوماتها ثابتة . . استطاعت امتصاص الهزائم وتخطيها واسترداد الحق السليب . وتحقيق الأهداف والآمال التى نطمح إليها .

إن الأمة التى تفقد وحدتها الوطنية تكون قد فقدت كل شىء لأنها تكون قد فقدت الأساس الذى تقوم عليه سائر المقومات القومية من سياسية . واقتصادية . واجتماعية . وفكرية . . . الخ

وليس من المصلحة القومية فى مصر . . ولا فى المنطقة العربية كلها أن تتشرذم وهى تواجه العدو الصهيونى إلى كيانات مختلفة من مسيحية ومسلمة أو عربية وسنية وشيعية ، أو عربية وكردية . . إلخ إن هذا يجعل وجود دولة يهوديه خالصة أمرا منطقيا .

إن الانسجام الوطنى ، مظهر الولاء الوطنى ، مصدر القوة — هو مسئولية يرعاها هذا الشعب المؤمن بوحدته الوطنية .

وإذا كان المتعصبون موجودين ولو كافراد فى كل زمان ومكان . والبسطاء الذين ينقادون إلى مواقع الاستفزاز ، فإن المسئولية تقع فى ذلك على الذين هم فى مراكز السلطة والمسئولية والصدارة دينيا ، وسياسيا وفكريا واجتماعيا . أن ينشروا قسطا من الوعى والتسامح وسعة الأفق والاستنكار لأى تعصب .

وما أحوجنا اليوم لأن تظل وحدتنا الوطنية ذات نسيج قوى متماسك ، كما كانت عليه عبر التاريخ . . . حتى نستطيع أن نعمل بكل قوانا على دعم الجبهة الداخلية والتصدى للحرب النفسية والاعداد الشامل لمعركة المصير .

مراجع ومصادر الكتاب

أولا : مذكرات :

١ ــ أحمد لطفى السيد : قصة حياتى العدد ١٢١ من كتاب الهلال .

٢ ــ إسماعيل صدقى : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٠ .

٣ ــ سعد زغلول : مذكرات منشورة فى جريدة الأخبار١٩٦٣ .

٤ ــ عبد الرحمن الرافعى : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٢ .

٥ ــ عبد الفتاح عنايت : كفاح الانجليز .

٦ ــ عمر طوسون : مذكرة بما صدرنا منذ فجر الحركة الوطنية ١٩١٨ ــ ١٩٢٨ الإسكندرية ١٩٤٢ .

٧ ــ محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الأول١٩١٢ .

٨ ــ محمود عزمى : الأيام المائة ــ القاهرة مطبعة النهضة .

٩ ــ محمد أبو الفتح : مع الوفد المصرى ــ القاهرة ١٩٢٠ .

ثانياً : دراسات :

(ا) تراجم

١٠ ــ عباس محمود العقاد : سعد زغلول .

(ب) دراسات تاريخية :

١١ ــ أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ــ الحولية الأولى .

١٢ ــ « « : مذكراتى فى نصف قرن .

١٣ ــ « « : أعمالى بعد مذكراتى .

١٤ ــ عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ .

١٥ ـ عبد العزيز رفاعى : انتصار مصر فى رشيد .
١٦ ـ « « : العمال والحركة القومية فى مصر الحديثة .
١٧ ـ « « : الطابع القومى للشخصية المصرية .
١٨ ـ محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ .
١٩ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(جـ) دراسات سياسية :

٢٠ ـ المعهد العالى للدراسات الاشتراكية : مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجماهيرية ١٩٦٦ .
٢١ ـ هيئة الاستعلامات : برنامج العمل الوطنى المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومى العام الثانى فى دورة انعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .
٢٢ ـ هيئة الاستعلامات : خطاب السيد الرئيس أنور السادات فى الدورة الثانية للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى وقرارات المؤتمر فى المدة من ٢٣ يوليو ٧٢ ـ ٢٦ يوليو ١٩٧٢ .
٢٣ ـ اللجنة المركزية ـ الاتحاد الاشتراكى العربى : مشروع دليل العمل السياسى والفكرى والتنظيمى (عشرون عاماً من الثورة ـ يوليو ١٩٧٢)
٢٤ ـ اللجنة المركزية ـ الاتحاد الاشتراكى العربى : تقرير الأمانة العامة الذى أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير أسلوب العمل فى الاتحاد الاشتراكى يوليو ١٩٧٢ .

(د) دراسات فى الحرب النفسية :

٢٥ ـ جولدون دليو بوستمان : سيكولوجية الإشاعة : ترجمة صلاح مخيمر ١٩٦٤ .

٢٦ ــ لواء / عبد الرحيم عجاج — دور الحــــرب النفسية فى المعركة القاهرة ١٩٦٤ .

٢٧ ــ عقيد / جمال الصيد — أضواء على الحرب النفسية : المكتبة الثقافية العدد (٢٨٣) ١٩٧٢

٢٨ ــ محمد طلعت عيسى — الشائعات وكيف نواجهها القاهرة ١٩٦٤ .

د : دراسات فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

٢٩ ــ السيد الرئيس/ محمد أنور السادات : صفحات مجهولة : سلسلة كتب للجميع ــ دار التحرير للطبع والنشر المطبعة العالمية ١٩٥٤

٣٠ ــ قصة الثورة كاملة : سلسلة كتب قومية ــ الدار القومية للطباعة والنشر .

٣١ ــ يا ولدى هـــذا عمك جمال (مذكرات أنور السادات) كتب قومية ــ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥

٣٢ ــ القاعدة الشعبية : سلسلة كتب قومية ــ ١٩٥٩

٣٣ ــ قصة الوحدة العربية ــ كتاب الهلال العدد (٨١).

ثالثاً : صحف :

الوقائع المصرية عام ١٩١٤ .

المقطم ــ والأهرام : ١٩١٩ ــ ١٩٢٣

الأخبار أغسطس عام ١٩٦٣ ، سبتمبر ١٩٦٣ .

الأهرام من ٢٤ يوليو ١٩٧٢ الى ١٩٧٢/١٢/٣١ .

محتويات الكتاب

صفحة

ـ تقديم الكتاب بقلم السيد المهندس/ سيد مرعى الأمين الأول للجنة المركزية ٣

ـ مقدمة المؤلف ٥

القسم الأول

للأستاذ الدكتور عبد العزيز رفاعى

ـ الباب الأول : الوحدة الوطنية فى مقاومة الغزاة ٩

الفصل الأول : الوحدة الوطنية فى مقاومة الهكسوس ١٠

الفصل الثانى : التماسك والصمود فى مقاومة الرومان والبطالمة ١٣

الفصل الثالث : الوحدة الوطنية فى مقاومة الصليبيين ٢٤

الفصل الرابع : الصمود فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر ٣٠

الفصل الخامس: التماسك فى مقاومة الانجليز فى رشيد ٣٦

الفصل السادس: الوطنية المصرية وثورة عرابى فى مقاومة الانجليز ٦٦

الفصل السابع : الوحدة الوطنية فى ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ٨٢

الباب الثانى : أصالة الطابع الوطنى فى الشخصية المصرية ١٠٨

الفصل الأول : الوحدة الوطنية إحدى سمات الشخصية المصرية ١١٠

الفصل الثانى : الطابع الوطنى المصرى بين طوابع الشعوب ١١٤

القسم الثانى

الأستاذ حسين عبد الواحد الشاعر

- الباب الثالث : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والوحدة الوطنية ١٢٠

الفصل الأول : انطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نهاية مد قومى ١٣١

الفصل الثانى : الوحدة الوطنية وتصفية الاستعمار ١٢٤

الفصل الثالث : الوحدة الوطنية فى مصر وعدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ ١٣٥

الفصل الرابع : ثورة ٢٣ يوليو ومتطلبات الوحدة الوطنية ١٣٨

- الباب الرابع : حماية الوحدة الوطنية المصرية ١٧٣

الفصل الأول : الحرب النفسية ودورها فى زعزعة الوحدة الوطنية ١٧٥

الفصل الثانى : مهام وواجبات الشعب فى دعم الوحدة الوطنية ١٨٣

الفصل الثالث : المؤسسات السياسية والجماهيرية وحماية الوحدةالوطنية ١٩١

- الخاتمة ٢٠٩
- مصادر ومراجع الكتاب . ٢١١
- الفهرست ٢١٤

إيداع رقم ١٧٤٢ / ١٩٧٣

مطبعة
أحمد علي مخيمر
٢٩ شارع الجيش تليفون ٩٠١١٩٢

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة